
مجلة
الابتسامة



المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت
159
السنة الثامنة والعشرون / مارس - ابريل 2010

ملف العدد

عصر عدم القطبية

بابلو بيكاسو.. التزام وحرية



من أعمال الفنان الإسباني
بابلو بيكاسو

المحتويات



إيقاف تيار الخسائر وقروض النهب واللصوصية 6

بقلم: جون أتلس وبيتر دريير ....

ترجمة: فوزي يوسف قشوع ....

بروكسل: هل تكون العاصمة القادمة للبلقان؟

بقلم: جيمس سين أبراين 84

ترجمة: فرج الترهوني ....

التطور التاريخي للمهاجرين العرب في أوروبا

بقلم: وانغ شين 102

ترجمة: د.عبدالعزيز حمدي عبدالعزيز ....

الكتب النادرة ورجال الثورة 119

بقلم: أندرو بيتغري ....

ترجمة: د.إيهاب عبدالرحيم محمد

مدينة بلا انبعاثات ضارة في الصحراء 126

بقلم: كيفين بوليس ....

ترجمة: معاذ فوزي قشوع ....

السحر واللغز في عناصر «أورمس» 136

بقلم: روجر تايلور ....

ترجمة: مالك أحمد عساف ....

فيلم «لاعبو الشطرنج» 148

للمخرج ساتياجيت راي ....

بقلم: أندرو روبنسن ....

ترجمة: ليلى عادل زيتون ....

بيكاسو الالتزام والحرية 166

ترجمة: د.المنصف الشنوفي ....

مراجعة: إيمان خالد المسلم ....

دعوة

ترحب المجلة كل الترحيب بإسهام المثقف العربي، المتابع لنتاج الفكر العالمي، وتعاونه معها في دعم رسالتها الثقافية وذلك عن طريق تزويدها بما يترجم عن اللغات الأجنبية.

• شروط الترجمة:

أن تكون المادة المترجمة متميزة بالمستوى الفكري والعلمي الرفيع.

أن تكون مما نشر في الدوريات العالمية خلال السنة الأخيرة من تاريخ الإرسال.

الا تكون المجلة (المصدر) أسبوعية أو نصف شهرية.

❖ يرجى الإحاطة علماً بأن المجلة تعتذر عن عدم النظر في أي بحث:

قد يرسل من دون أصله الملون، أو يرسل من دون طباعته على الآلة الكاتبة.

❖ تدفع المجلة مكافأة عن المقالة المترجمة التي تقبلها للنشر بمعدل ٢٠ ديناراً كويتياً عن كل ألف كلمة، فإن تكرر وصول البحث المترجم من أكثر من جهة، دفعت المكافأة للترجمة الأكثر جودة وصحة.

❖ المجلة غير مسؤولة عن إعادة المقالات التي لا تقبل.

❖ المطلوب لأسباب إجرائية مهمة تزويدنا بـ :

1- اسم المترجم الثلاثي.

2- رقم الحساب البنكي.

3- السيرة الذاتية (C.V).

ملف العدد



ترجمة: حمدي أبو كيلة

22 ما بعد الهيمنة الأمريكية
.... بقلم: ريتشارد ن. هاس

36 الميزة الأمريكية
.... القوة في القرن الشبكي
.... بقلم: آن ماري سلوفتر

56 مستقبل القوة الأمريكية:
كيف تستطيع أمريكا أن تتعايش مع
.... صعود الآخرين؟
.... بقلم: فريد زكريا



تصدر كل شهرين عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

رئيس التحرير

بدر سيد عبدالوهاب الرفاعي

E-mail: bdrifai@nccal.org.kw

مستشار التحرير

د. إلياس عبدالسلام البراج

هيئة التحرير

أ. د. حسين دشتي

د. لبنى أحمد القاضي

د. منصور بوخمسين

أ. رضا يوسف الفيلي

سكرتير التحرير

دلال سالم المسلم

البريد الإلكتروني

thaqafa_q@hotmail.com

أسسها في العام 1981

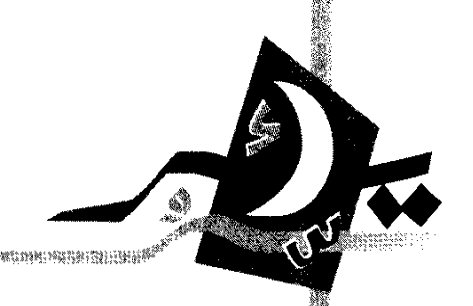
أحمد مشاري العدواني

1923 - 1990

الآراء المعروضة في الأبحاث تعبر عن وجهات نظر كتابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس



تم التنضيد والإخراج والتنفيذ بوحدة الإنتاج في المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب



يطرح ملف هذا العدد إشكالات جديدة تتعلق بالنظام العالمي والتغيرات الحاصلة فيه من زوايا مختلفة، وذلك في محاولة لاستشراف مستقبل وهوية هذا النظام والفاعلين الأساسيين فيه.

وفي خضم هذا البحث يأتي مصطلح «عصر عدم القطبية» ليعبر - وفق مُنظريه - عن عالم ينتقل من نظام القطب الواحد إلى نظام تنعدم فيه القطبية بمختلف أشكالها، أو تصبح بلا معنى: الأحادية أو الثنائية أو المتعددة (الأقطاب)، وذلك بسبب عوامل نوعية كثيرة، ثقافية واقتصادية وسياسية وغيرها.

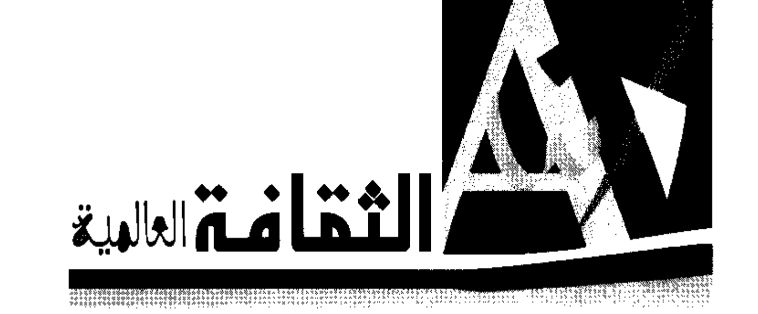
هذه العوامل أصبحت من سمات عصرنا الراهن، وستبقى سنوات غير قليلة، بل إن بعضها هو اليوم من أهم محددات كثير من الشؤون الدولية والإقليمية وحتى المحلية - في حالة بعض الأزمات المستفزة لمنظومة «قيم» النظام السائد حاليا. فدخول البشرية في عصر الشبكة المعلوماتية التي تربط بين مئات ملايين البشر، وتولد صلات مدنية ومهنية ومعرفية عابرة للحدود السياسية والقارية والجنسية، ووجود الشبكات العالمية التفاعلية بين مئات الآلاف من مؤسسات المجتمع المدني، من جمعيات ونقابات، والصعود المطرد لنجم وصلاحيات بعض المنظمات الدولية، مثل المحكمة الجنائية

الدولية... كل هذه تجعل من المستحيل - وفق آراء مفكرين استراتيجيين أمريكيين - الحديث عن نظام دولي أو عالمي يتحكم فيه قطب واحد، أو عدة أقطاب يتنازعون السلطة حول العالم. بل إن نخبة من هؤلاء يبحثون الآن - أو منذ الآن - عن سبل دعم موقع الولايات المتحدة الأمريكية في هذا النظام من أجل الحيلولة دون الفوضى التي قد ترافق هذا النظام، في حين يستمر آخرون في القول إن الولايات المتحدة يمكن أن تواصل ممارسة دور قطبي عالمي، وإن كان مرد تراجعها (عن موقع القطب الواحد) يعود إلى ظهور قوى جديدة على المسرح العالمي أكثر مما يعود إلى ضعفها العسكري أو السياسي أو الاثنين معا.

وإلى جانب هذا الملف «الحيوي» الذي يواكب تساؤلات جوهرية لدى القراء، ويشغل تفكير كثير من النخب على امتداد العالم، يضم العدد دراسات ومقالات غنية عديدة - في مجالات العلم والطب والتاريخ والفنون والبيئة - تسبر غور عوالم جديدة، وتحمل في كل منها متعة إضافية من متع ثقافة عالمية حقيقية.

بدر سيد عبد الوهاب الرفاعي

رئيس التحرير



إيقاف تيار الخسائر وقروض النهب واللصوصية

مصرفيون، وسماسرة، ومستثمرون جشعون أساؤوا استغلال سلطتهم السياسية وأجبروا ملايين الأمريكيين على فقدان بيوتهم، فماذا نستطيع أن نعمل الآن لحلّ هذه الأزمة؟

بقلم: جون أتلس وبيتر دريير

ترجمة: فوزي يوسف قشوع

العنوان الأصلي للمقال: Stemming the Red Tide

ونشر في مجلة Shelter Force Magazine عدد ربيع 2008

لقد أصبح الأمر رسمياً الآن. ففي اجتماعها السنوي في يناير من العام 2008، اختارت جمعية اللهجات الأمريكية كلمة «subprime» أي «القروض العقارية المخاطرة[1]» بوصفها كلمة السنة لعام 2007، وقد علّلت الجمعية اختيارها بأنه يشير إلى قلق الجمهور العام بسبب «أزمة الرهن العقاري التي تزداد عمقاً». «الجميع يتحدث عن القروض المخاطرة»، هذا ما قاله وين جلوكا، المتحدث باسم المجموعة. «إنها تؤثر في جميع أنواع الناس في مختلف الأماكن».

---

(1) القروض العقارية المخاطرة أو subprime: مصطلح عام يشمل القروض العقارية الممنوحة الى المقترضين الذين يفتقرون إلى تاريخ ائتماني او احتساب جدارتهم الائتمانية منخفضة. تمنح هذه القروض مقابل رهن عقاري، لكن أسعار الفائدة والرسوم المرتبطة بها أعلى من أسعار الفائدة والرسوم العادية - المترجم.

وعلى الأرجح أن تكتسب الكلمة مزيداً من الانتشار في العام 2008 وحتى في العام 2009 أيضاً. في الحقيقة، يندر أن يمرّ يوم واحد دون قصة إخبارية حول العدد المتسارع من حبس الرهون[2] العقارية، وهذا عبارة عن «تسونامي» اقتصادية تسبب الفوضى في سوق الإسكان وسوق الأسهم، وفي صناعة البنوك، وأسواق المال العالمية، ناهيك عن العائلات والأحياء التي انقلبت رأساً على عقب بسبب هذا الاضطراب. يبدو مصطلح «القروض المخاطرة» بالنسبة لمعظم الأمريكيين، وكأنه مصطلح مصرفي فني محايد. ويفضل الناشطون الحديث عن إقراض «لصوصي»، ينطوي على ممارسات تعسفية، ومقترفي آثام، وضحايا.

إنها أزمة من دون أدنى ريب، فهناك أكثر من سبعة ملايين مدين بقروض غير مضمونة، وفقاً لمركز الإقراض المسؤول، ومعظمها تشمل رهوناً عقارية بمعدل فائدة قابل للتعديل ؛ إذ تشتمل على معدل فائدة أولي منخفض يتزايد بسرعة إلى معدلات مرتفعة. إنّ ما يزيد على 14% من القروض المخاطرة الآن في حالة تخلّف عن سداد الدين، وتزداد الخطوة تسارعاً. ومن المرجح أن يواجه حوالي مليوني أمريكي أذىً مالياً وحزناً نفسياً لفقدان منازلهم خلال السنوات القليلة المقبلة.

وقد دفع التصعيد في احتجاج الجماهير بالرئيس بوش (السابق) في نوفمبر الماضي للإعلان عن خطة لتجميد الفوائد البنكية لمدة خمس سنوات لبعض مالكي البيوت الذين اشتروا بيوتهم بقروض ذات معدلات فوائد قابلة للتعديل والمبرمجة لإعادة احتسابها بمعدلات فوائد عالية في كثير من الحالات، وبمئات الدولارات في الشهر.

طيلة الأيام القليلة الأولى، أشارت جميع التقارير في وسائل الصحافة السائدة إلى خطة بوش على أنها تجميد لمعدلات الفوائد، وأنها ستساعد مالكي البيوت الواقعين في مصيدة انهيار الرهن العقاري، فكان العنوان الرئيسي في صحيفة «لوس أنجلوس تايمز» صبيحة يوم 6 ديسمبر 2007، على سبيل المثال، «سوف تُجمّد خطة بوش معدلات الفائدة»، وقامت العديد من القصص الإخبارية الأولية بوصف الاتفاق الذي تمّ بين الإدارة وصناعة الإقراض.

المشكلة أنه لم يكن هناك في الحقيقة

(2) حبس الرهن أو الحجز العقاري وبالإنجليزية foreclosure: هو حجز ملك المقترض بعد تخلّفه عن تسديد قرضه العقاري. وبعد إتمام الإجراء، يجوز لجهة التمويل بيع العقار والاحتفاظ بعائد البيع للوفاء بقيمة العقار المرهون والتكاليف القانونية، ويتم رد فائض العوائد للمقترض - المترجم.

(3) وول ستريت Wall Street: شارع المال والبورصة في الولايات المتحدة الأمريكية، وول ستريت هو أحد شوارع مانهاتن السفلى، مدينة نيويورك، الولايات المتحدة الأمريكية. وفي الوقت الحالي وول ستريت يعني الواجهة الرئيسة للسوق الأمريكي حيث توجد فيه بورصة نيويورك والكثير من الشركات المالية الأمريكية الضخمة ويوجد أيضا مقرّ أميريكان ستوك إيكستشينغ Stock Exchange: أو بورصة أمريكا، ويرمز وول ستريت للقوة المالية والاقتصادية الأمريكية - المترجم.

مثل هكذا خطة أو اتفاق، فخطة بوش، التي طوّرها وزير الخزانة هنري بولسون، وهو ممثل «وول ستريت»[3] Wall Street داخل إدارة بوش، عبارة عن مجموعة من التوجيهات الإرشادية التي تعتمد على طيبة قلب البنوك وكرمها. وكانت طلباً مهذباً من المستثمرين الذين جنَوا أرباحاً ضخمة بسبب رفع أسعار البيوت المفرط ومن الأوراق المالية المدعومة بالرهونات العقارية: ساعدوا إن استطعتم، لكن إذا كنتم راغبين في ذلك. لم يكن هناك مطلقاً أي متطلبات أو قوانين يمكن أن تجبر البنوك وجماعة المستثمرين على المشاركة في تحمل الألم أو أن يكونوا جزءاً من الحل.

كانت معالجة بوش في حقيقتها خطة أعمال تجارية اقترحت على المستثمرين بأنهم قد يرغبون بالتفكير بمقدار الأموال التي سيخسرونها في عمليات نزع الملكية، وأن يقوموا بتخفيض العوائد من أجل إيقاف تلك الخسائر. إنها حسابات تجارية عقلانية، إذا كنت بنكاً، لكن بالنسبة للبيت الأبيض - وهو مؤسسة عامة مسؤولة عن صالح الأمة - لم يكن ذلك أكثر من عمل مثير من أجل العلاقات العامة.

لقد خُدِع بعض النقاد تماماً، فأعلنوا أنّ خطة بوش لم تذهب بعيداً بما فيه الكفاية لأنّ عدداً كبيراً من المقترضين لن يكون مشمولاً بتجميد معدلات الفوائد. لكن شكاوى المقترضين ساعدت في النهاية على تغيير فهم وسائل الإعلام لما كان بوش يقوم به حقاً، فقد أشار نشطاء المستهلكين، ومن بعدهم مرشحو الرئاسة الديموقراطيون، إلى أنه حتى لو تعاونت البنوك والمستثمرون مع تجميد معدلات الفائدة المقترح، فإن ذلك سيستثني معظم أصحاب القروض المخاطرة، بما في ذلك أولئك الواقعون في أعمق الورطات، المتأخرون بالفعل عن تسديد دفعات الرهن العقاري المستحقة والذين يواجهون حبس الرهن.

من بين ما يقرب من المليونين من الرهون العقارية ذات معدلات الفائدة القابلة للتعديل والمتوقع إعادة ترتيبها خلال نهاية العام 2009، هنالك 240 ألفاً فقط - 12% - مشمولة بالتجميد، وفقاً لباركليز كابيتال، كما نُشر في صحيفة «نيويورك تايمز». وقدّر مركز الإقراض المسؤول بأنّ 145 ألف أسرة فقط ستكون مؤهلة لتجميد معدلات الفائدة المقترحة من قبل بوش، وسيواجه معظم المقترضين مصيرهم وحدهم في المفاوضة مع دائنيهم.

«هذه ليست إنقاذاً مالياً لمالكي البيوت»، هذا ما قيل لوسائل الإعلام من قبل جون تيلور، رئيس الجماعة الوطنية لاتحاد إعادة الاستثمار، وهي مجموعة للدفاع عن المستهلك، وإنما «هذه عملية إنقاذ لخطأ رقابي فاشل». إنّ الجشع المُعْدِي وارتكاب الأعمال المحظورة من قبل مؤسسات الإقراض هو الجاني، وليس سلوك المستهلك.

«إنه لمخيب للآمال»، هذا ما قاله

مايكل شي، المدير التنفيذي لإسكان «أكورن» Acorn- Association of Community Organizations for Reform Now أو رابطة المنظمات المجتمعية للإصلاح الآن، للصحفيين مفسراً: «لقد ربح «وول ستريت» المليارات، وهم رغم ذلك لا يدفعون الآن أي شيء على الإطلاق» عوضاً عن دورهم في أزمة القروض المخاطرة.

بوش، الذي امتدح ذات مرة هدف إدارته كونه سيخلق «مجتمعاً من مالكي البيوت»، قد يدخل التاريخ على أنه الرئيس الذي انحطّت تحت إشرافه ملكية البيوت. بدءاً بالرئيس بيل كلينتون، واستمراراً تحت الرئيس بوش، نما معدل ملكية البيوت على مستوى الأمة، خاصة بين الأمريكيين من أصول إفريقية ولاتينية، لكن النمو كان قائماً في جزء كبير منه على أسس هشة من القروض المخاطرة والمدمرة بطمعها. فمنذ العام 2005، انخفض معدل ملكية البيوت لجميع المجموعات العرقية وسينهار أكثر من ذلك في 2008 وفي السنة التالية. وفضلاً عن ذلك، فإنّ عدم رغبة بوش باتخاذ خطوات جريئة من أجل فرض رقابة على الدائنين، والسماسرة، والمستثمرين سيضمن أن يرث الرئيس القادم فوضى رهون عقارية أكبر.

هنالك أصداء آثار خطيرة لانهيار الرهون العقارية. وتكشف الدراسات أنّ نزع الملكية يزيد من الجرائم العنيفة في الأحياء. تصبح البيوت شاغرة، وتتراجع لتصبح أشياء قبيحة، وتنتقص من الشعور بالعافية في الأحياء المجاورة. البيوت الشاغرة تجتذب الجريمة وتزيد الصعوبة على الجيران عند شراء تأمين على منازلهم.

إنّ انهيار قيمة الممتلكات، وبالتالي انهيار عائدات ضريبة العقارات المحلية، يجعل الأمر أكثر صعوبة على المدن في أن توفر مدارس مناسبة، وحماية بوليسية وأي خدمات أخرى. نتيجة لذلك، قام عدد من المدن أخيراً بمقاضاة الدائنين، مؤكداً أن ممارساتهم سلكت تمييزاً عنصرياً ضد المقترضين من السود وأدّت إلى موجة من نزع الملكية وخفّضت عوائد ضريبة المدن وزادت تكاليف البلديات، فقد قامت مدينة بلتيمور بمقاضاة بنك «ويلز فارجو»؛ وتقاضي مدينة كليفلاند 21 دائناً، بما فيهم شركات مشهورة جداً مثل «سيتي غروب»، و«بنك أوف أمريكا bank of America»، و«ويلز فارغو»، و«ميريل لينتش»، و«كنتري وايد فايننشال».

بناءً على تقرير صدر عن المؤتمر الأمريكي لرؤساء البلديات: على الأرجح سوف يخفّض سوق الإسكان الضعيف والمخزون الكبير من البيوت غير المباعة من قيمة البيوت بحوالي 1.2 تريليون دولار هذه السنة. ويُعزا حوالي نصف ذلك التراجع للزيادة الحادة في حبس الرهونات العقارية. ويتنبأ التقرير بأنّ أسعار البيوت ستنخفض بمعدل 7% في العام 2008، وقد يصل إلى 16% في

كاليفورنيا، وستتراجع مبيعات البيوت الموجودة بنسبة 10% وسيبدأ الإسكان في الانهيار. وتبعاً لذلك، فإن سوق الإسكان الضعيف، وتسريح الموظفين في صناعة الخدمات المالية، ونفور المقرضين من منح القروض تميل بالأمة نحو الركود الاقتصادي.

«القروض المخاطرة» والإقراض «النهّاب أو اللصوصي»

نتج انهيار الرهون العقارية عن ممارستين استثنائيتين ومتداخلتين من قبل دائني ومستثمري الأمة.

الممارسة الأولى هي النمو الدراماتيكي للإقراض غير المضمون، أما الثانية فهي موجة الإقراض اللصوصي، وقد خلطت وسائل الإعلام بين هاتين الظاهرتين، مع أنهما مختلفتان وتتطلب كل منهما علاجاً مختلفاً.

«القروض المخاطرة أو subprime» مصطلح الصناعة المالية للقروض ذات معدلات فائدة مرتفعة لأناس يعتُبرون خطيرين جداً للحصول على قروض تقليدية. وتشمل هذه الفئة عائلات من الطبقة الوسطى تراكمت عليها ديون كثيرة، وعائلات عاملة متدنية الدخل ترغب في شراء بيت في سوق الإسكان المتضخم. الكثير من القروض المخاطرة تحمل معدلات فائدة قابلة للتعديل، تبدأ منخفضة وتقفز بشكل حاد بعد بضع سنوات. عادة ما تُفرض على القروض المخاطرة رسوم أعلى لتقديم الطلب ولتقييم العقار ورسوم أخرى، إضافة إلى دفعات تأمين أعلى على الرهن العقاري وعلى دفعات قيمة القرض الأساسي وفوائده، ورسوم على تأخير الدفعات، وغرامات على التقصير في الدفعات.

منذ عقد واحد فقط، كانت القروض المخاطرة نادرة، لكن، بدءاً من منتصف التسعينيات من القرن العشرين، وبقيادة شركة «تمويل الأسر Household Finance Corporation»، بدأت موجة الإقراض غير المضمون بالارتفاع. وقد شكّلت 8.6% من جميع الرهون العقارية في العام 2001، وحلّقت إلى 20.1% بحلول العام 2006. ومنذ العام 2004، جاء ما يزيد على 90% من الرهون العقارية المخاطرة بمعدلات فائدة قابلة للتعديل على نحو انفجاري.

مع معدلات الفائدة المتدنية، والثبات في ارتفاع أسعار المنازل، وعدم وجود قوانين رقابة حكومية عملياً، اخترعت البنوك وشركات تمويل الرهن العقاري معدلات فائدة مرتفعة، ومخططات رسوم مرتفعة لإغراء العائلات على أخذ قروض لا توفِّرُها بنوك التوفير التقليدية.

كان العديد من المُقترضين المؤهلين للحصول على قروض تقليدية بمعدل فائدة ثابت قد خُدعوا لأخذ قروض غير مضمونة. وقد تمّ إقناع مقترضين آخرين بأخذ قروض لم يفهموا شروطها إلا بشقِّ الأنفس نظراً لأن الوثائق كانت مُربِكة. وفي الكثير من الحالات، قام المُقرضون، ببساطة، بالكذب حول تكاليف القروض وفيما إذا كان المقترضون قادرين حقاً على

الوفاء بها، ومع ذلك، فإن الإقراض غير المضمون ليس مؤذياً بطبيعته الفطرية.

وعلى العكس من ذلك، يشتمل الإقراض اللصوصي على سلسلة من الممارسات الضارّة ويستهدف أولئك الذين هم أقل احتمالاً بأن يكونوا قادرين على الدفع. يتقاضى الدائنون الناهبون رسوماً ومعدلات فائدة مرتفعة من دون ضمير، تصل في بعض الأحيان إلى أكثر من 22% بكثير. ويواجه المقترضون رسوماً خفيَّة تحت غطاء من الشروط المُربكة مثل نقاط الخصم، التي توحي على نحو خاطئ بأنّ الرسوم ستخفّض معدلات الفائدة. والكثير من هذه القروض يفرض غرامة على سداد الديون قبل موعدها ما يجعل إعادة التمويل أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلاً بالنسبة للمقترضين عندما تهبط معدلات الفائدة.

سماسرة ودائنون ناهبون

حققت كبريات شركات تمويل القروض العقارية والبنوك أرباحاً طائلة من القروض المخاطرة. خلال السنة الماضية، كان عشرة دائنين - «بنك HSBC» (تمويل الأسرة)، و«سيتي مورجيج»، و«دبليو إم سي مورجيج»، و«فريمونت انفيستمنت»، و«أمريكويست»، و«أوبشن ون»، و«ويلز فارجو»، و«وفيرست فرانكلين» - مسؤولين عن 59% من جميع القروض المخاطرة، وقد وصلت إلى حوالي 300 مليار دولار. وقام بعض المديرين وكبار موظفي بعض الشركات ببيع أسهمهم وقبضوا مستحقاتهم قبل انهيار الأسواق، وأكثرهم جدارة بالذكر هو أنجيلو موزيلو، الرئيس التنفيذي السابق لشركة «كنتري وايد فايننشال»، أكبر الدائنين للقروض المخاطرة. حقق موزيلو أكثر من 270 مليون دولار من الأرباح من خلال بيعه أسهم وخيارات بدءاً من العام 2004 ولغاية أوائل العام 2007. ما بين عامي 2004 و2006، حقق الثلاثة المؤسسون لشركة «نيو سنتشري فايننشال»، ثاني أكبر دائني القروض المخاطرة، ما قيمته 40 مليون دولار من أرباح بيع الأسهم.

كان الكثير من الدائنين يديرون عمليات قانونية توفّر سوقاً للناس من ذوي الائتمان الخطر. لكن آخرين سعوا وراء أرباح ضخمة عبر وسائل غير أخلاقية، ولأنهم غير مقيدين برقابة حكومية، فقد خرقوا معايير الأعمال المصرفية.

عادة ما يكون لدى الدائنين رجال مبيعات يطاردون العائلات غير المحصّنة طيلة شهور، ويلحّون عليها ويشجعونها على أخذ قرض لشراء بيت أو إعادة تمويل بيتهم. لكن هناك سماسرة قروض عقارية مستقلين يعملون في العالم السفلي لصناعة الإقراض، ويكسبون رسوماً على إحضارهم مقترضين للدائنين - وكلما كبُر حجم القرض العقاري ازدادت رسومهم.

الكثيرون من مقترضي القروض المخاطرة وقروض النهب هم من الأسَر العاملة ومن الطبقة المتوسطة الذين وقعوا ضحية الضيق الاقتصادي في البلاد، وهو شِدّة لم تكن من صنع أيديهم،

وإنما عَرَض من أعراض التوجهات الاقتصادية لسنوات بوش، التي شملت التفاوت في الدخل، والأجور الراكدة، وازدياد الفقر. ففي الوقت الذي كانت فيه أسعار البيوت تحلّق بشكل يفتقر إلى النظام مع بقية الاقتصاد، كانت القروض المخاطرة هي الطريقة الوحيدة لتحقيق الحلم الأمريكي بامتلاك منزل، لكن بعد أن أصبحوا غير قادرين على توفير دفعات الرهن العقاري، لم يكن لديهم أي شبكة للأمان، فبدأوا بتفويت الدفعات الشهرية للرهن العقاري، خاصة بعد أن استبدلت معدلات الفوائد بمعدلات مرتفعة، لدرجة أنها وصلت إلى 30% لبعض المقترضين.

ليس جميع مديني القروض المخاطرة ضحايا أبرياء، إذ إن البعض منهم مضاربون، يبحثون عن الربح من فقاعة الإسكان العقاري وعيونهم مفتوحة بكامل سعتها. لقد توقعوا أن يؤجروا بيوتهم أو أن يبيعوها بسرعة لمشتر آخر في سوق إسكان متصاعد. وهناك آخرون كانوا، وعلى نحو محفوف بالمخاطر، يعيشون فوق حدود إمكاناتهم، فوقعوا تحت مديونية ثقيلة وسكنوا منازل لم يكونوا قادرين على تحمّل أسعارها تحت أي من المعايير المعقولة.

المستثمرون

هناك على الطرف الآخر من الخدمات المالية، يوجد المستثمرون، وهم أشخاص، ومؤسسات لن يراها المدينون أبداً، لكنهم من الذين جعلوا الانفجار في القروض المخاطرة والإقراض النهّاب أمراً ممكناً.

لم يحتفظ دائنو القروض المخاطرة بهذه القروض، بل قاموا بدلاً من ذلك ببيعها -مع مخاطرها - إلى بنوك استثمارية ومستثمرين اعتبروا هذه القروض ذات معدلات الفائدة المرتفعة كنزاً من الذهب. وفقاً لمصادر مختلفة، بما فيها محطة «إم إس إن بي سي» التلفزيونية، وصحيفة «واشنطن بوست»، والمؤسسة الأولى لأداء القروض الأمريكية، أصبحت الأعمال التجارية للقروض المخاطرة، بحلول العام 2007، سوقاً عالمية قيمتها 1.5 إلى تريليوني دولار لمستثمرين يسعون وراء عوائد مرتفعة، ولأنه لم يكن على الدائنين الاحتفاظ بسجلات القروض في قيودهم، فإنهم لم يقلقوا بشأن خطر الخسائر.

قامت مؤسسات الاستثمار في «وول ستريت» بإعداد وحدات استثمارية خاصة، اشترت القروض العقارية المخاطرة من الدائنين، وجمعتها في «أوراق مالية مدعومة بقروض عقارية» وباعتها مقابل رسوم سمينة لمستثمرين أثرياء على نطاق العالم كله. وفقاً لصحيفة «نيويورك تايمز»، احتفظ بنك الصين المحدود بما يقرب من 9.7 مليار دولار من الأوراق المالية المدعومة بقروض عقارية أمريكية مخاطرة. وقامت كبريات وكالات تصنيف الشركات بمنح أوراق القروض المخاطرة أعلى أنواع التقييم، إلا أنها أخفقت في تقييم المخاطر

الحقيقية.

ومع انهيار الأرض تحت أقدام سوق القروض المخاطرة، تعرضت أكثر من 80 شركة قروض عقارية للإفلاس منذ منتصف العام 2007. وتعرضت مؤسسات كبرى في «وول ستريت» لخسائر ضخمة عندما اندفعت الأزمة بعنف في أسواق المال الخارجية، من لندن إلى شنغهاي. لقد أمَّن «بنك ليمان بروذرز» أوراقاً مالية مدعومة بقروض مخاطرة بلغت قيمتها 51.8 مليار دولار في العام 2006 وحده. وبدءاً من سبتمبر العام 2007، كان 20% من هذه الديون متخلفاً عن الدفع، هذا ما ذكرته صحيفة نيويورك تايمز. وبالمثل، فإن حوالي خُمّس القروض المخاطرة التي وضَّبتها شركة «مورغان ستانلي»، و«باركليز»، و«ميريل لينتش»، و«بير ستيرنز»، و«غولدمان ساكس»، و«دويتش بنك»، و«كريديت سويس»، و«آر بي إس كنتري وايد»، و«جي بي مورغان»، و«سيتي غروب» كانت متخلفة عن الدفع لمدة 60 يوماً أو أكثر، أو أنها في حالة نزع ملكية، أو أنها شملت بيوتاً قد استعيدت ملكيتها.

كل ذلك بدأ مع التحرر من القيود الرقابية

في ذات مرة، لم يمض على مرورها عهد طويل، كانت واشنطن تفرض القوانين على البنوك. فقد أدى الكساد الكبير[4] إلى تشريع قوانين ووكالات حكومية للبنوك، مثل شركة تأمين الودائع الفيدرالية، ونظام بنك قروض الإسكان الفيدرالي، وشركة قروض مالكي البيوت، وفاني ماي، وإدارة الإسكان الفيدرالية، من أجل حماية المستهلكين وتوسيع ملكية البيوت. وبعد الحرب العالمية الثانية، ولغاية أواخر السبعينيات من القرن العشرين، كانت المنظومة تعمل بنجاح. وقد كانت صناعة الادخار والإقراض savings-and-loan (S&L) تخضع لرقابة قانونية شديدة تفرضها الحكومة الفيدرالية، وكانت مهمتها الحصول على إيداعات من الناس وتوفير القروض لغرض واحد هو مساعدة الناس على شراء بيوت للعيش فيها. قدّمت واشنطن تأميناً على هذه القروض من خلال شركة تأمين الودائع الفيدرالية، ووفرت تخفيضات من خلال وكالة الإسكان الفيدرالية ومن إدارة المحاربين القدامى، وخلقت سوق قروض عقارية ثانوية من أجل ضمان حركة رأسمال ثابتة، وطالبت شركات الادخار والقروض بأن تقدم قروضاً ثابتة لثلاثين سنة قابلة للتنبؤ بها، فكانت النتيجة

---

(4) الكساد الكبير أو الانهيار الكبير Great Depression هي أزمة اقتصادية شهدتها أمريكا في العام 1929م، أدت إلى توقف المعامل عن الإنتاج، ونتج عنها أن أصبحت عائلات بكاملها تنام في أكواخ من الكرتون وتبحث عن قوتها في مخازن الأوساخ والقمامة. وقد سجلت دائرة الصحة في نيويورك آنذاك أن أكثر من خمس عدد الأطفال يعاني من سوء التغذية. وكانت أمريكا قد بدأت بازدهار اقتصادي في العشرينيات ثم ركود ثم الانهيار الكبير في العام 1929م، ومن ثم عودة في العام 1932م - المترجم.

زيادة ثابتة في ملكية البيوت وقليلاً من نزع الملكية.

في سبعينيات القرن العشرين، عندما اكتشفت مجموعات السكان أن المقرضين ووكالة الإقراض الفيدرالية متورطون بتمييز عنصري منهجي ضد أحياء الأقليات والمستهلكين فيها - وهي ممارسة تدعى «تحديد الخطوط الحمراء[5] redlining» قاموا بحشد قواهم وأجبروا الكونغرس، بقيادة السيناتور وليم بروكسماير من ولاية ويسكونسن، على تبنّي قانون إعادة الاستثمار المجتمعي وقانون نزع ملكية البيوت، وقد خفّض القانونان معاً من التفاوت العنصري في الإقراض على نحو كبير.

ولكن في أوائل التسعينيات من القرن العشرين، استعملت صناعة الإقراض نفوذها السياسي للضغط ضد قوانين الرقابة الحكومية. ففي العام 1980، تبنّى الكونغرس قانون تحرير مؤسسات الإيداع والسيطرة النقدية، الذي ألغى تحديد السقف على معدل الفائدة، وجعل الإقراض المخاطر أكثر إمكانية للمقرضين. واعترضت شركات الادخار والقروض على القيود التي تحدّ من قدرتها على المنافسة مع البنوك التقليدية المشارِكة في الإقراض التجاري، فجعلت الكونغرس - ديموقراطيين وجمهوريين على حد سواء - يقوم بتغيير القوانين، ما سمح لشركات الادخار والقروض بأن تبدأ عربدة من المضاربات العقارية وسوء الإدارة والفساد والاحتيال على مدى عقد من الزمن.

الشخصية الأيقونية لتلك الحقبة هي تشارلس كيتنغ Charles Keating، الذي استغل علاقاته وتبرعاته السياسية لتحويل شركة إقراض صغيرة، هي «رابطة لنكولن للادخار والإقراض»، إلى مضارب عقاري كبير، فأوقع خمسة من أعضاء مجلس الشيوخ (ما يُسَمّوْن بـ «خمسة كيتنغ») في شبكته التي تمارس الفساد. وفي العام 1989، انهارت شركة لنكولن نتيجة قروضها المحفوفة بالمخاطر. إدوين جري، الرئيس السابق للمجلس الفيدرالي لبنك قروض الإسكان، الذي أشرف على مراقبة شركات الادخار والقروض، أخبر الكونغرس بأنّ عدة أعضاء من مجلس الشيوخ الأمريكي، بمن فيهم جون ماكين الجمهوري من أريزونا المرشح للرئاسة، قد فاتحوه والتمسوا منه أن يخفِّف من التحقيقات مع شركة لنكولن. فقد تسلم هؤلاء الشيوخ 1.3 مليون دولار كمساهمات في حملاتهم الانتخابية من

---

(5) التحديد بخطوط حمراء Redlining، ممارسة لحرمان القاطنين في مناطق معينة، وهم غالباً من الأقليات، من بعض الخدمات أو زيادة تكلفتها: خدمات من نوع البنوك والقروض المالية وقروض الإسكان والتأمين وحتى الخدمات الصحية والأسواق المركزية والتوظيف. وقد سُك هذا المصطلح من جانب نشطاء السكان في شيكاغو في ستينيات القرن العشرين ليصف ممارسة تحديد مناطق جغرافية بخطوط حمراء حيث لن تقوم البنوك باستثماراتها، وقد أطلق المصطلح بعد ذلك للتعبير عن التمييز بكل أشكاله بصرف النظر عن المواقع الجغرافي (عادة ضد الجنس أو العرق). وحينما بلغت هذه الممارسة أوجها كانت مناطق السكان السود هي أكثر المناطق التي مورس ضدها التمييز - المترجم.

كيتنغ.

أدّى تحرير البنوك من الرقابة إلى هَوَس الاندماج، فقامت البنوك وشركات الادخار والقروض بابتلاع بعضها بعضاً وتوفير القروض لبناء مراكز التسوق، وملاعب الغولف، وبنايات المكاتب، ومشاريع بنايات الشقق السكنية التي ليس لها أي منطق مالي سوى تحقيق ربح سريع. وعندما انقشع الغبار في أواخر الثمانينيات من القرن العشرين، أعلنت حوالي ألف شركة ادخار وإقراض وبنك إفلاسها، وكانت هناك مليارات من الدولارات على شكل قروض تجارية بلا قيمة، وتُرِكت الحكومة الفيدرالية لتقوم بإنقاذ المودِعين الذين كان المضاربون قد سلبوا من أموالهم ما بلغت قيمته حوالي 125 مليار دولار.

نتيجة لاندماج الصناعة، بين عامي 1984 و2004، تراجع عدد البنوك الواقعة تحت رقابة الشركة الفيدرالية لتأمين الإيداعات من 14392 بنكاً إلى 7511. في العام 1960 كانت أكبر عشرة بنوك تمتلك 21% من موجودات الصناعة؛ أما بحلول العام 2005، فقد سيطرت أكبر عشرة بنوك على 60% من الموجودات. وفي غضون ذلك، ظهر عالم سفلي من مؤسسات غير مصرفية تقوم بإقراض واستثمار الأموال، ما وفر آليات استثمار ومنتجات قروض معقدة ومحفوفة بالمخاطر تتحدى الإدراك العام وتقاوم الرقابة الحكومية.

سرعان ما أصبحت شركات الادخار والإقراض المحلية الراسخة شيئاً من الماضي، وأصبحت البنوك وشركات التأمين ومؤسسات بطاقات الائتمان ومقرضو أموال آخرون جزءاً من صناعة خدمات مالية عملاقة، في حين تخلت واشنطن عن مسؤوليتها في حماية المستهلكين من خلال تشريع القوانين والتنظيمات وفرض تطبيقها. وكانت الإكرامية الإضافية هي قانون غرام - ليتش - بلايلي[6] Gramm-Leach-Bliley لعام 1999، الذي قام بتمزيق ما تبقى من العوائق القانونية أمام اندماج البنوك التجارية، والبنوك الاستثمارية، والتأمين تحت سقف شركة واحدة.

وفي غضون ذلك، وبدءاً من إدارة ريغان، خفّضت الحكومة تمويل إسكان منخفضي الدخل تخفيضاً كبيراً، وسمحت لوكالة الإسكان الفيدرالية، التي كانت ذات مرة قوة رئيسة في مساعدة العائلات العاملة على شراء منزل، بأن تنجرف إلى عالم النسيان، فتقدمت البنوك، وممّولو القروض العقارية ومحترفو النصب والاحتيال لملء هذا الفراغ، بحثاً عن طرق لتحقيق أرباح كبيرة من مستهلكين مستميتين على تحقيق الحلم الأمريكي للملكية

(6) هو أحد القوانين في الولايات المتحدة الذي ألغى جزءاً من قانون غلاس - ستيغال، وفتح المنافسة بين البنوك وشركات الأوراق المالية وشركات التامين، علماً بأن قانون غلاس - ستيغال لعام 1933 كان يحظر على البنوك تقديم الخدمات الاستثمارية، التأمينية، والمصرفية التجارية - المترجم.

منزل، فاخترعوا «منتجات قروض loan products» جديدة عرّضت المستهلكين للمخاطر. وهكذا وُلِد سوق القروض المخاطرة.

في قلب الأزمة، يقف منظرو إيديولوجيات السوق الحرة من المحافظين الذين كانت أفكارهم قد أثّرت بشكل متزايد منذ ثمانينيات القرن العشرين في السياسة، والذين سيطروا على إدارة بوش، فهم يعتقدون أن الحكومة هي المشكلة دائماً، وليست الحّل أبداً، وأنّ تنظيم ومراقبة الأعمال الخاصة سيئ بشكل دائم. وقد نفَّذ الدائنون والسماسرة الموجودون خارج إشراف وتنظيم فيدرالي معظم القروض المخاطرة وقروض النهب والاستلاب.

في العام 2000، قام إدوارد إم. غراmليتش، أحد أعضاء الاحتياطي الفيدرالي، بالتحذير المتكرر من القروض العقارية المخاطرة والإقراض النهّاب، وقال عنها إنها قد عرّضت للخطر الحلم الأمريكي المزدوج الماثل بملكية بيت وتجميع الثروة. وحاول أن يقنع رئيس الاحتياطي الفيدرالي ألان غرينسبان بأن يتخذ تدابير ضد الإقراض المخاطر وغير العقلاني عن طريق زيادة الرقابة والإشراف، لكن تحذيراته لاقت آذاناً صماء، بما فيها آذان الكونغرس.

«كان بإمكان الاحتياطي الفيدرالي أن يوقف هذه المشكلة عند حدها»، هذا ما قاله حديثاً مارتن إيكيز، كبير مديري مركز الإقراض المسؤول، لصحيفة «نيويورك تايمز». «لو أن الاحتياطي الفيدرالي قام بواجبه، لما كان لدينا إقراض فاسد ولما واجهنا أزمة حبس الرهون في كل مجتمع تقريباً عبر أمريكا كلها».

وكما كتب عضو الكونغرس بارني فرانك في صحيفة «بوسطن غلوب» حديثاً فإن اندفاع موجة الإقراض المخاطر كانت نوعاً من «التجربة الطبيعية على دور التنظيم والإشراف»، تختبر نظريات أولئك الذين يفضِّلون التحرير الراديكالي للأسواق المالية. وأضاف فرانك إن الدروس واضحة: «التنظيم والإشراف الحصيف على القروض العقارية من قبل منظمي البنوك واتحادات الائتمان قد سمحت للسوق بالعمل بطريقة فعالة وبناءة، في حين أدّت القروض العقارية التي نُفِّذَت وبيعت دون تنظيم ورقابة إلى أزمة».

يعتقد بعض المراقبين السياسيين أنّ المزاج الأمريكي في تغيُّر، إذ أدرك أخيراً أن هوس إلغاء القوانين التنظيمية الذي بدأ في الثمانينيات من القرن العشرين قد أحدث فوضى اقتصادية وتراجعاً في مستوى المعيشة، وإذا احتاجوا إلى برهان، فإن أزمة حبس الرهون هي المستند القانوني رقم واحد.

إلى أين نذهب من هنا؟

على المسؤولين الحكوميين أن يميِّزوا بين دائني القروض المخاطرة الشرعيين ومحترفي النصب والاحتيال، الذين يعملون بقروض النهب واللصوصية.

وبالمثل، يجب أن يُعامل الناس الذين يواجهون حبس رهونهم بطريقة مختلفة اعتماداً على ما إذا كانوا قد أخفقوا في ممارسة مسؤوليتهم الشخصية أو أنهم كانوا ضحايا لممارسات لصوصية. البنوك والدائنون الآخرون والمستثمرون، الذين ضاربوا في ديون مدعومة برهون عقارية، عليهم أن يتحملوا بعض اللوم بسبب هذه الكارثة، وبالمثل، على المضاربين أن يعيشوا مع تبعات أعمالهم.

يجب على الكونغرس أن يسنّ قوانين لحماية ضحايا القروض النهّابة من الحجز العقاري، ويجب أن يحصل الضحايا على حق الاستعانة بمستشار غير ربحي للقروض أو بمحام يمكن أن يساعدهم في إعادة التفاوضً حول القروض أو مقاضاة البنوك، بما في ذلك كبريات مؤسسات «وول ستريت»، لانتهاكها قوانين حماية المستهلك المحلية والفيدرالية. ويجب أن توفر الحكومة مزيداً من التمويل للمجموعات غير الربحية التي تساعد مالكي البيوت على إعادة مفاوضة رهونهم العقارية وأن تطالب الدائنين بإعادة هيكلة قروض النهب.

كانت رابطة «أكورن ACORN»، وهي إحدى المجموعات غير الربحية وشبكة وطنية من المنظمات المجتمعية، تضغط على «سيتي غروب» من أجل إعادة هيكلة القروض بدلاً من حبس رهون المستهلكين من ذوي الدخل المتدني. تريد الرابطة من الدائنين أن يوافقوا على 30 سنة، ومعدل فائدة ثابت، وتعديل القروض الموجودة بحيث تصبح محتملة من أجل أن يتمكن المقترضون تحاشي زيادات معدلات الفائدة التي تأتي مع الرهون العقارية ذات معدل الفائدة القابل للتعديل، كما حثت الرابطة الدائنين على تعليق حبس الرهون أيضاً، والذي دعمه بعض مرشحي الرئاسة من الحزب الديموقراطي.

يوجد لدى ائتلاف المجتمع الوطني لإعادة الاستثمار برنامج لمنع حبس الرهون كان قد أنقذ الآلاف من مالكي البيوت من فقدان بيوتهم بالضغط على الدائنين لتغيير الرهون العقارية ذات معدلات الفائدة القابلة للتعديل إلى قروض بمعدلات فائدة ثابتة.

«اتحدوا هنا UNITE HERE»، هو اتحاد عمال صناعة الملابس والفنادق، والذي كان قد أطلق حملة ضد شركة «كنتري وايد فايننشال»، أكبر دائن للقروض المخاطرة، وطالب المستهلكين بمقاطعة الشركة حتى تتعهد ألا تنفذ الحجز العقاري على المدينين الذين تخلّفوا عن دفع القروض ذات الفائدة القابلة للتعديل.

لقد حققت مجموعات النشطاء هذه بعض التقدم، لكن من دون تفويض فيدرالي، عليهم أن يعتمدوا على الاحتجاجات والتهديدات الأخرى لفرض التعاون على البنوك، وهم يدعمون مشروع قانون برعاية عضو الكونغرس براد ميللر (ديموقراطي من

كارولينا الشمالية)، ولوريتا سانتشيز (ديموقراطية من كاليفورنيا)، يسمح لقضاة الإفلاس بتعديل شروط رهون البيوت العقارية. تحت القانون الحالي، يمكن تعديل شروط الرهن على يخت أو بيت لقضاء العطلة خلال الإفلاس، لكن لا يجوز تعديل شروط قرض على المساكن الأساسية. يعتقد المناصرون أنّ مشروع قانون ميللر - سانتشيز يمكن أن يساعد ما قد يصل إلى 600 ألف مالك بيت على تحاشي حبس الرهون، لكن رابطة رجال المصارف للرهن العقاري تحارب هذا القانون.

بالنسبة للمستقبل، نحن بحاجة لأن تكون الحكومة كلب حراسة على صناعة الإقراض، وليس كلباً أليفاً. تكمن الخطوة الأولى في إيقاف قروض النهب واللصوصية. يحتوي قانون إصلاح الرهن العقاري ومناوءة الإقراض النهاب لعام 2007، الذي وافق عليه مجلس النواب الأمريكي في نوفمبر، على بعض الفقرات الشرطية المفيدة، فهو يطالب الدائنين بالتثبُّت من دخل طالبي القروض وتوثيق وجود قدرة معقولة للمقترضين على السداد - ليس وفقاً لمعدل الفائدة الأولي وإنما وفق أي ارتفاع لمعدل مستقبلي، ويضع شركات الرهن العقاري الخاصة والسماسرة تحت مظلة قوانين الإقراض الفيدرالية، ويطالبهم بالتسجيل والحصول على تراخيص. ويسمح للمقترض أيضاً بأن يعدّل قرضاً غير قانوني قبل أن يكون مضطراً لحبس الرهن، ويسمح للولايات بملاحقة القضايا ضد الاحتيال، وتشويه الحقائق، والدعاية الزائفة، والإساءة للحقوق المدنية. تحت مشروع القانون هذا، يستطيع المقترضون الذين لحق بهم ضررٌ أن يطالبوا بتعويض من الدائن الأصلي، حتى وإن لم يكونوا عرضة لفقدان بيوتهم.

لكن تحت تأثير جماعات الضغط لصالح البنوك، فرّغ مجلس النواب مشروع القانون من بعض أفضل أجزائه. قامت جماعات الضغط لرابطة رجال المصارف للرهن العقاري ورابطة الصناعة المصرفية الأمريكية بإقناع المشرِّعين بالسماح للدائنين بالاستمرار في الممارسات الماكرة المتمثلة في دفع رسوم متزايدة للسماسرة لتوجيههم المقترضين نحو قروض عقارية مخاطرة بتكاليف أعلى، كما أنها تمنع المقترضين الذين بيعت قروضهم النهّابة لـ «وول ستريت» من مقاضاة المستثمرين طلباً للإعفاء إلى أن يواجه المقترضون حبس رهونهم. في الواقع، يجبر المدينون على حبس الرهن كشرط للدفاع عن حقوقهم.

تحت مشروع القانون، ليس لدى ضحايا قروض النهب أي قدرة تقريباً لمتابعة دعاوى ضد بنوك الاستثمار والمستثمرين الآخرين. لن يكون «وول ستريت» واللاعبون الكبار في سوق الرهن العقاري تحت طائلة المساءلة بسبب شرائهم قروضاً مؤذية. يجب

تشجيع المدينين الذين تعرضوا للنهب على مقاضاة مؤسسات «وول ستريت» في محاكم الولايات من أجل الإعفاء.

هنالك مشروع قانون شامل قُدِّم في ديسمبر من قبل السيناتور كريس دود (ديموقراطي من كونيتيكت)، وهو رئيس لجنة الأعمال المصرفية في مجلس الشيوخ، يسدُّ هذا القانون العديد من الثغرات الموجودة في مشروع قانون مجلس النواب من خلال إضافة مزيد من الحماية للمستهلك والغرامات على الصناعة. مشروع قانونه، المسمى: «قانون حفظ وحماية ملكية البيوت لعام 2007»، يجعل «وول ستريت» والمستثمرين الآخرين عرضة للمساءلة القانونية بسبب الممارسات غير الشرعية لسماسرة ودائني القروض العقارية. بخلاف القانون الموجود حالياً، الذي يضع العبء على المدين ليحدِّد هوية السمسار أو الدائن الذي نفَّذ الصفقة الأصلية، ويسمح مشروع قانون «دود Dodd» للمدين بأن يقاضي المالك الحالي للقرض العقاري. سيمنع الدائنين من توجيه المقترضين نحو قروض أعلى كلفة ومن التأثير على قيمة التخمين للبيت، ويطالب بأن يتأكد الدائن من قدرة المدين على سداد قرض عقاري بمعدل فائدة قابل للتعديل بعد أن يقفز معدل الفائدة، وأن توفر القروض فائدة حقيقية صافية للمدين، كما أنه يحظر أيضاً دفع الغرامات على القروض المخاطرة مقدماً.

من المؤكد أنّ مجموعات الضغط التابعة للصناعة ستحاول إضعاف مشروع قانون دود، كما كانت قد تخلصت من عناصر أساسية في مشروع قانون مجلس النواب...

مهمة الكونغرس القادم

لمنع الأزمة الحالية من التفاقم - على الكونغرس القادم أن يتخذ إجراءً أكثر شجاعة لكبح الإقراض العقاري المؤذِي. وعلى مجلسيّ النواب والشيوخ أن يركِّزا على تقوية مؤسسات الإقراض غير الربحية لتخدم حاجات ائتمان المقترضين ذوي المجازفة العالية، فشركات الادخار والقروض القديمة مثلاً، هي شركات إقراض غير ربحية تقع تحت قوانين صارمة وهي مكرسة تماماً لمساعدة الناس على شراء بيوت بقروض شفافة متوازنة.

المقرضون غير الربحيين يقومون بعمل أفضل من نظرائهم الذين يعملون من أجل الربح في مساعدة عائلات الطبقة العاملة لكي تصبح مالكة لبيوتها دون تعريضها للخطر. مؤسسة خدمات إسكان الجوار الأمريكية هي إحدى هكذا مؤسسات إقراض، وهي مجموعة لا ربحية مرخَّصة فيدرالياً ولها فروع في كل مناطق المدن الأمريكية، تمنح 90% من قروضها لمشتري البيوت من ذوي الدخل المتدني والمتوسط - الذين يُدعَوْن بالمقترضين المحفوفين بالمخاطر والمؤهلين لقروض مخاطرة فقط في السوق الخاص.

حوالي 54% من مديني خدمات إسكان الجوار الأمريكية من أسر الأقليات. واعتباراً من 30 يونيو 2007، منحت حوالي 3000 قرض مجموعها 205 ملايين دولار لهؤلاء المقترضين الذين كانوا مضطرين من دونها لسوق القروض المخاطرة الخاص. لا يعاني هؤلاء المقترضون من مؤسسة خدمات إسكان الجوار من نفس مشاكل مديني القروض المخاطرة. في الحقيقة، يصل معدل الدين المتأخر لخدمات إسكان الجوار إلى 3.34% فقط - أدنى بكثير من المعدل الوطني البالغ 14.5% للقروض المخاطرة من القطاع الخاص. وينطبق الشيء نفسه على حبس الرهون. النصف فقط من 1% من قروض خدمات إسكان الجوار هو الذي وصل إلى مرحلة حبس الرهن خلال الربع الثاني من 2007، وهذا يعادل خُمس معدل حبس الرهون (2.45%) بين دائني القطاع الخاص.

تنجح مؤسسة خدمات إسكان الجوار لسببين، إذ يوجد لديها برنامج تعليمي فعال للقروض العقارية يقدّمه نفس مستشاريها للقروض، وتطالب كل مدين بأن يشارك في برنامجها الإرشادي قبل أن يحصل على القرض وبعده. وفضلاً عن ذلك، فهي لا تلجأ الى احتساب معدلات فائدة قابلة للتعديل.

أصحاب البنوك والسماسرة، الذين حقّقوا أرباحاً طائلة من سوق القروض المخاطرة ومن قروض النهب، يقومون بعمل إضافي من أجل حماية أرباحهم من خلال جماعات الضغط في عواصم الولايات وفي واشنطن لحمايتهم من الحكومة. ومما لا شك فيه أنّ صناعة الأعمال المصرفية قد حذرت مراراً وتكراراً من أن أي قيود على سلوكهم سيحرم الناس المحتاجين من دخول سوق شراء البيوت...

بالتأكيد إنّ هذا ليس مثيراً للدهشة، إذا ما أخذنا في اعتبارنا ما كان معروضاً على طاولة المفاوضات عندما صاغت الإدارة (السابقة) الخطة، فقد كان اللاعبون الأساسيون هم شركات خدمات الرهون العقارية (الذين يقبضون دفعات مالكي البيوت الشهرية، أو يحبسون الرهون عندما يتأخر المدينون في الدفع) ومجموعات تمثل المستثمرين مالكي القروض العقارية، تحت سيطرة بنوك «وول ستريت». عكست مقاربة بوش حسابات المجموعات التي تستفيد من تجميد معدلات الفائدة في بعض القروض على نحو أفضل من حبسها للرهون. أما المجموعات التي تمثل المستهلكين - فلَمْ تُدْعَ للمفاوضات.

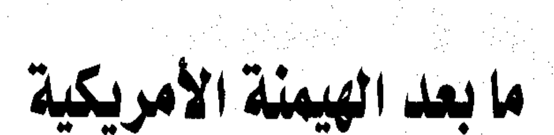
لم يقدم أيّ من مرشحي الرئاسة الجمهوريين أي اقتراحات تعالج أزمة قروض النهب بشكل جاد، في حين اتخذ المتنافسون الديموقراطيون مواقف قوية لحماية مالكي البيوت الذين يواجهون حبس الرهون وأضافوا تشريعات معقولة لصناعة الخدمات المالية، فقد قام جون إدواردز قبل أن ينسحب من السباق، بقيادة الديموقراطيين في إلقاء الضوء

على الحاح إلحاح كارثة حبس الرهون، وطالب بتجميد معدلات الفائدة على الرهن العقاري لسبع سنوات. محاكاةً لإدواردز، اقترحت هيلاري كلينتون التجميد لمدة خمس سنوات وتعليق حبس الرهون لتسعين يوماً. ويدعم باراك أوباما صندوقاً لمنع حبس الرهون بمبلغ 10 مليارات دولار لمساعدة المدينين على الحصول على قروض عقارية بسعر أدنى وبمعدلات فائدة ثابتة، علماً بأنّ كلينتون وأوباما كلاهما من رعاة مشروع قانون دود.

يرتكز أفضل أمل في إصلاح حقيقي على فوز الحزب الديموقراطي في نوفمبر، بما يضمن أغلبية في الكونغرس إضافة إلى الرئاسة. وبعد الفوز الانتخابي، يجب على الديموقراطيين الفائزين أن يضمنوا بأن تكون مجموعات المستهلكين مشاركة بالكامل في تشكيل تشريعات الإقراض.

أليس من الرائع أن نسمع الرئيس القادم يخبر الشعب الأمريكي بأن عصر جشع وقذارة ما يدعى بسوق الأعمال المصرفية الحرّة غير الخاضعة للرقابة قد ولّى إلى غير رجعة؟


عصر عدم
القطبية
ترجمـة: حمـدي أبو كيلـة



ما بعد الهيمنة الأمريكية

بقلم: ريتشارد ن. هاس

الميزة الأمريكية
القوة في القرن الشبكي

بقلم: آن ماري سلوفتر

مستقبل القوة الأمريكية:
كيف تستطيع أمريكا أن تتعايش مع صعود الآخرين؟

بقلم: فريد زكريا





ما بعد الهيمنة الأمريكية

بقلم: ريتشارد ن. هاس*

العنوان الأصلي للمقال: he Age of Nonpolarity
ونشر في مجلة Foreign Affairs عدد: مايو - يونيو 2008

السمة الرئيسية للعلاقات الخارجية في القرن الواحد والعشرين تتحول لتكون عدم القطبية، أي عالم لا تهيمن عليه دولة أو دولتان أو حتى عدة دول، لكن عشرات من الأطراف التي تمتلك وتمارس أنواعا متعددة من القوة، وهو ما يمثل تحولا مزلزلا عما كان في الماضي، فقد بدأ القرن العشرون متعدد الأقطاب على نحو واضح، لكن بعد حوالي خمسين عاما وحربين عالميتين وصراعات كثيرة أصغر، نشأ نظام ثنائي القطبية، ثم مع نهاية الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفييتي أخلت القطبية الثنائية الطريق للقطبيية الأحادية، وهي نظام دولي تهيمن عليه قوة واحدة، هي.

* ريتشارد ن. هاس Richard N. Hass: رئيس مجلس العلاقات الخارجية Council of Foreign Relations.

في حالتنا هذه . الولايات المتحدة الأمريكية، لكن القوة الآن موزعة، وانطلاق عدم القطبية يطرح عددا من الأسئلة المهمة، ففيم يختلف عدم القطبية عن الأشكال الأخرى للنظام الدولي؟، وما عواقبه المحتملة؟ وكيف ستستجيب له الولايات المتحدة؟

نظام دولي أكثر جدة

على العكس من تعدد القطبية - التي تتسم بوجود أقطاب متعددة محددة أو تركيز للقوة . فإن نظاما عديم القطبية يتسم بوجود مراكز كثيرة جدا ذات قوة واضحة. ففي نظام متعدد القطبية، لا تهيمن قوة واحدة، أو أن النظام لن يصبح أحادي القطبية، ولن يدور تركيز القوة حول موقعين اثنين، أي إن النظام لن يصبح ثنائي القطبية، فالنظام متعدد القطبية يمكن أن يكون تعاونيا، بل يحتمل حتى التناغم بين القوى، حيث يعمل فيه عدد قليل من القوى الرئيسة وفق قواعد مستقرة، ويعاقب من يخترق تلك القواعد، كما أنه يمكن أيضا أن يكون أكثر تنافسية، ويدور حول توازن في القوة، ويكون أكثر اتجاها للصراع عندما يختل هذا التوازن.

من اللمحة الأولى، يمكن أن يبدو العالم اليوم متعدد القطبية، حيث القوى الرئيسة . الصين والاتحاد الأوروبي والهند واليابان وروسيا والولايات المتحدة . تضم أكثر من نصف سكان العالم وتستحوذ على 75 في المائة من الناتج المحلي الإجمالي العالمي و80 في المائة من الإنفاق العسكري، ومع ذلك فإن المظاهر يمكن أن تكون خادعة، فعالم اليوم يختلف جوهريا عن عالم تعدد القطبية الكلاسيكي، فهناك مراكز قوى أكثر بكثير، والقليل من هذه الأقطاب ليس دولا قومية. والواقع أن إحدى الملامح الرئيسة للنظام العالمي الراهن هي أن الدول القومية فقدت احتكارها للقوة، وفي بعض المجالات فقدت أهميتها أيضا، فالدول تواجه التحدي الآتي من الأعلى من قبل المنظمات الإقليمية والعالمية، ومن أسفل من قبل الميليشيات، ومن الأجناب من قبل المنظمات غير الحكومية والشركات، والسلطة اليوم موجودة بين أيد عديدة وفي أماكن عديدة، وبالإضافة إلى القوى الرئيسة الست في العالم، هناك قوى إقليمية كثيرة جدا، البرازيل ولحد ما الأرجنتين وشيلي والمكسيك وفنزويلا في أمريكا اللاتينية، ونيجيريا وجنوب أفريقيا في أفريقيا، ومصر وإيران وإسرائيل والسعودية في الشرق الأوسط، وباكستان في جنوب آسيا، وأستراليا وإندونيسيا وكوريا الجنوبية في شرق آسيا وغرب المحيط الهادي، كما أن منظمات كثيرة ستكون في قائمة مراكز القوة، بما في ذلك منظمات دولية (مثل صندوق النقد الدولي والأمم المتحدة والبنك الدولي)، ومنظمات إقليمية (مثل الاتحاد الأفريقي وجامعة الدول العربية ورابطة دول جنوب شرق آسيا والاتحاد الأوروبي ومنظمة الدول الأمريكية ورابطة جنوب شرق آسيا للتعاون الإقليمي)، وتلك المنظمات

الوظيفية (مثل وكالة الطاقة الدولية ومنظمة أوبك ومنظمة شنغهاي للتعاون ومنظمة الصحة العالمية)، ومثل ذلك أيضا هناك ولايات داخل الدول القومية مثل كاليفورنيا، وأوتار براديش في الهند، ومدن مثل نيويورك وساو باولو وشنغهاي، ثم هناك الشركات العالمية الكبرى بما في ذلك تلك التي تهيمن على مجالات الطاقة والمال والتصنيع، وهناك كيانات أخرى يجب ألا تغفل وهي وسائل الإعلام العالمية («الجزيرة»و«BBC»و«CNN»)، وميليشيات («حماس» و«حزب الله» و«جيش المهدي» و«طالبان»)، وأحزاب سياسية وحركات ومؤسسات دينية ومنظمات إرهابية (القاعدة)، واحتكارات المخدرات، ومنظمات غير حكومية من النوع الأكثر نعومة (مؤسسة بيل وميليندا غيتس، وأطباء بلا حدود، والسلام الأخضر Green Peace). إن عالم اليوم هو عالم ذو قوة موزعة أكثر مما هي مركزة بشكل متزايد. وفي هذا العالم، تعد الولايات المتحدة، وستظل، أكبر تجمع منفرد للقوة، فهي تنفق أكثر من 500 مليار دولار سنويا على قواتها المسلحة. وأكثر من 700 مليار إذا أخذنا عملياتها في أفغانستان والعراق في الحسبان. وتزهو بقواتها البرية والجوية والبحرية الأكثر قدرة في العالم وباقتصادها ذي الناتج المحلي الإجمالي الذي يصل إلى 14 تريليون دولار هو أكبر اقتصاد في العالم، والولايات المتحدة هي أيضا مصدر رئيس للثقافة (من خلال السينما والتلفزيون) وللمعلومات والابتكار، لكن واقع القوة الأمريكية يجب ألا يخفي الهبوط النسبي في موقعها في العالم، وما يصاحب هذا النفوذ النسبي في القوة من هبوط واضح في النفوذ والاستقلال، فنصيب الولايات المتحدة من واردات العالم هبط بالفعل إلى 15 في المائة، وعلى الرغم من أن الناتج المحلي الإجمالي للولايات المتحدة يصل إلى أكثر من 25 في المائة من إجمالي العالم، فمن المؤكد أن تهبط هذه النسبة مع الوقت عندما نأخذ في الاعتبار الفروق الفعلية والمقدرة بين معدلات النمو في الولايات المتحدة ومثيلاتها في العمالقة الآسيوية ودول كثيرة أخرى، فعدد كبير منها ينمو بمعدلات تفوق ضعفي أو ثلاثة أضعاف معدل النمو في الولايات المتحدة.

عالم اليوم هو بشكل متزايد عالم من القوة الموزعة أكثر منه عالم من القوة المركزة

إن الناتج المحلي الإجمالي يكاد يكون المؤشر الوحيد للتحرك بعيدا عن الهيمنة الاقتصادية الأمريكية، كما أن تصاعد أرصدة الثروة الرئيسة. في دول مثل الصين والكويت وروسيا والسعودية والإمارات. هو مؤشر آخر. إن هذه التجمعات من الثروة، التي تدار بواسطة الحكومات، هي في الغالب ناتجة من صادرات النفط والغاز، التي تصل اليوم إلى حوالي ثلاثة تريليونات دولار، وهي تنمو بمعدل تقريبي يصل إلى تريليون دولار سنويا، وتشكل على نحو متزايد مصدرا مهما للسيولة للشركات الأمريكية، كما

أن أسعار الطاقة المرتفعة . المدفوعة في معظمها بتفجر الطلب الصيني والهندي . سوف تبقى كذلك لبعض الوقت، وهو ما يعني أن حجم وأهمية هذه الأرصدة سيستمران في النمو، وهناك أسواق مال بديلة تنشأ وتجذب الشركات بعيدا عن سوق المال الأمريكية، بل إنها تصدر حتى اكتتابات عامة جديدة Initial Public Offerings (IPOs[1]، ولندن بصفة خاصة تنافس نيويورك كالمركز المالي العالمي، وقد فاقتها بالفعل بمقياس عدد الاكتتابات العامة الجديدة التي تصدر فيها، كما ضعف الدولار الأمريكي في مقابل اليورو والجنيه الإنجليزي، ومن المتوقع أن تهبط قيمته أيضا في مواجهة العملات الآسيوية، ومعظم الأوراق المالية في العالم اليوم بعملات أخرى خلاف الدولار، والانتقال إلى تسعير البترول باليورو أو سلة عملات وارد، وهي الخطوة التي من شأنها أن تجعل الاقتصاد الأمريكي أكثر تعرضا للتضخم إلى جانب أزمات العملة.

إن التفوق الأمريكي يواجه أيضا تحديات من أنواع أخرى، مثل الكفاءة العسكرية والدبلوماسية، فمقاييس الإنفاق العسكري ليست هي نفسها مقاييس القدرة العسكرية، وقد أوضحت أحداث الحادي عشر من سبتمبر كيف أن استثمارا صغيرا من قبل إرهابيين يمكن أن يسبب مستويات غير عادية من الدمار المادي والإنساني، فالكثير من أكثر الأسلحة الحديثة تكلفة ليس مفيدا بصفة خاصة في الصراعات الحديثة، التي حلت فيها مناطق قتال حضرية محل ميادين القتال التقليدية، وفي مثل هذه البيئات، فإن أعدادا كبيرة من الجنود المسلحين تسليحا خفيفا يمكن أن يثبتوا أنهم أكثر من ند لعدد أصغر من قوات أمريكية عالية التدريب وأفضل تسليحا.

إن القوة والنفوذ يصبحان أقل، ثم أقل ارتباطا في عالم من عدم القطبية، ودعوات الولايات المتحدة للآخرين من أجل الإصلاح ستلقى آذانا صماء، ولن تحصد برامج المساعدة الأمريكية إلا القليل، كما أن العقوبات التي تقودها الولايات المتحدة لن تنجز إلا الأقل، فبعد كل شيء أثبتت الصين أنها أكثر البلاد قدرة على ممارسة النفوذ بشأن البرنامج النووي لكوريا الشمالية، وقدرة واشنطن على الضغط على طهران عززتها مشاركة دول أوروبية غربية عديدة، كما أضعفها إحجام روسيا والصين عن معاقبة إيران، وكل من بكين وموسكو خففتا من الجهود الرامية للضغط على الحكومة السودانية لكي تنهي حربها في دارفور، وفي الوقت نفسه أثبتت باكستان مرارا وتكرارا قدرتها على مقاومة المطالبات الأمريكية، كما فعلت كل من إيران وكوريا الشمالية وفنزويلا وزيمبابوي.

(1) Initial Public Offering : يشير هذا المصطلح إلى قيام شركة ما بطرح أسهم أو سندات للاكتتاب العام بين الجمهور من خلال سوق الأوراق المالية (البورصة) للمرة الأولى في حياتها، ويكون ذلك بغرض تمويل التوسعات، أو عندما ترغب شركة أشخاص في التحول إلى شركة أموال . المترجم.

يمتد هذا الاتجاه أيضا إلى عالمي الثقافة والمعلومات، فبوليود Bollywood[2] تنتج سنويا من الأفلام أكثر من هوليوود، وبدائل الإنتاج والبث التلفزيوني الأمريكي تتضاعف، ومواقع الإنترنت والمدونات من بلاد أخرى تمثل منافسة أخرى للأخبار والتغطيات المنتجة في أمريكا. إن انتشار المعلومات هو سبب لعدم القطبية بالدرجة نفسها التي يسببها انتشار التسلح.

وداعا لأحادية القطبية

كان تشارلز كروثامر أكثر توفيقا مما كان يدرك عندما كتب على صفحات هذه المجلة (شؤون أجنبية) قبل حوالي عقدين عما أسماه «لحظة أحادية القطبية»، ففي ذلك الوقت كانت الهيمنة الأمريكية حقيقة واقعة، لكنها استمرت فقط لخمسة عشر أو عشرين عاما، وبمقياس التاريخ كانت هذه مجرد لحظة، وكان يجب على النظرية الواقعية التقليدية أن تتنبأ بنهاية أحادية القطبية وبفجر تعددية القطبية. ووفقا لهذا الأسلوب في التفسير، فإن القوى الكبرى عندما تتصرف باعتبارها قوى كبرى تعتاد على ذلك، فتحفز منافسة الآخرين لها والذين تخشاهم أو تستاء منهم، وقد كتب كروثامر مؤيدا لهذه النظرية قائلا: «من دون شك، سيأتي وقت تعدد القطبية، وربما في جيل آخر أو نحو ذلك، ستكون هناك قوى أخرى متكافئة مع الولايات المتحدة، وستكون للعالم بنية مشابهة لعصر ما قبل الحرب العالمية الأولى»، لكن هذا لم يحدث، وعلى الرغم من أن العداء لأمريكا واسع الانتشار، فلم تنشأ قوة منافسة ولا مجموعة من المنافسين لتتحدى الولايات المتحدة، وهذا جزئيا بسبب أن البون بين قوة الولايات المتحدة وقوة أي منافسين محتملين شاسع جدا، لكن مع الوقت يمكن أن تصل دول مثل الصين لتحقيق ناتج محلي إجمالي يقارن بما تحققه الولايات المتحدة، لكن في حالة الصين، سيمتص الكثير من تلك الثروة بواسطة ضخامة عدد السكان (الذين ما زال الكثيرون منهم فقراء)، ولن تكون متاحة لتمويل تنمية القوات المسلحة أو تحمل مهام خارجية، والحفاظ على الاستقرار السياسي عبر فترة من هذا النمو الحيوي. لكن غير المتوازن. لن يكون إنجازا سهلا، والهند تواجه العديد من التحديات الديموغرافية المماثلة، التي تزداد صعوبة بفعل البيروقراطية الكبيرة جدا والبنية الأساسية الضعيفة جدا. إن الناتج المحلي الإجمالي للاتحاد الأوروبي الآن أكبر من مثيله الأمريكي، ولكن الاتحاد الأوروبي لا يعمل على غرار دولية قومية موحدة، كما أنه لا يقدر. ولا يميل. على أن يتصرف بالثقة في النفس، التي اتسمت بها القوى الكبرى التاريخية، أما اليابان من ناحيتها، فلديها تركيب سكاني آخذ في الانكماش والشيخوخة، كما أنها تفتقر للثقافة السياسية لكي تؤدي دور قوة كبرى، وقد تكون روسيا أكثر ميلا

(2) بوليوود Bollywood: اسم غير رسمي يطلق على صناعة السينما الناطقة باللغة الهندية Hindi، والمتمركزة في بومباي، وهو لا يشمل صناعة السينما في الهند ككل. المترجم.

لذلك، لكن اقتصادها لا يزال إلى حد كبير اقتصاد المحصول النقدي، وهي مثقلة بمشكلة تناقص عدد السكان وبتحديات داخلية تواجه ترابطها. وحقيقة إنه لم تظهر بعد قوة كبرى تقليدية منافسة، ومن غير المتوقع أن تظهر مثل هذه القوة في أي وقت قريب هي أيضا نتيجة جزئيا لمسلك الولايات المتحدة الذي لم يستحث ظهور استجابة من هذا النوع، وهذا ليس معناه القول إن الولايات المتحدة تحت قيادة جورج بوش الابن لم تستفز دولا أخرى، فقد فعلت هذا بالتأكيد، لكنها في الغالب لم تتصرف على نحو يؤدي بالدول الأخرى إلى استنتاج أن الولايات المتحدة تشكل تهديدا لمصالحها الوطنية الحيوية، فالشكوك حول حكمة وشرعية السياسة الخارجية الأمريكية مثيرة للقلق، لكن هذا الأمر أدى إلى الانتقاد (وغياب التعاون) بأكثر مما أدى إلى المقاومة السافرة، والكابح الثاني على ظهور قوى كبرى منافسة هو أن الكثير من القوى الكبرى الأخرى تعتمد على النظام الدولي في رفاهيتها الاقتصادية واستقرارها السياسي، ولهذا فهي لا تريد أن تعرقل نظاما يخدم مصالحها الوطنية، فهذه المصالح شديدة الارتباط بتدفق السلع والخدمات والبشر والطاقة والاستثمارات والتكنولوجيا عبر الحدود، وهو التدفق الذي تؤدي فيه الولايات المتحدة دورا حرجا، وهذا الاندماج في العالم الحديث يحد من تنافس وصراع القوى الكبرى، لكن حتى لو لم تنشأ قوى كبرى منافسة، فقد انتهت القطبية الأحادية، وهناك ثلاثة أسباب تفسر انقضاء أجلها، أولها تاريخي، فالدول حينما تنمو، تصبح أقدر على توليد وتوليف الموارد البشرية والمالية والتكنولوجية مع بعضها بعضاً لكي تحقق الإنتاجية والازدهار، والأمر نفسه يصدق على الشركات والمنظمات الأخرى، ولا يمكن إيقاف صعود هذه القوى الكبرى، والنتيجة هي عدد كبير غير مسبوق من الأطراف القادرة على ممارسة النفوذ إقليميا ودوليا، أما السبب الثاني فهو سياسات الولايات المتحدة، ولكي نستخلص المغزى من Walt Kelly's Pogo[3]، بطل أفلام الكرتون فيما بعد الحرب العالمية الثانية، علينا أن نبحث عن التفسير بأنفسنا، وسواء بما فعلته الولايات المتحدة أوبما فشلت في أن تفعله، فقد أسرعت من ظهور مراكز قوة بديلة في العالم، وأضعفت من موقعها هي بالنسبة للآخرين، فسياساتها في مجال الطاقة (أو الافتقار لمثل هذه السياسات) قوة دافعة وراء انتهاء عصر القطبية الأحادية، فمنذ صدمات النفط الأولى في سبعينيات القرن العشرين، زاد استهلاك الولايات المتحدة من النفط بحوالي 20 في المائة، والأهم من ذلك أن واردات الولايات

التحول إلى عالم عديم القطبية ستكون له في الغالب آثار سلبية على الولايات المتحدة

(3) Walt Kelly's Pogo: سلسلة أفلام كارتونية أمريكية ابتدعها Walt Kelly، وكان بطلها الرئيس يسمى Pogo. كانت ذات طبيعة انتقادية ساخرة تبرز ما يتصف به بعض الناس من حماقة وأنانية وطمع وعدوانية. المترجم.

المتحدة من المنتجات البترولية زادت إلى أكثر من الضعفين من حيث الحجم، وتضاعفت تقريبا كنسبة من الاستهلاك، وهذا النمو في الطلب على النفط الأجنبي ساعد على ارتفاع الأسعار العالمية للنفط من عشرين دولارا فقط للبرميل إلى أكثر من مائة دولار في أقل من عقد، والنتيجة هي تحول كبير في الثروة والنفوذ إلى تلك الدول ذات الاحتياطات الكبيرة من الطاقة. وباختصار فإن سياسات الطاقة الأمريكية ساعدت على بروز منتجي النفط والغاز كمراكز قوة رئيسة، كما أدت السياسات الاقتصادية الأمريكية أيضا دورا مشابها، وقد ووجه الرئيس لندون جونسون بالانتقاد بسبب الجمع في الوقت نفسه بين الحرب في فيتنام وزيادة الإنفاق الداخلي، بينما حارب الرئيس بوش حربين مكلفتين في أفغانستان والعراق سامحا بإنفاق استثنائي يتزايد بمعدل 8 في المائة سنويا وبتخفيضات ضريبية في الوقت نفسه، وكانت النتيجة أن الموقف المالي للولايات المتحدة تدنى من تحقيق فائض يزيد على 100 مليار دولار سنة 2001 إلى عجز يقدر بحوالي 250 مليار دولار سنة 2007، وربما كان الأكثر اتصالا بالموضوع هو عجز ميزان العمليات الجارية الذي يصل الآن إلى 6 في المائة من الناتج المحلي الإجمالي، وهذه القطاعات تلقي بضغوط على الدولار، وتحفز التضخم، وتساهم في تراكم الثروة والقوة في كل مكان من العالم، والقواعد الرديئة لسوق العقارات وما أفرخته من أزمة ائتمان ساعدت على تفاقم تلك المشكلات. وقد ساهمت حرب العراق أيضا في النيل من موقع الولايات المتحدة في العالم، فقد أثبتت تلك الحرب أنها مكلفة عسكريا واقتصاديا وبالمعايير الإنسانية أيضا، ومنذ سنوات مضت لخص المؤرخ بول كنيدي رؤيته «التوسع الإمبراطوري»، التي أقرت أن الولايات المتحدة سوف تهبط أخيرا بسبب الإسراف في التوسع، كما فعلت القوى الكبرى الأخرى في الماضي، وقد أثبتت نظرية كنيدي صحتها بأن انطبقت بأسرع ما يكون على الاتحاد السوفييتي، لكن الولايات المتحدة . مع كل آلياتها وحيويتها التصحيحية . لم تثبت أنها محصنة، ليس ببساطة لأن القوات المسلحة الأمريكية سوف تستغرق جيلا لكي تنسحب من العراق، لكن أيضا لأن الولايات المتحدة لا تمتلك أصولا عسكرية كافية لكي تستمر في فعل ما تفعله في العراق، مع افتراض أعباء أقل كثيرا بأي مقياس في أي مكان آخر. وأخيرا، فإن عالم اليوم عديم القطبية ليس ببساطة ناتجا عن صعود دول أو منظمات أخرى، أو بسبب إخفاقات وحماقات السياسات الأمريكية، لكنه أيضا نتيجة حتمية للعولمة، فقد زادت العولمة من حجم التدفقات وسرعتها وأهميتها عبر الحدود بالنسبة لكل شيء تقريبا، من المخدرات ورسائل البريد الإلكتروني وغازات الاحتباس الحراري والسلع المصنعة والبشر إلى البث الإذاعي والتلفزيوني والفيروسات (الحقيقية والتخيلية) والأسلحة، والعولمة

تدعم عدم القطبية بطريقتين أساسيتين، أولاهما أن الكثير من التدفقات عبر الحدود تأخذ طريقها خارجة عن سيطرة الحكومات ومن دون معرفتها، وكنتيجة لذلك، فإن العولمة تحد من نفوذ القوى الرئيسة، وثانيتهما أن تلك التدفقات نفسها غالبا ما تدعم من قدرات أطراف يصعب حصرها، مثل مصدري الطاقة (الذين يشهدون زيادة هائلة في الثروة تعزى إلى التحويلات من قبل المستوردين)، والإرهابيين (الذين يستخدمون الإنترنت كي يوظفوا ويوجهوا النظام المصرفي العالمي من أجل نقل الموارد، ونظام النقل العالمي من أجل نقل الأشخاص)، والدول المارقة (التي تستطيع أن تستغل الأسواق السوداء والرمادية)، وأكبر خمسمائة شركة [4] Fortune 500 Firms، التي تنقل العاملين والاستثمارات بسرعة). لقد أصبح من الظاهر بشكل متزايد أن كون دولة ما أقوى دولة في العالم لم يعد يعني امتلاك احتكار قريب للقوة، فقد أصبح أسهل من ذي قبل بالنسبة للأفراد والجماعات أن يراكموا ويوظفوا قوة مؤثرة.

فوضى عدم القطبية

إن العالم المتزايد في عدم القطبية ستقع أغلب آثاره السلبية على الولايات المتحدة، كما سيحيق الكثير منها ببقية العالم أيضا، فسيجعل من الصعب بالنسبة لواشنطن أن تتولى القيادة في تلك المناسبات التي تتطلب منها أن تشجع الاستجابات الجماعية للتحديات الإقليمية أو العالمية، ويكمن السبب في عملية حسابية بسيطة، فمع وجود أطراف كثيرة تمتلك قوة واضحة وتحاول أن تمارس نفوذها، سيكون من الأصعب أن تبني استجابات جماعية، وتجعل المؤسسات تقوم بعملها، فحشد العشرات أصعب من حشد قلة قليلة، وعدم القدرة على الوصول إلى اتفاق في دورة الدوحة Doha Round[5] للتجارة الدولية هو مثال معبر، كما أن عدم القطبية سيزيد أيضا من عدد التهديدات والمخاطر التي تواجه دولة مثل الولايات المتحدة، وقد تأخذ تلك التهديدات شكل دول مارقة أو مجموعات إرهابية أو منتجي طاقة يختارون أن يقللوا من إنتاجهم أو بنوك مركزية يمكن أن تؤدي إجراءاتها أو عدم إجراءاتها إلى خلق ظروف تؤثر في دور وقوة الدولار الأمريكي، ويحتاج بنك الاحتياطي الفيدرالي Federal Reserve [6] إلى أن يفكر مرتين قبل أن يستمر في خفض سعر الفائدة خوفا من أن يطلق حركة إضافية للابتعاد عن الدولار، فهذه أشياء يمكن أن تكون أسوأ من الركود.

إن إيران حالة نموذجية، فجهودها كي

(4) Fortune 500: قائمة سنوية تعدها وتنشرها مجلة Fortune الأمريكية ترصد فيها أكبر 500 شركة أمريكية من حيث رقم الأعمال السنوي الإجمالي. المترجم.

(5) دورة الدوحة Doha Round: هي الدورة الحالية من المفاوضات التجارية في إطار منظمة التجارة العالمية، بدأت هذه الدورة سنة 2001، وتستهدف تخفيض القيود على التجارة بين الدول، وقد توقفت في سنة 2008 بسبب الخلاف على القيود الجمركية بين الدول النامية والدول المتقدمة، وكذلك الخلاف بين الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة حول إعانات القطاع الزراعي. المترجم.

(6) بنك الاحتياطي الفيدرالي Federal Reserve Bank: البنك المركزي الأمريكي. المترجم.

تصير قوة نووية هي نتيجة لعدم القطبية، والفضل يرجع أكثر من أي شيء آخر إلى الطفرة في أسعار البترول، وقد أصبحت ذات ثقل واضح للقوة يمكنها من ممارسة نفوذها في العراق ولبنان وسوريا والأراضي الفلسطينية وغيرها، وداخل منظمة أوبك أيضا، فلديها موارد كثيرة من التكنولوجيا والمال وأسواق ضخمة لصادراتها من الطاقة، ومما يعزى إلى عدم القطبية أن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تؤثر في إيران منفردة، وفوق هذا تعتمد واشنطن على آخرين كي تدعم العقوبات السياسية والاقتصادية أو تحول دون حصول طهران على التكنولوجيا والمواد النووية. إن عدم القطبية يولد مزيدا من عدم القطبية، لكن حتى لو كان عدم القطبية حتميا، فإن ملامحه ليست كذلك، ولنوجز ما قاله المنظر في العلاقات الدولية هيدلي بول Hedley Bull، من أن السياسة الدولية في أي لحظة هي مزيج من الفوضى والنظام، والمسألة هي التوازن والتوجه، ويمكن، بل يجب، إبرام صفقة كبرى لتشكيل عالم عدم القطبية، فالنظام لن ينشأ من تلقاء نفسه، وعلى العكس من ذلك، فإن ترك عالم عدم القطبية لنهجه الخاص، سيجعله يصبح أكثر تعقيدا مع مرور الزمن، فتفشي الفوضى سيفرض على النظم، التي تتكون من عدد كبير الأطراف، أن تتجه إلى مزيد من العشوائية والفوضى في غياب التدخل الخارجي. وتستطيع الولايات المتحدة - ويجب عليها - أن تتخذ خطوات للتقليل من فرص صيرورة عدم القطبية إلى مرجل لعدم الاستقرار، وهذه ليست دعوة إلى أحادية القطبية، لكنها دعوة للولايات المتحدة لأن تحافظ على النظام في داخلها، فأحادية القطبية شيء من الماضي، لكن الولايات المتحدة لا تزال تحتفظ بالقدرة، أكثر من أي طرف آخر، وعليها تحسين نوعية النظام الدولي، والسؤال هو عما إذا كانت ستستمر في امتلاك هذه القدرة.

الطاقة هي أكثر القضايا أهمية، فالمستويات الحالية من استهلاك الولايات المتحدة ووارداتها (بالإضافة إلى الآثار غير المرغوبة على المناخ العالمي) تعزز عدم القطبية بضخ موارد مالية ضخمة إلى منتجي النفط والغاز، كما أن الحد من الاستهلاك سيخفف الضغط على الأسعار العالمية، ويقلل تعرض الولايات المتحدة لتحكم الموردين في السوق، ويبطئ من سرعة تغير المناخ، ومن الأخبار الطيبة أن هذا يمكن أن يحدث دون إيقاع ضرر باقتصاد الولايات المتحدة. تعزيز الأمن الداخلي أمر شديد الأهمية أيضا، فالإرهاب مثل المرض، لا يمكن القضاء عليه، وسيكون هناك دائما أناس لا يمكن دمجهم في المجتمعات، ويستهدفون غايات لا يمكن إدراكها من خلال أدوات السياسة التقليدية، وفي بعض الأحيان، وعلى الرغم من أكبر الجهود من هؤلاء المكلفين بالأمن الداخلي، فإن الإرهابيين سينجحون، والمطلوب إذن هو خطوات تجعل المجتمع أكثر عافية، شيء ما يتطلب تمويلا وتدريبا جيدين للمتعاملين مع حالات الطوارئ، وبنية أساسية أكثر

مرونة واستدامة، ويجب أن يكون الهدف هو تقليل أثر حتى الهجمات الناجحة، أما مقاومة المزيد من انتشار الأسلحة النووية والمواد النووية غير المشمولة بالحراسة، ومع اعتبار أثرها التدميري المحتمل، فقد تكون على نفس درجة أهمية أي مجموعة أخرى من المهام، فعن طريق تأسيس بنوك ذات إدارة دولية لليورانيوم المخصب أو الوقود المستنفد تتيح للدول الحصول على المواد النووية الحساسة، سيمكن للمجتمع الدولي أن يساعد على استخدام الطاقة النووية لإنتاج الكهرباء لا القنابل، ويمكن توفير الضمانات والنظم الدفاعية للدول، التي قد تشعر بالاضطرار لتنمية برامج نووية خاصة بها كي تواجه البرامج النووية لجيرانها، كما أن ممارسة النفوذ على الدول التي تسعى إلى أن تكون دولا نووية يمكن أن تشمل العقوبات الفعالة المدعومة أحيانا بالقوة المسلحة، ومع ذلك فإن السؤال حول استخدام القوة العسكرية لتدمير قدرات الأسلحة النووية أو البيولوجية يبقى قائما. إن هجمات استباقية . غارات تستهدف وقف تهديد عاجل . تبقى مقبولة بدرجة كبيرة، كنوع من الدفاع عن النفس، أما الهجمات الاستباقية في شكل غارات على قدرات لا تتوافر مؤشرات على استخدامها عاجلا، فهي شيء مختلف في مجمله، ويجب ألا تستبعد من حيث المبدأ، لكن يجب عدم الاعتماد عليها أيضا، وخلف السؤال عن إمكانية الهجمات الاستباقية تلوح مخاطرة جعل العالم عديم القطبية أقل استقرارا، فكلا النوعين يمكن في الواقع أن يشجع على انتشار التسلح النووي (حيث يمكن أن ترى الحكومات في تطوير أو حيازة أسلحة نووية نوعا من الردع)، ولأنهما يمكن أن يضعفا المبدأ المستقر ضد استخدام القوة لغير غرض الدفاع عن النفس، أما محاربة الإرهاب فهي ضرورية أيضا لكي لا يتحول عصر عدم القطبية إلى عصور مظلمة Dark Ages[7] جديدة، وهناك طرق عديدة لإضعاف المنظمات الإرهابية الموجودة باستخدام موارد قوة القانون والمخابرات والقدرات العسكرية، لكن تلك ستكون لعبة خاسرة إلا إذا تم فعل شيء ما للحد من عمليات التجنيد، فالوالدان والشخصيات الدينية والزعماء السياسيون يجب أن يجردوا الإرهاب من الشرعية بإدانة هؤلاء الذين يختارون أن يحتضنوه، والأهم من ذلك أن الحكومات يجب أن تجد سبلا لدمج الشباب والشابات المنبوذين في مجتمعاتهم، وهو الشيء الذي لا يمكن أن يحدث في غياب الفرصة السياسية والاقتصادية. وتستطيع التجارة أن تكون أداة قوية للاندماج، فهي تعطي الدول أفضلية في تجنب الصراع لأن عدم

لم تعد الولايات المتحدة تملك ترف سياسة خارجية من نوع «إما أن تكون معنا أو ضدنا»

(7) العصور المظلمة (أو عصور الظلام) Dark Ages: تعبير يستخدم في الإشارة إلى العصور الوسطى في أوروبا الغربية، التي استمرت تقريبا منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي حتى بداية عصر النهضة في القرن الرابع عشر . المترجم.

الاستقرار يعوق الترتيبات التجارية المفيدة التي توفر ثروة أكبر وتعزز مؤسسات النظام السياسي الداخلي، والتجارة أيضا تفيد التنمية، ولذلك فهي تقلل فرصة فشل الدولة وعزلة المواطنين، ويجب توسيع نطاق منظمة التجارة العالمية خلال المفاوضات حول الترتيبات العالمية المستقبلية لما هو أكثر من الحد من المعونات وكل من القيود التعريفية وغير التعريفية، وبناء دعم سياسي داخلي لمثل هذه المفاوضات في الدول المتقدمة يتوقع أن يتطلب توسيع العديد من شبكات الأمان الاجتماعي بما في ذلك الرعاية الصحية، التي يحتفظ بها العامل عند انتقاله من عمل إلى آخر Portable Health Care، وحقوق التقاعد، ومساعدات التعليم، والتدريب والتأمين على الأجور. إن هذه الإصلاحات في السياسات الاجتماعية مكلفة وفي بعض الحالات غير مبررة (حيث يبدو إلى حد بعيد أن السبب في فقد الوظائف هو الابتكار التكنولوجي أكثر من المنافسة الأجنبية)، لكنها تستحق أن تتوافر على الرغم من التسليم بالقيمة الاقتصادية والسياسية النهائية لتوسيع نظام التجارة العالمي، وقد تكون هناك حاجة لمستوى مشابه من الجهد من أجل تأمين التدفق المستمر للاستثمار، ويجب أن يكون الهدف هو خلق منظمة للاستثمار العالمي World Investment Organization من شأنها أن تشجع تدفق رأس المال عبر الحدود وأن تقلل من فرص وقوف «الحمائية الاستثمارية» في طريق الأنشطة المفيدة اقتصاديا . كما في التجارة . وأن تبني حصنا سياسيا ضد عدم الاستقرار. إن منظمة للاستثمار العالمي يمكن أن تشجع الشفافية من جانب المستثمرين، وتحدد متى يكون الأمن القومي سببا مشروعا لحظر أو الحد من الاستثمار الأجنبي، وتؤسس آلية لحل النزاعات، وأخيرا، تحتاج الولايات المتحدة لتعزيز قدرتها على منع فشل الدولة على أن تتعامل مع عواقب هذا الفشل، وسيتطلب هذا بناء (والمحافظة على) قوات مسلحة أكبر ذات قدرة أكبر على التعامل مع نوع من التهديدات التي تواجهها في أفغانستان والعراق، وبالإضافة إلى ذلك، هناك حاجة لتأسيس نظير مدني للاحتياطات العسكرية من شأنه أن يوفر تجمعا للمواهب الإنسانية يساعد في مهام بناء الأمة الرئيسة، وستكون المساندة الاقتصادية والعسكرية حيوية في مساعدة الدول الضعيفة كي تفي بمسؤولياتها تجاه مواطنيها وجيرانها.

قوة عظمى غير معزولة

سيكون العمل الجماعي ضروريا في التعامل مع عالم عديم القطبية، ولكي ينجح لا بد - رغم ذلك - من أن تعاد صياغته لكي يضم أطرافا أخرى إلى جوار القوى الكبرى، ويحتاج كل من مجلس الأمن الدولي ومجموعة الثمانية (مجموعة الدول الصناعية الكبرى) إلى إعادة تشكيلهما ليعكسا عالم اليوم وليس عصر ما بعد الحرب العالمية الثانية، وقد قدم اجتماع عقد أخيراً في الأمم المتحدة حول أفضل كيفية لتنسيق التعامل مع التحديات التي

تواجه الصحة العامة نموذجا لذلك، وقد حضره ممثلون عن الحكومات ووكالات الأمم المتحدة والمنظمات غير الحكومية وشركات الأدوية والمؤسسات والتجمعات الفكرية والجامعات، كما حضر تجمع مشابه في نطاقه اجتماع بالي [8] Bali في ديسمبر 2007 لبحث تغير المناخ، وقد يكون على العمل الجماعي أن يقلل من الرسمية والشمول، على الأقل في مراحله الأولية، وستكون هناك حاجة لشبكات عمل إلى جوار المنظمات، فالوصول بالناس إلى الاتفاق على كل شيء سيكون صعبا على نحو متزايد، ويجب على الولايات المتحدة بدلا من ذلك أن تعطي اعتبارا لتوقيع اتفاقيات مع أطراف أقل عددا ومن أجل أهداف أضيق نطاقا، والتجارة هنا تقدم نوعا ما من النموذج، فهذه الاتفاقيات الثنائية والإقليمية تملأ الفراغ الناتج عن الفشل في إتمام دورة تجارة عالمية، ويستطيع المنهج نفسه أن يعمل من أجل تغير المناخ حيث يمكن أن تنجح اتفاقيات بشأن بعض عناصر المشكلة (ولنقل تآكل الغابات)، أو اتفاقيات بين عدد من الدول فقط (الدول الرئيسية الباعثة للكربون على سبيل المثال)، بينما قد لا تستطيع أن تحقق النجاح نفسه اتفاقية تشمل كل الدول، وتحاول أن تحل كل القضايا. إن العمل الجماعي «حسب الطلب» هو الذي يتوقع أن يكون النظام في يومنا هذا.

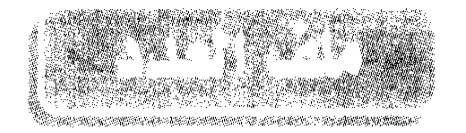
إن عدم القطبية يُعَقِّد الدبلوماسية، فعالم عدم القطبية لا يشمل فقط أطرافا أكثر، لكنه أيضا يفتقر إلى البنى والعلاقات المحددة التي يسهل التنبؤ بها، والتي وسمت عوالم القطبية الأحادية والثنائية والمتعددة، والتحالفات . بصفة خاصة . ستفقد الكثير من أهميتها، ولو فقط لأن التحالفات تتطلب تهديدات واحتمالات والتزامات يمكن التنبؤ بها، وكل هذا من المتوقع ألا يكون متاحا في عالم عدم القطبية، وبدلا من ذلك ستصبح العلاقات اختيارية ومتوقفة على الموقف، وسيكون من الأصعب تصنيف الدول الأخرى بين حليف وعدو، فهي ستتعاون في بعض القضايا وتقاوم في أخرى، وستكون هناك أولوية لبناء التشاورات والائتلافات المؤقتة وللدبلوماسية التي تشجع التعاون عندما يكون ممكنا، وتحمي هذا التعاون من عواقب عدم الاتفاق الحتمي، ولن تعود الولايات المتحدة تملك ترف «إما أن تكون معنا أو ضدنا».

سيكون عدم القطبية صعبا وخطرا، لكن التشجيع على درجة أكبر من الاندماج العالمي سيساعد على تعزيز الاستقرار، وتأسيس مجموعة مركزية من الحكومات وغيرها من الملتزمين بالعمل الجماعي التعاوني سيكون خطوة كبيرة للأمام، فلندع إلى «عدم قطبية متناغم»، ولن يحد هذا من عدم القطبية، لكنه سيساعد في إدارته، ويقلل من احتمالات انهيار النظام العالمي أو تحطمه.

(8) بالي Bali: جزيرة إندونيسية. المترجم.







الميزة الأمريكية
القوة في القرن الشبكي

بقلم: آن ماري سلوفتر*

العنوان الأصلي للمقال: America's Edge. Power in the Networked Century ونشر في مجلة Foreign Affairs عدد: يناير - فبراير 2009

نحن نعيش في عالم شبكي Networked، فالحرب شبكية، حيث تعتمد قوة كل من الإرهابيين والقوات المعنية بمكافحتهم على مجموعات صغيرة متنقلة من المقاتلين ترتبط ببعضها بعضاً وبالمخابرات وبوسائل الاتصال وشبكات الدعم، والديبلوماسية شبكية، حيث تتطلب إدارة الأزمات العالمية . من مرض سارس SARS(1) إلى تغير المناخ.

---

* آن ماري سـلوفتر Anne-Marie slaughter: عميدة معهد ويدرو ويلسـون للشؤون العامة والدولية، وأستاذ السياسة والشؤون الدولية في جامعة برينستون. وتشغل حاليا منصب مدير تخطيط السياسات في وزارة الخارجية الأمريكية.

(1) سـارس: Severe Acute respiratory Syndrome (SARS) مرض تنفسـي يصيب الإنسـان، وقد اقترب من حد الوباء بين نوفمبر 2002 ويوليو 2003، حيث انتشـر من إقليم جوانجدونج بالصين إلى 37 دولة حول العالم فأصيب به 8096 شخصا توفي منهم 774 شخصا . المترجم.

حشد شبكات عالمية من الأطراف العامة والخاصة، والأعمال شبكية، حيث صار كل دليل بتوجيهات المديرين التنفيذيين تم طبعه خلال العقد الأخير يركز على التحول من العالم الرأسي المعتمد على التنظيم الهرمي إلى العالم الأفقي المعتمد على الشبكات، ووسائل الإعلام شبكية، حيث تعتمد المواقع الإلكترونية الإخبارية والأشكال الأخرى من وسائل الإعلام التشاركية على مساهمات القراء من أجل خلق حوار شبكي واسع، والمجتمع شبكي، حيث يؤدي عالم MySpace[2] إلى خلق عالم كوني من OurSpace[3] رابطا بين مئات الملايين من الأشخاص عبر القارات، وحتى الدين أصبح شبكيا، فكما زعم القس ريك وارين Rick warren: «إن الشيء الوحيد الكبير بما يكفي لحل مشكلات الفراغ الروحي والقيادة الأنانية والفقر والمرض والجهل هو شبكة من ملايين الكنائس حول العالم كله». وفي هذا العالم يصبح مقياس القوة هو الاتصالية[4]، ومنذ حوالي ثلاثين عاما كتبت الطبيبة النفسية كارول جيليجان Carol Gilligan[5] عن الفروق بين الجنسين من حيث أسلوب التفكير، وقد لاحظت أن الرجال يميلون لرؤية العالم مكونا من تنظيم هرمي للسلطة، ويسعون للوصول إلى القمة، بينما تميل النساء لرؤية العالم مكونا من شبكات من العلاقات ويسعين للانتقال إلى مركزه، وقد تكون ملاحظات جيليجان ناتجة عن التربية أكثر مما هي ناتجة عن الطبيعة. وبغض النظر، فإن كلتا الرؤيتين اللتين شخصتهما تجسدان الفروق بين عالمي القرنين العشرين والواحد والعشرين، فقد كان القرن العشرون - من منظور الجغرافيا السياسية على الأقل - عالم «كرة البلياردو»، الذي وصفه العالم السياسي أرنولد وولفرز Arnold Wolfers بأنه نظام دول منغلقة على نفسها تصطدم مع بعضها بعضا، وقد تحددت نتائج تلك الصدامات بالقوتين العسكرية والاقتصادية، ولا يزال هذا العالم موجودا اليوم، فروسيا تغزو جورجيا، وإيران تسعى لامتلاك أسلحة نووية، والولايات المتحدة تعزز روابطها مع الهند كخط دفاع ضد الصين الصاعدة، ولهذا أطلق فريد زكريا[6] محرر الـ «نيوز ويك الدولية» على عالم اليوم «عالم ما بعد أمريكا»، الذي يعني فيه حتما صعود قوى عالمية أخرى، والهبوط النسبي في نفوذ الولايات المتحدة، ورغم

(2) MySpace: موقع تفاعلي على الإنترنت يتيح للأفراد إنشاء صفحات خاصة بهم على الموقع وتكوين الصداقات ونشر وتبادل الرسائل والصور وأفلام الفيديو والتسجيلات الموسيقية وتكوين المجموعات سواء للمراهقين أو البالغين، وفي سبتمبر 2006 بلغ عدد المشاركين فيه 106 ملايين مشترك حول العالم، مركزه الرئيسي في بيفرلي هيلز بولاية كاليفورنيا بالولايات المتحدة. المترجم.

(3) OurSpace: الكاتب يرمي هنا إلى أن وجود مواقع تفاعلية مثل MySpace من شأنه أن يؤدي إلى اندماج شعوب العالم فيما يشبه «الفضاء المشترك». المترجم.

(4) الاتصالية Connectedness: يشير تعبير الاتصالية في سياق هذا المقال إلى قدرة المجتمع على الاتصال الكفء وعلى التوصيل الجيد للمعلومات والمعارف فيما بين مكوناته ومع العالم الخارجي. المترجم.

(5) كارول جيليجان Carol Gilligan (1936): طبيبة نفسانية أمريكية وداعية نسوية، أستاذة في جامعة نيويورك وأستاذة زائرة في جامعة كامبريدج. المترجم.

(6) راجع: Fareed Zakaria, The future of America's power, Foreign Affairs, May-June 2008, pp. 43-18.
ترجمة المقال ضمن هذا الملف تحت عنوان «مستقبل القوة الأمريكية، كيف تستطيع أمريكا أن تتعايش مع صعود الآخرين؟».

ذلك فإن العالم الشبكي الناشئ في القرن الواحد والعشرين يوجد فوق الدولة وتحت الدولة وخلال الدولة، وفي هذا العالم، ستكون الدولة الأكثر اتصالية هي الطرف المحوري القادر على وضع الأجندة العالمية وعلى فتح الأبواب أمام الابتكار والنمو المستدام، وهنا، تمتلك الولايات المتحدة ميزة واضحة ومستدامة.

آفاق الأمل

إن ميزة الولايات المتحدة متأصلة في السكان والجغرافيا والثقافة، فالولايات المتحدة لديها عدد قليل نسبيا من السكان (من 20 في المائة إلى 30 في المائة فقط من سكان الصين أو الهند) وقلة عدد السكان ستجعل من الأسهل كثيرا على الولايات المتحدة أن تنمي وتستفيد من تكنولوجيا الطاقة، وفي الوقت نفسه، سيسمح التنوع في سكان الولايات المتحدة لواشنطن بأن توسع من قدرتها على التأثير عبر العالم، وفي هذه النقطة، يجب على الولايات المتحدة أن تنظر إلى المهاجرين إليها باعتبارهم روابط حية مع بلدانهم الأصلية، وأن تشجع التدفق في الاتجاهين بالنسبة للبشر والمنتجات والأفكار. إن الولايات المتحدة هي عماد نصف الكرة الأطلنطي، أي المنطقة التي تُعَرَّف بشكل عام بأنها تضم أفريقيا والأمريكتين وأوروبا، والدول القائدة في نصف الكرة الأطلنطي أكثر مسالمة واستقرارا وأكثر تنوعا من الناحية الاقتصادية من نظيرتها في نصف الكرة الآسيوي، لكن الولايات المتحدة في الوقت نفسه قوة ذات أهمية خاصة، فهي قادرة في الوقت ذاته على حماية موقعها في نصف الكرة الأطلنطي وروابطها العميقة مع نصف الكرة الآسيوي، فالمحيطان الأطلنطي والهادي حميا الولايات المتحدة طويلا من الغزو والتدخل السياسي، وسيحميانها عاجلا من القلق الذي استحضره تغير المناخ، حيث إنهما يقللان بالفعل من كمية الملوثات التي يعترضان طريقها. والولايات المتحدة تمتلك تقريبا بنية أفقية. فيما عدا الجانب الذي أصبح أكثر هرمية مع تنامي عدم المساواة في الدخل. وكذلك ثقافة استثمار وابتكار، وتلك سمات عظيمة وسط اقتصاد عالمي تحركه عناقيد شبكية مكونة من أكثر الناس إبداعا في العالم.

في العشرين من يناير 2009 سيبدأ باراك أوباما في استعادة السلطة الأخلاقية للولايات المتحدة، كما سيوفر العالم الشبكي أفقا مفعما بالأمل، وفي هذا العالم. ومع السياسات الصحيحة. يمكن أن يكون المهاجرون مصدرا للوظائف لا استنزافا للموارد، وقادرين على أن يربطوا وطنهم الجديد بالأسواق والموردين في أوطانهم القديمة، كما يستطيع قطاع الأعمال في الولايات المتحدة أن ينسق بين الشبكات الدولية من المنتجين والموردين، كما يستطيع المستهلكون أن يشتروا محليا من الاقتصادات المحلية الأخرى المزدهرة، الزراعية وذات الأعمال الصغيرة المتوافقة، وأن يشتروا في الوقت نفسه عالميا من أي مكان يستطيع أن يعلن عن نفسه عبر الإنترنت، وتستطيع الولايات المتحدة أن تصبح أكثر المجتمعات ابتكارية وديناميكية على مستوى العالم أجمع.

الحياة في مجتمع شبكي

في سنة 2000 اتخذت شركة «Procter & Gamble»[7] قرارا بتحديث أسلوب عملها في القرن الواحد والعشرين، فبدلا من تشديد الرقابة على خلطاتها السرية بالنسبة لكل شيء من الصابون إلى شرائح البطاطس، اختارت الشركة افتتاح محفظة براءات اختراعها جاعلة كل تركيباتها تقريبا متاحة لكل من يرغب في دفع ثمن الترخيص للسماح له بصناعتها، وفي الوقت نفسه طالبت كبار مديريها بأن يجلبوا نصف أفكارهم بشأن المنتجات الجديدة من خارج الشركة، وهم الآن يتطلعون إلى مجموعات بعيدة جدا من المبتكرين حول العالم وعلى الإنترنت، حيث يتجمع المبتكرون على مواقع مثل «InnoCentive»[8] الذي يشبه مزادا علنيا للأفكار على الإنترنت، وقد أطلق دون تابسكوت Don Tapscott وأنتوني ويليامز Anthony Williams مؤلفا كتاب: (Wikinomics: How Mass Collaboration Changes Every thing) على منظمات الأعمال من أمثال InnoCentive «سوق الأفكار»، أي ميادين العصر الحديث العامة التي تجمع بين أناس يسعون لبيع أفكارهم وشركات تسعى لشراء تلك الأفكار. وفي سنة 2006 تنبأ صمويل بالميسانو Samuel Palmisano رئيس شركة «IBM» على صفحات هذه المجلة (شؤون أجنبية) بأن تتحول الشركات الكبرى من كونها متعددة الجنسية مكونة نسخا صغيرة مكررة في كل سوق إلى ما أسماه «مشروعات مندمجة عالميا»، واليوم تقوم «IBM» بتحويل المهام إلى المكان الذي يمكن أن تنجز فيه على أكمل وجه. وانظر إلى خبرة شركة [9] Li & Fung، أكبر وأنجح شركة في توريد الصادرات، إن عملاءها هم من عملاء التجزئة لكل منتج معروف للإنسان تقريبا، أو على الأقل لكل منتج من صنع الإنسان، فوظيفة شركة «Li & Fung» هي أن تحدد الموردين من أكثر من 40 دولة في العالم وتتصل بهم من أجل أن تلبي طلبات محددة، ولا بد أن تأتي الشبكات الناتجة عن ذلك سريعة ومرنة وقادرة على العمل على مستوى عال مشترك. ووفقا لكل من ويليام وفيكتور فانج William and Victor Fung، وهما اثنان من الملاك الحاليين لتلك الشركة العائلية، فإن سر نجاح التوريد هو «تحقيق التناغم بين الشبكات»، وهو المعادل الإداري لخلق نظام يستطيع فيه الفرد أن يختار موقعا على خريطة مترو باريس،

في القرن الواحد والعشرين، المتصل فقط سيستمر في الحياة

(7) Procter & Gamble: شركة أمريكية متعددة الجنسيات تعمل في نطاق كبير من السلع الاستهلاكية، مدرجة ضمن قائمة مجلة «Fortune» لأكبر 500 شركة في العالم، وقد صنفت سنة 2008 كثامن أكبر شركة في العالم من حيث رأس المال المتداول. المترجم.

(8) InnoCentive: شركة تتعامل مع مشكلات البحوث والتطوير لحساب شركات كبرى في مجالات واسعة ومتعددة مثل علوم الكمبيوتر والهندسة والرياضيات والأعمال والكيمياء والفيزياء وعلم الأحياء، وتعرض هذه المشكلات على موقعها على الإنترنت مطالبة بتقديم أفضل الحلول لها، وتقدم جوائز مالية لأفضل حل قابل للتطبيق، ويطلق على مثل هذه الشركات اسم شركات «الابتكار المفتوح». المترجم.

(9) Li & Fung: شركة صينية مركزها الرئيسي الحالي في هونغ كونغ. المترجم.

ويرى على الخريطة مسارا مضاء وسط شبكة توصيل ذات خطوط ملونة بألوان مختلفة، فيما عدا . بالطبع . أن الركاب في كل محطة ستكون لديهم أفكارهم الخاصة حول أفضل طريقة للسفر.

بداية، قد تبدو هذه الشبكات الكونية وكأنها مجرد الجيل التالي من مقاولات التوريد، لكن ما يحدث هو شيء أعمق، فمقاولات التوريد تتطلب قيادة مركزية تحدد بدقة ماذا وكيف يجب أن ينتج المزيد، ومن ثم، ومن خلال تنظيم هرمي قائم ومستقر، ترسل قراراتها إلى المنتجين لكي ينتجوه في دول متعددة، لكن على العكس، في النظام الذي نتحدث عنه، تصبح سلاسل التوريد «شبكات للقيمة»، ويصبح الموردون شركاء، وبدلا من مجرد توريد المنتجات، يشاركون بالفعل في تصميمها. وتعد شركة «بوينغ» (Boeing) على وجه الخصوص مثالا ناصعا، على اعتبار أنها يمكن النظر إليها باعتبارها قلب الصناعة ذات الطراز القديم، لكنها قد تحولت من كونها، ببساطة، صانعا للطائرات إلى «دامج للنظم» معتمدة على شبكة أفقية من الشركاء، الذين يتفاعلون معها لحظة بلحظة، وهم يقاسمونها المخاطرة والمعرفة من أجل أن يحققوا مستوى أعلى من الأداء، وهو ليس مجرد تغيير بسيط في الشكل، ولكنه تغيير في الثقافة. إن التنظيم الهرمي والسيطرة يتراجعان أمام تجمعات التشارك والتنظيم الذاتي، ويمكن لشركة أن تكون في جوهرها صغيرة جدا، أو حتى ليست أكثر من نقطة التقاء مركزية لقادتها ومديري الكيانات المندمجة فيها، لكنها من خلال الشبكات الصحيحة تستطيع أن تصل إلى أي مكان يوجد فيه المبتكرون والمصانع وموردو الخدمات، وفي هذا العالم . كما يقول تابسكوت وويليامز . «المتصل فقط سيستمر في الحياة». وقد أدركت المنظمات غير الحكومية أيضا قوة الاتصالات، وهناك مثال مبكر على ذلك هو الحملة العالمية لحظر الألغام (International Campaign to Ban Landmines)، التي بدأت سنة 1991 بتحالف بين ست منظمات غير حكومية من أمريكا الشمالية وأوروبا، وقد نمت أخيرا حتى أصبحت تضم 1100 مجموعة في حوالي ستين دولة، ومع هذا الاتساع اكتسبت نفوذا، وبعد أن فازت بجائزة نوبل للسلام سنة 1997 ضغطت الشبكة بنجاح في اتجاه عقد اتفاقية دولية لحظر استخدام الألغام (على الرغم من أن الصين وروسيا والولايات المتحدة ودولا أخرى رفضت التوقيع عليها). واستمرت المنظمات غير الحكومية في تتبع قضايا أخرى، ففي سنة 1995 بدأت مجموعة صغيرة من منظمات حقوق الإنسان في المطالبة بإنشاء محكمة جنائية دولية لمحاكمة مجرمي الحرب، وقد نجحت هذه المجموعة في إقناع الحكومات بتأسيس محكمة دائمة سنة 1998، والآن يضم التحالف من أجل المحكمة الجنائية الدولية (Coalition for the International Criminal Court) أكثر من 2000 منظمة من كل أركان الأرض، وهو الذي يعمل الآن من أجل توسيع سلطة المحكمة، وأخيرا أصبح تحالف عالمي من منظمات غير حكومية يؤدي دورا مهما في الضغط من أجل

التحرك لوقف العنف الجاري في دارفور، وفي كل من هذه الحالات اكتسبت المنظمات غير الحكومية نفوذا مؤثرا على الدول الممانعة أيضا، حيث شكلت شبكات عابرة للقوميات ضاعفت من قدرتها على الضغط وعلى وضع رسالتها على أجندات المؤسسات الدولية، كما لاحظ فرنسيس سيغيرستيد، رئيس لجنة جائزة نوبل (Nobel Committee)[10]، عندما اعترف بحملة الألغام: «إن حشد وتركيز الاهتمام الجماهيري العريض الذي شهدناه يحمل وعدا بتجاوز حدود القضية المطروحة، ومن الواضح أنه قد أرسى أسلوبا لكيفية تحقيق الأهداف السياسية على المستوى العالمي».

لقد كانت الحكومات أبطأ في فهم تحديات القرن الواحد والعشرين، وبالتالي في إصلاح أنفسها، لكنها أيضا تتحرك بالتدريج نحو بنية أكثر شبكية، وقد أصدر مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية (Center for Strategic and International Studies)[11] تقريرا في سنة 2007 يحمل عنوان «سفارة المستقبل» (The Embassy of the Future) يطالب الدبلوماسيين الأمريكيين بأن يكونوا «أقل مركزية وأكثر مرونة وحركية»، وفي الوقت نفسه «متواصلين ومتجاوبين وذوي دراية»، فسيكون لدى طاقم أي سفارة أمريكية المزيد من «الحضور المنتشر»، ماديا ومعنويا، لو أنهم عملوا في مواقع متعددة ومع نطاق واسع من المجموعات المختلفة في البلدان المضيفة. وعلى نحو مشابه أدرك جولي جربندنج Julie Gerberding، مدير مراكز السيطرة على الأمراض (Centers for Disease Control)[12] بعد رعب الأنثراكس Anthrax[13] في 2001 وأزمة سارس SARS في 2002 أن هذه المراكز تحتاج إلى شبكة من العناصر الخاصة والعامة حول العالم، وتتطلب إدارة هذه الشبكة في المقابل منظمة مرنة وشبكية أكثر بكثير من المقر الرئيسي لهذه المراكز في أتلانتا، وكان من المتوقع أن يصل جربندنج لنتائج، لكنه افتقد السلطة اللازمة لتحقيقها، وقد كان الحل بالنسبة لجربندنج هو أن يجد شركاء حول العالم، وأن يحقق التناغم بينهم بأساليب من شأنها أن تسمح بالتوصل للمعارف والمشاركة فيها أثناء الأزمة، وقد كانت لدى الكثير من القضاة والمسؤولين الحكوميين بصيرة مشابهة، فقضاة الإفلاس على سبيل المثال يتصلون اليوم ببعضهم بعضا حول العالم،

(10) لجنة نوبل Norwegian Nobel Committee: اللجنة التي تختار سنويا من تمنح له جائزة نوبل للسلام، وهي مكونة من خمسة أعضاء يختارهم البرلمان النرويجي. المترجم.

(11) مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية Center for Strategic and International Studies: تجمع فكري في العاصمة الأمريكية واشنطن معني بالسياسات الخارجية تأسس سنة 1964، وهو يجري دراسات وتحليلات استراتيجية في القضايا السياسية والأمنية، ويركز على التكنولوجيا والسياسات العامة والتجارة الدولية والتمويل والطاقة. المترجم.

(12) مراكز السيطرة على الأمراض والوقاية Centers O& Disease and Prevention: وكالة تابعة لوزارة الصحة الأمريكية، معنية بحماية وتأمين الصحة العامة للشعب الأمريكي من الأمراض وخاصة الأمراض المعدية عن طريق توفير المعلومات لمتخذي القرارات في مجال الصحة. المترجم.

(13) الأنثراكس Anthrax: مرض الجمرة الخبيثة، وهو مرض يصيب الإنسان والحيوان، وقد أثار رعبا في الولايات المتحدة بدءا من 18 سبتمبر 2001، عندما تلقى عدداً من المكاتب الإعلامية وأعضاء مجلس الشيوخ رسائل بريدية تحتوى على جرثومات المرض، مما أسفر عن مقتل خمسة أشخاص وإصابة 17 شخصا. المترجم.

ويوقعون اتفاقيات لكي يديروا معا تفليسات الشركات متعددة الجنسية، وقد كان من الممكن أن تكون الأزمة المالية الحالية أسوأ كثيرا لو أن مسؤولي البنوك المركزية في العالم لم يكونوا على اتصال ببعضهم بعضا وقادرين على تنسيق خطواتهم.

إن القوة يمكن أن تنساب أيضا من الاتصالات عبر عناصر مختلفة، وقد شرح دافيد روسكوبف David Rothkopf في كتابه «نخبة القوة العالمية والعالم الذي تصنعه» (The Global Power Elite and the World They Are Making)، كيف يتواصل القادة عبر بنى مختلفة للقوة، من عالمي الأعمال والتمويل إلى عوالم السياسة والفنون، وهو يقول في كتابه: «في الواقع إن مثل هذه الروابط تمثل سمة مميزة للفئات العليا في المجتمع مثلها مثل الثروة والمكانة الاجتماعية»، وبتعبير آخر، فإن الاتصالية . أكثر من المال أو الجاه . هي التي تحدد قوة الأفراد، ويمكن لهذه الديناميكية أن تمتد إلى الجماعات الإرهابية مثل القاعدة، وقد لاحظ John Robb، العقيد السابق في القوات الجوية الأمريكية والخبير في الشؤون الاستراتيجية، أن محمد عطا كان قائد المجموعة التي نفذت عملية الحادي عشر من سبتمبر على الرغم من أنه لم يكن له وجود تنظيمي رسمي في المجموعة، وذلك لأن «عطا كان على اتصال باثنين وعشرين آخرين من أفراد الشبكة، أي أكثر من أي شخص آخر، مما مكنه من السيطرة على العملية». والقوة التي تنبع من هذا النمط من الاتصالية ليست من نوع القوة

إن الاتصالية هي التي تحدد قوة الأفراد، أكثر من المال أو الجاه

التي تعطي نتائج محددة، فالشبكات لا تُوجه وتُضبط بقدر ما هي تُدار وتُنسَّق، حيث يندمج أطراف عديدون في كل واحد وتكون النتيجة أفضل من مجموع الأجزاء - أوركسترا تعزف أنغاما مختلفة وفقا لرؤية قائدها وموهبة كل موسيقي فيها على حدة. إن حملة أوباما الانتخابية القائمة على عمل الفريق، ببنيتها المسطحة نسبيا واعتمادها على المنظمين الأفراد، هي نموذج على نمط الإدارة في القرن الواحد والعشرين. وأهم شيء هو أن القوة الشبكية تنبع من القدرة على إقامة أكبر عدد ممكن من الاتصالات ذات القيمة، والمتطلب التالي هو امتلاك المعرفة والمهارات اللازمة لتوظيف تلك القوة من أجل إنجاز هدف مشترك، والولايات المتحدة تتبع هذا النموذج في عدد قليل من المجالات المحددة، ففي محاربتها للإرهاب كانت قادرة على إحباط هجمات مخططة بفضل شبكة دولية كثيفة من العاملين على تطبيق القوانين والمسؤولين عن مكافحة الإرهاب ووكالات المخابرات، وقد حسنت الولايات المتحدة بدرجة كبيرة جدا من موقفها في العالم الإسلامي مما يعزى إلى جهودها الفورية والفعالة للإغاثة في آسيا عقب تسونامي ديسمبر 2004، فقد نسقت استراتيجية للتجاوب العاجل بين وكالات حكومية والعاملين في حقل المعونة في كل من أستراليا والهند واليابان والولايات المتحدة نفسها، وفي وقت أحدث،

عندما نشبت الأزمة المالية العالمية في الخريف الماضي، تواصلت الولايات المتحدة أولا مع البنوك المركزية حول العالم لكي تنسق الإجراءات النقدية اللازمة لمواجهة الأزمة، ثم تواصلت مع البنوك المركزية في الأسواق الناشئة الرئيسة لكي تتأكد من أن احتياجاتها من العملات الأجنبية متوفرة.

من هذه الرؤية، فإن التنبؤ بقرن آسيوي - مثل تنبؤ كيشور محبوباني Kishore Mahbubani، الباحث في السياسات الدولية وعميد معهد لي كوان يو (Lee Kwan Yew) للإدارة العامة في سنغافورة - يبدو سابقا لأوانه، وحتى أطروحة زكريا[14] حول «صعود الآخرين» تنطوي على معنى آخر، ولو كانت القضية - في عالم شبكي - لم تعد هي القوة النسبية لكنها درجة الأهمية داخل شبكة عالمية متزايدة الكثافة، فإن الانفجار في الابتكار والاستثمار الذي يحدث اليوم سيولد المزيد والمزيد من نقاط الاتصال الممكنة. إن القرن الواحد والعشرين يبدو على نحو متزايد قرنا أمريكيا آخر، على الرغم من أنه من المتوقع أن يكون قرن الأمريكيين أكثر مما سيكون قرن أمريكا.

بشر أكثر مشاكل أكثر

غالبا ما ينظر للمسألة السكانية باعتبارها العامل الرئيس للتراجع النسبي للغرب، فالصين والهند تشكلان أكثر من ثلث سكان العالم، بينما اليابان وأوروبا يتناقص تعدادهما بالفعل، والولايات المتحدة دولة صغيرة نسبيا ذات 300 مليون نسمة، لكن هذا المنطق يستند بدرجة كبيرة إلى افتراضات تكونت في القرنين التاسع عشر والعشرين، فعلى مدى معظم التاريخ الإنساني كانت الأرض والسكان يترجمان إلى قوة عسكرية وسياسية، فالقوة العسكرية اعتمدت على عدد الجنود الذين تستطيع دولة ما أن تحشدهم في ميدان القتال، وعلى الأرض التي على العدو أن يجتازها لكي يغزو هذه الدولة، وعلى قدرة الاقتصاد على توفير الإمدادات للجيش، وكان حجم السكان ذا أهمية للقوة الاقتصادية لأنه من دون التجارة الخارجية كانت الدولة تحتاج إلى سوق محلي كبير لكي يزدهر الصناع والتجار، لكن مع التجارة الخارجية كانت دول تجارية صغيرة مثل هولندا والبرتغال قادرة على أن تتجاوز حجمها بكثير، وفي القرن التاسع عشر وسعت دول صغيرة من أراضيها من خلال الاستعمار لكي تزيد من قوتها، لكن مع حلول القرن العشرين، وحيث تنامت القلاقل السياسية في المستعمرات، أصبحت مزايا التجارة تفوق بكثير - وبوضوح متزايد - مزايا الحكم ، وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي - القوتين القاريتين الكبيرتين - قد هيمنتا على النصف الثاني من القرن العشرين، فإن الدول التي أصبحت الأغنى كانت غالبا هي الدول الأصغر، وفي سنة 2007 كانت كل من الدول العشر الأعلى من حيث متوسط نصيب الفرد من الناتج

(14) فريد زكريا: محرر الـ «نيوزويك الدولية»، والكاتب هنا يشير إلى كتاب زكريا المعنون: (The Post-American World)، الذي صدر سنة 2008، راجع أيضا هامش رقم 6 - المترجم.

المحلي الإجمالي تضم سكانا أقل من سكان مدينة نيويورك، مع استثناء واحد ملحوظ: الولايات المتحدة.

في القرن الواحد والعشرين، الأقل هو الأفضل، وعلى الأسواق المحلية أن تكون كبيرة بما يكفي بالسماح للمشروعات بأن تحصل على نقطة ارتكاز، ثم بالتالي تصمد أمام المنافسة العالمية (على الرغم من أن مثل هذه الأسواق يمكن أن تحتوى داخل مناطق تجارة حرة أو اتحادات اقتصادية)، لكن فوق هذا الحد الأدنى، لو كانت القيود التجارية منخفضة وتكلفة النقل والاتصالات رخيصة، سيكون الحجم عبئا أكثر منه فائدة، فعندما تكون الأسواق والإنتاج عالميين، فإن الأعضاء المنتجين في كل مجتمع سيحققون دخلا من خلال مجتمعات مختلفة، ويستطيع مديرو الأعمال في دولة ما أن يضاعفوا القيمة باستخدام فريق عالمي متنوع من الباحثين والمصممين والمصنعين والمسوقين والموزعين، لكن سيظل من مسؤولية الحكومة أن ترعى الأعضاء الأقل إنتاجية في المجتمع، أعني المسنين وصغار السن والمعاقين والعاطلين، ولتفكر في هؤلاء كتكلفة قومية صافية، ومن هذا المنظور، فإن إدارة شؤون الثلاثمائة مليون مواطن أمريكي تبدو أسهل بكثير من إدارة شؤون مليار في الصين أو الهند. وعدد السكان المتناقص يستطيع بالفعل أن يعمل كعامل مساعد على الابتكار، ففي الصين تكون الإجابة عن العديد من المشاكل هي أن يستخدموا الناس ملقين بهم في قلب هذه المشاكل، من ناحية لأن الناس هم أكثر سلعة متاحة، ومن ناحية أخرى لأن الحكومة الصينية تحتاج إلى توفير أكبر عدد ممكن من الوظائف، أما في اليابان. على العكس. فإن الإجابة تكون هي الابتكار، فشركة «نينتندو» (Nintendo)[15]، عملاق صناعة ألعاب الكمبيوتر في كيوتو Kyoto، تجلب إلى اليابان الكثير من منتجاتها الصناعية من الصين وأجزاء أخرى من آسيا، إذ كيف تستطيع أن تنافس باستخدام العمل الياباني المرتفع التكلفة؟، إنها لن تكون مضطرة لأن تفعل ذلك، فمصانعها الجديدة قائمة بالكامل تقريبا على الميكنة المعتمدة على الكمبيوتر مع حفنة فقط من العاملين مرتفعي الكفاءة واللازمين لتشغيل هذه المصانع، وهذا الأسلوب يحتاج إلى طاقة أقل وتكلفة أقل، كما يضمن مستوى أعلى من المعيشة للشعب الياباني، وحيث تتحول الأولوية من النمو الاقتصادي إلى النمو المستدام، فإن المعادلة القائمة على أناس أقل زائد تكنولوجيا أفضل وأكثر حفاظا على البيئة ستبدو جذابة بشكل متزايد. وأخيرا، فإن الحجم يحمل معه مجموعة من تحدياته السياسية، فعلى مدى القرون الأربعة الماضية كان سهم التاريخ يشير في اتجاه حق تقرير المصير، فالإمبراطوريات والدول متعددة الأعراق كانت تنقسم باضطراد ثم تنقسم من جديد حتى تستطيع الدول. أو

(15) نينتندو (Nintendo Company Ltd.): شركة دولية مقرها كيوتو في اليابان، نشاطها الرئيسي إنتاج ألعاب الكمبيوتر، وهي واحدة من أهم الشركات في هذا المجال في العالم، وحققت مبيعات قدرها 85 مليار دولار في سنة 2007، وهي مصنفة كثامن أكبر شركة لإنتاج البرمجيات في العالم. المترجم.

الجماعات العرقية ذات الغلبة. أن تحكم نفسها، وبعد تسعين عاما من إعلان «وودرو ويلسون»(16) (Woodrow Wilson) لرؤيته حول حق تقرير المصير لدول البلقان، تستمر العملية في كوسوفو، ومن جهات متعددة كان تفكك الاتحاد السوفييتي جولة جديدة من تحلل الاستعمار وحركة حق تقرير المصير التي بدأت في أربعينيات القرن العشرين، وهي مستمرة اليوم مع الصراعات حول أبخازيا Abkhazia وأوسيتيا الجنوبية South Ossetia(17)، كما هو متوقع بالنسبة للصراع على شبه جزيرة كريميان(18) Crimean Peninsula وشرق أوكرانيا. لقد كان معظم تاريخ الصين ذي الخمسة آلاف عام، سلسلة معقدة من التفكك إلى أجزاء ثم العودة لالتئامها من جديد، والحكومة الصينية، مثلها مثل الحكومة الهندية، لديها مخاوف مشروعة من أن تتحول سريعا الجيوب الحالية من عدم الاستقرار إلى حركات انفصالية متعددة، بينما لا تواجه الولايات المتحدة أي تهديدات لوحدتها الأساسية، التي قامت على أيديولوجية سياسية وثقافية من الوحدة من خلال التنوع، والبديل الرئيس لهذه الوحدة هو الحل الذي يطبقه الاتحاد الأوروبي ورابطة دول جنوب شرق آسيا، التي تتجمع فيهما الدول المنفردة وتصبح مجتمعة كاقتصاد أكبر ثم بالتدريج وحدات سياسية كاملة تقريبا. إن البعد الأكثر وعدا في السياسة الصينية الحالية أصبح تبني نسخة من هذا الحل بخصوص هونغ كونغ ومكاو Macao، ويوما ما قد تطبق بكين هذا النموذج على تايوان.

إن الولايات المتحدة لا تستفيد فقط من محدودية عدد سكانها، لكن أيضا من مكونات هؤلاء السكان، فقد جذبت على الدوام أكثر الأفراد إبداعا وإصرارا وقدرة على الاستثمار، وقد أدى مزيج عريض من الثقافات إلى خلق جو من التلاقح المتبادل والابتكار المثمرين، ولا تزال هذه الفرضية قائمة، ففي سان فرانسيسكو على سبيل المثال يعلن خط للخدمة التليفونية عن أنه يستطيع أن يجيب على طالبي المكالمات بمائة وخمسين لغة، وهذا التنوع. والإبداع الذي يمكن أن يحدثه. مرئي في كل مكان: في أفلام هوليوود، وفي الموسيقى الأمريكية، وفي الجامعات الأمريكية، ففي جامعة برينستون في الخريف الماضي كان خمسة طلاب من الستة الحاصلين على جوائز لحصولهم على أعلى الدرجات قادمين من خارج الولايات المتحدة: من الصين وألمانيا ومولدوفا وسلوفينيا وتركيا.

في عصر الدولة القومية، في القرنين التاسع عشر والعشرين، امتصت الولايات المتحدة مهاجريها وحولتهم إلى أمريكيين،

---

(16) وودرو ويلسون Thomas Woodrow Wilson (1856-1924): الرئيس الثامن والعشرون للولايات المتحدة الأمريكية (1912-1920)، قام بدور رئيسي في تشكيل عصبة الأمم عقب الحرب العالمية الأولى، كما يكتسب شهرة خاصة بصفته صاحب النقاط الأربع عشرة، التي تستهدف طمأنة الدول التي تضررت من الحرب وإرساء السلام في أوروبا. المترجم.

(17) أبخازيا Abkhazia وأوسيتيا الجنوبية South Ossetia: إقليمان تابعان لجمهورية جورجيا أعلنا استقلالهما كجمهوريتين مستقلتين سنة 1991 مما أسفر عن صراع عسكري وسياسي لم يتم حسمه. المترجم.

(18) شبه جزيرة كريميان Cremian Peninsula: الجمهورية الوحيدة ذات الحكم الذاتي التي تتبع أوكرانيا. المترجم.

ولذلك كان تحقيق الانسجام القومي ضروريا لبناء القوة العسكرية والاقتصادية، أما اليوم فإن التنوع في الولايات المتحدة يعني شيئا أكبر، فمجتمعات المهاجرين لا تزدهر فقط في المدن الكبرى، لكن أيضا في الأحياء الصغيرة والمناطق الريفية، وقد حل الموزاييك محل بوتقة الانصهار، والأكثر من كل هذا أن المهاجرين يربطون مجتمعاتهم الجديدة ببلدانهم أو أقاليمهم، فعلى امتداد الحدود الجنوبية للولايات المتحدة يتحدث المهاجرون عن «مجتمعات عابرة للقوميات»، وعن سلالات من أسر في الولايات المتحدة مرتبطة بالقرى في المكسيك وأمريكا الوسطى، والآن فإن «من أين أتيت» تعني إلى أين تستطيع أن تعود . وتعود بالفعل . ومن تعرفه وتثق به بما يكفي لأن تتواصل معه. انظر على سبيل المثال إلى ما مثلته تجمعات الصينيين عبر البحار بالنسبة للصين: آلان وانج أحد تلامذتي السابقين ولد في الصين، ثم انتقل في الثانية عشرة من عمره إلى أستراليا مع أسرته، حيث التحق بالتعليم الثانوي ثم بمعهد القانون هناك، وفي وقت لاحق أتى إلى الولايات المتحدة سعيا للحصول على درجة جامعية من «هارفارد»، وقد مارس العمل في القانون لبعض الوقت مع مكتب بريطاني كبير في لندن، ثم انتقل إلى فرعه في شنغهاي، وعندما سألته كيف يعرف نفسه أجابني: «صيني عبر البحار». وهناك الملايين من الناس المشابهين لوانغ انتشروا خارجين من الصين إلى جنوب شرق آسيا وأستراليا والولايات المتحدة وكندا خالقين فرصا للتجارة وإقامة العلاقات المتشابكة لأناس آخرين في تلك الأماكن، وعلى النحو نفسه، على الولايات المتحدة أن تفكر في تجمعاتها العرقية كمصدر للأجيال القادمة من «الأمريكيين عبر البحار»، فالأمريكيون الصينيون والهنود يعودون بالفعل إلى أوطان آبائهم ليبحثوا عن الفرص ويصنعوا مستقبلهم، وفي القريب العاجل سيتبع أطفال المهاجرين من أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية نهجا مشابها ويعودون إلى مواطن أعراقهم، لزمن ما على الأقل، ومفتاح النجاح في ظل اقتصاد شبكي هو القدرة على حصد الأفكار والابتكارات من أوسع نطاق من المصادر، وفي هذا الصدد، فإن الولايات المتحدة موصولة بالفعل بكل أركان «المخ العالمي»، وفيما وراء تجمعات المهاجرين بها، تستطيع الولايات المتحدة أيضا أن تعتمد على جيل جديد لكي تقيم الاتصالات حول العالم، وجون زغبي[19] John Zogby، منظم استطلاعات الرأي المرموق، يسمي الأمريكيين بين عمر الثامنة عشرة والتاسعة والعشرين «الكونيون الأوائل»، ويصفهم بأنهم المجموعة «الأكثر شبكية والمشتبكة عالميا أكثر من أي فئة عمرية مشابهة في التاريخ الأمريكي»، فأكثر من نصف الذين استطلعت آراؤهم من بين أفراد هذه الفئة في استطلاع أجرته «مؤسسة زغبي» (Zogby International) سنة 2007 قالوا

(19) جون زغبي (1948) John Zogby: مؤسس ومدير مؤسسة زغبي الدولية Zogby International المتخصصة في إجراء استطلاعات الرأي السياسية، سواء عن طريق الاتصالات التليفونية أو عن طريق الاستطلاعات التفاعلية المعتمدة على الكمبيوتر . المترجم.

إن لديهم أصدقاء أو عائلات تعيش خارج الولايات المتحدة، وهو ما يزيد كثيرا عن أي فئة عمرية أمريكية أخرى، وأظهرت استطلاعات أخرى لـ «مؤسسة زغبي» أن أبناء هذا الجيل لديهم جوازات سفر بالنسبة نفسها التي لدى الفئات العمرية الأخرى تقريبا، لكنهم يستخدمونها أكثر كثيرا، وربع هذه الفئة. وفقا لبيانات مؤسسة زغبي. يعتقدون أنهم سوف «ينتهي بهم المطاف للعيش لفترة طويلة في بلد غير الولايات المتحدة». إن هؤلاء الشباب المنتشرين خارج أمريكا حول العالم سيكونون رصيدا ضخما للولايات المتحدة، والأطفال الذين يولدون في الخارج ويطالبون بالجنسية الأمريكية بالتبعية للوالدين أو كاختيار حر سيضافون لهذا الرصيد. لقد كان لدي زميل دراسة ولد في كندا لوالدين مجريين ثم حصل على الجنسية الأمريكية، وبعد دراسته الجامعية انتقل إلى الصين ثم اليابان حيث حصل على تصريح بالإقامة بينما لا يزال محتفظا أيضا بالجنسية المجرية، وهو الآن يعيش مع زوجة صينية في بكين حيث ولدت ابنته، وبعد مولدها بزمن غير طويل اصطحبها إلى طوكيو كي يستطيع تسجيلها كمواطنة أمريكية ويعود بها إلى الصين بجواز سفر أمريكي، ومثل هذه القصص كثيرة جدا جدا في أي مدينة عالمية كبيرة: زوجان من دولتين مختلفتين ينجبان أطفالهما في دولة ثالثة أو رابعة أو حتى خامسة، وبالنسبة لكثيرين من الناس الذين يدورون في هذه السحابة الطافية، أصبح جواز السفر الأمريكي نوعا من العملة الاحتياطية، خاصة الآن بعد أن خففت الولايات المتحدة من قواعد الجنسية المزدوجة، فحتى لو كان شخص ما أكثر الناس مغامرة وتجوالا، فسيتمتع بضمان الاستقرار السياسي والثقافي المتاح في الغرب، وعلى الولايات المتحدة أن تبتكر وتستحدث الحوافز والظروف التي تسمح لها بأن تشجع هذه الظاهرة وتستفيد منها في الوقت نفسه.

العالم يستدير ثانية

على مدى معظم التاريخ الحديث، كانت نظرة المركزية الأوروبية[20] Eurocentric للعالم تضع كلا من أمريكا الشمالية والجنوبية في نصف الكرة الذي يخصهم، أي في نصف الكرة الغربي، أما اليوم فإن خريطة العالم يعاد رسمها على نطاق الكرة الأرضية، حيث آسيا في الشرق، وأفريقيا والأمريكتان وأوروبا في الغرب، هذا على الأقل بشكل ما كما يفكر الآسيويون في أنفسهم، وفي كتابه الصادر أخيراً «نصف الكرة الآسيوي الجديد: تحول القوة العالمية الحتمي إلى الشرق» (The New Asian Hemisphere: The Irresistible Shift of Global Power to the East) يجادل محبوباني بأن عصر «الهيمنة الغربية على تاريخ العالم قد انقضى»، وأن العالم يشهد «مسيرة آسيوية نحو الحداثة»، لكن لو أننا عرفنا نصف العالم اليوم «الشرق» على أنه

(20) المركزية الأوربية Eurocentric: مفهوم يشير إلى نظرة الأوروبيين إلى أنفسهم باعتبارهم مركز العالم وقوته الرئيسة، وقد نشأ في العصور الاستعمارية والإمبريالية، والتعبير يستخدم من قبل منتقدي هذه النظرة وليس من قبل الأوروبيين أنفسهم. المترجم.

نصف الكرة الآسيوي، فإن النصف الآخر سيكون نصف الكرة الأطلنطي الذي يتكون من أفريقيا والأمريكتين وأوروبا، ويا لها من جيرة واعدة ثرية بالبشر والاقتصاد والمواد والثروات الطبيعية، وسياسيا تمثل أوروبا وأمريكا الشمالية مجتمعا متراميا للديمقراطيات الليبرالية التي تضم سدس سكان العالم، وتحقق حوالي 60 في المائة من الناتج المحلي الإجمالي للعالم، وتملك عملتي الاحتياطي النقدي العالميتين الرئيستين، وما يعبر المحيط الأطلنطي من التجارة والاستثمار المباشر أكثر مما يعبر أي جزء آخر من العالم، أكثر من تريليوني دولار أمريكي من الاستثمار الأجنبي المباشر فقط، فضلا عن أن احتمالات تزايد الاندماج في نصف الكرة الأطلنطي ضخمة، لعل الأكثر أهمية هو احتمالات الاندماج الاقتصادي الأكثر عمقا داخل الأمريكتين ففي ما يتعلق بالطاقة فإن الرمال الكندية المشبعة بالنفط وقصب السكر البرازيلي واعدان أكثر من الاعتماد على خطوط الأنابيب الروسية والنفط السوداني، وأسواق الطاقة المتجددة . مثل الطاقة الحيوية وطاقة الرياح والتكنولوجيا الجيوحرارية ومصادر أخرى . تتنامى في أمريكا اللاتينية، وميامي اليوم مركز مالي بالفعل لأمريكا اللاتينية، والنمو المضطرد لعدد الأمريكيين من أصول لاتينية سيعمق من الاستثمار المتبادل. إن صعود البرازيل . والمكسيك بدرجة أقل نسبيا . سيخلق توازنا متبادلا ناشئا بالنسبة للولايات المتحدة إلى الجنوب من حدودها، لكن أي مبادرة من أجل تقوية الروابط الاقتصادية يجب أن تأتي من قبل الولايات المتحدة نفسها، حيث يجب عليها أولا أن تعالج سياساتها الخاصة بالهجرة، ثم تعرض دعمها لاتحاد اقتصادي بين أمريكا الوسطى والجنوبية مشابها للمساعدة الاقتصادية والسياسية التي قدمتها للاتحاد الأوروبي، فقد تكون النتيجة سوقا مندمجة وتكتلا تجاريا يضم 800 مليون نسمة مع موارد طبيعية ضخمة وفرص ضخمة للتنمية والنمو المستدام وروابط عميقة مع أفريقيا وآسيا وأوروبا، وتلك السوق يجب أن تظل محتفظة بالحماية من محيطين عريضين، وحتى من عالم شبكي، فهناك فوائد من البقاء على غير اتصال، فهذان المحيطان يحميان الولايات المتحدة من تدفقات اللاجئين الضخمة ومن تهديدات أخرى لأمنها ناتجة عن الحروب الأهلية والمدنية. ويحميانها من آثار تغير المناخ. لقد اكتشف باحثون في جامعة برينستون أن الأمطار التي تسقط فوق المحيط الهادي تغسل الهواء من كميات كبيرة من الأوزون وبعض الغازات الأخرى المنبعثة في آسيا قبل أن يصل إلى الأمريكتين، كما أن معظم تقديرات تغير المناخ تتنبأ بأن ارتفاع المياه، التي تفيض على دلتا الأنهار في جنوب وجنوب شرق آسيا، من المتوقع أن تهدد حياة الملايين في دول مثل بنغلاديش، والتصحر المتزايد في شمال أفريقيا سيجبر المهاجرين على عبور البحر المتوسط إلى أوروبا، ويمكن أن تدفع عملية مشابهة في شمال الصين أعدادا أكبر إلى روسيا، ومن المتوقع أن تكون هناك صراعات تتبع هؤلاء اللاجئين،

وستجد الديموقراطيات الجديدة مثل إندونيسيا ودول الحزب الواحد مثل الصين وفيتنام نفسها متضررة اقتصاديا وسياسيا، ولن تكون الأمريكتان بالطبع محميتين تماما من مياه المحيطات الكاسحة والفيضانات والتصحر أو من العواقب السيئة الأخرى لتغير المناخ، لكن كلا من الجغرافيا والعامل السكاني . وغياب مئات الملايين من الناس في حركة دائمة . سيعزل العالم الجديد من التأثيرات السيئة لذلك القديم.

ثقافة إبداعية

يعتمد المصير الاقتصادي لأي دولة على مدى كونها قادرة على تشجيع الإبداع ورعايته، ففي العام الماضي كرر جميع المرشحين للرئاسة الأمريكية النداءات من أجل تجديد الظروف التي طالما جعلت من الولايات المتحدة قائدة التكنولوجيا المبتكرة، ففي القرن الواحد والعشرين ستعمل الشركات الكبرى والمنظمات المحلية والوكالات الحكومية بشكل متزايد لتجميع أفضل الأفكار على نطاق العالم، وفي مثل هذه البيئة سيكون من المهم ليس فقط رعاية الابتكار المحلي، لكن أيضا رعاية الشبكات التي تستطيع أن تنتج ابتكارات تعاونية عبر العالم. ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف، تحتاج الولايات المتحدة إلى أن تحسن من التعليم، وأن تزيد من الاستثمار الحكومي في العلم والتكنولوجيا، لكن أهم ميزة لدى أمريكا في مجال الابتكار هي الثقافة، في حين أن العيوب الجوهرية في الأنظمة السياسية والاقتصادية في الصين ستجعل من الصعب جدا عليها أن تنتقل من كونها مصنع العالم إلى كونها مصمم العالم، فالحكومة الصينية مصرة على أن تنمي الابتكار كما لو كانت تنمي تشكيلة فاخرة من فول الصويا، معتمدة على مجمعات صناعية تختلط فيها أقسام متساوية من التكنولوجيا والتعليم والبحوث والترويج وتُسمى «جبال الموهبة»، ويمكن أن تكون النتيجة ممتازة، كما رأيت بنفسي في العام الماضي في مجمع زيخو الصناعي المؤسس على أساس علمي في شنغهاي، فالمجمع الذي استغرق بناؤه خمس سنوات فقط يحتوي على مبان جامعية ضخمة ومراكز بحثية لأكثر من عشرين مشروعا آسيويا وغربيا ومجمع سكني، والهدف هو تشجيع الابتكار من خلال توازن بين الطبيعة والعلم والبيئة الطبيعية أو . كما يفترض المخططون له . إيجاد «هياكل معمارية» لمجتمع الصين المستقبلي، تماما كالهياكل المعمارية التي تقام من أجل جيل جديد من ناطحات السحاب، والمجمع مذهل، وقد أخبرنا المرشد أن «كل شيء ممكن في الصين»، وبالنظر إلى السرعة وحجم وجودة البناء، كان من الممكن جدا أن نصدق ذلك، لكن في النهاية صدمني مجمع زيخو الصناعي لكونه يشبه مزرعة مائية لتصنيع اللؤلؤ الصناعي، لكن كما يعرف كل عشاق اللؤلؤ فإن أثرى الابتكارات تولّد خلال استثارة غير متوقعة وغير متكررة وليس من خلال ظروف متحكم فيها بشدة. في سنة 2003 قدمت جامعة كاليفورنيا وحدها براءات الاختراع أكثر من أي من الصين أو الهند، وفي تلك السنة نفسها قدمت شركة «IBM» براءات اختراع

تعادل خمسة أضعاف ما أخرجته الصين والهند مجتمعتين، والمشكلة بالتأكيد ليست افتقارا للإبداع لدى الصينيين والهنود، فوادي السيليكون مليء بالمبتكرين من كلا البلدين، وإنما القضية هي الثقافة المحيطة، أو ما يسميه مُنّظِر الدراسات الحضرية ريتشارد فلوريدا «البيئة الطبيعية للابتكار»، ففي الوقت نفسه الذي تسعى فيه الصين للسكون السياسي، فإنها تعتمد على النمو المستمر المعتمد على الابتكار الذي يتطلب بدوره الصراع - ليس الصراع العنيف لكن الصراع الإيجابي أو البناء، الصراع من النوع الذي ينتج الحلول القائمة على المعادلات غير الصفرية[21] Non-Zero-Sum، هذا هو نوع الصراع الموجود في الملاعب الرياضية الأمريكية وفي قاعات المحاكم الأمريكية، وفي النظام السياسي الأمريكي، إنه صراع المنافسة المنظمة التي يكون فيها للخاسر فرصة لكي يفوز في مرة قادمة، وكل فرد لديه مصلحة في التحسين المستمر للعبة، إنه أيضا صراع الهدم الخلاق، أي عملية هدم نماذج الأعمال القديمة من أجل شق الطريق أمام أخرى جديدة.

والأكثر أهمية هو أن ثقافة الصراع البناء تكافئ تحدي السلطة في كل المجالات، وربما كان أفضل مثال هو شركة «غوغل» (Google)، التي لا وجود فيها للتنظيم الهرمي تقريبا، ويجري تشجيع أفرادها في كل فرصة على المضي في طريقهم الخاص وعلى إبراز أفكارهم الخاصة ومعارضة المعتقدات السائدة، وقد أكدت المؤسسات التعليمية الأمريكية لزمن طويل على التفكير النقدي من خلال الأساليب التي تحاول الصين ودول أخرى اليوم أن تحاكيها، لكن ثقافة للابتكار تتطلب أكثر من القدرة على النقد، إنها تتطلب قول ما تفكر فيه، وليس ما تعتقد أن رئيسك في العمل يريد أن يسمعه، وهو الشيء الذي يناضل كثيرون من المديرين الغربيين في الصين دون فائدة لكي يشجعوا عليه. إن ثقافة تتطلب وجود رغبة دائمة في إعادة النظر إلى العالم ليست هي الثقافة التي من المتوقع أن يحتضنها الحزب الشيوعي الصيني، والواقع إن ثقافة للابتكار تتطلب تشجيع الصراع داخل ثقافة أكبر تقوم على الشفافية والثقة وتعطي أولوية للمنافسة عبر الثقافات، إنها ثقافة يعتبر الأمريكيون مؤهلين لها لدرجة مثالية بكل من المزاج والتاريخ.

عالم الإنترنت التفاعلي

بدءا من ألكسيس دي توكويفيل[22] Alexis de Tocqueville لاحظ كل مراقبي الثقافة الأمريكية تقريبا أن الأمريكيين مشاركون ومتطوعون ومحاورون مداومون، لكن اليوم، بدلا من مجموعات حياكة الملابس وبيع المخبوزات للأغراض الخيرية، وجمعيات الحوار، أصبح لدى الأمريكيين MySpace

---

(21) المعادلة غير الصفرية Non-Zero-Sum: المعادلة الصفرية هي التي بالضرورة تمثل أي زيادة في أحد طرفيها خسارة للطرف (أو الأطراف) الآخر بحيث يكون المجموع الجبري النهائي للمكسب والخسارة مساويا للصفر، وعلى العكس فإن في المعادلة غير الصفرية، ليس من الضروري أن تمثل الزيادة لدى أحد الطرفين أو الأطراف خسارة لبقية الأطراف، وبذلك يكون المجموع الجبري النهائي أكبر من الصفر. المترجم.

(22) ألكسيس دي توكويفيل Alexis de Tocqueville: (1805-1854): مفكر سياسي ومؤرخ فرنسي. المترجم.

ومدونات ومبادرة كلينتون العالمية»[23] (Clinton Global Initiation)، وهذه النوعيات واضحة في العدد المتنامي من الكيانات التعاونية. سواء التي على الإنترنت أو العادية وفي عالم مواقع الإنترنت التفاعلية (Wikis)، التي ربما تمثلها «ويكيبيديا»[24] (Wikipedia)أفضل تمثيل. تواجه الأفكار بالتحدي ثم التدوين ثم التحدي من جديد، والمنتج النهائي هو نتيجة لنوع من المعارضة مختلف وأكثر اعتدالا من عملية المعارضة الموجودة في النظام القانوني الأمريكي، لكن المنطلق واحد، عقول متعددة تتصادم ويصحح بعضها بعضا في السعي وراء الحقيقة، وعمل كل مشارك مفتوح ومتاح للاستخدام من قبل الآخرين، والمشاركون في هذه العملية موثوق في أنهم لن يحصلوا على ميزة من هذا الانفتاح، لكنهم بدلا من ذلك يضيفون مساهماتهم الخاصة. وفي عالم يشجع على عدم المركزية وعلى الصراع الإيجابي، تمتلك الولايات المتحدة ميزة، فعلى الرغم من أن الثقة والشفافية ليستا مقصورتين على الولايات المتحدة، فهي لا تزال أحد أكثر المجتمعات انفتاحا في العالم، فعالم الإنترنت، وعالم المواقع التفاعلية (Wiki) والعالم الشبكي بدأت كلها في الولايات المتحدة ثم أشعت على العالم الخارجي، وسمات هذه العوالم هي مفاتيح الابتكار وحل المشكلات في القرن الواحد والعشرين.

في كتابه المعنون «المنطق غير الصفري لمصير البشرية» (Nonzero: The Logic of Human Destiny)، يكتب روبرت رايت، زميل المؤسسة الأمريكية الجديدة[25] (New American Foundation)، عن التاريخ الإنساني كعملية مطردة من التعرض المتزايد للتعقد وما ينتج عنه من القدرة على تحويل المشكلات ذات العلاقة الصفرية إلى حلول غير صفرية، فابتكارات العصور الهمجية التي اجتاحت آسيا وأوروبا على سبيل المثال كانت كارثية بالنسبة لمجتمعات كثيرة، لكن بإضافتهم لأفكار وممارسات جديدة إلى مجمل المعرفة البشرية يحفّز الغزاة على عملية الابتكار وحل المشكلات، وبتعبير آخر أحدثوا تقدما، والغزاة اليوم موجودون على شبكة الإنترنت وليس على ظهور الخيل، وأصبح التدخل المتبادل اختياريا بدرجة أكبر، وستنساب الفوائد إلى الأفراد والدول الأكثر قدرة على النفاذ عبر الثقافات، وسيكون من الضروري بشكل متزايد تقدير المساهمات وامتصاصها بأية لغة ومن أي سياق، لكن هنا تصور الرؤية التقليدية الأمريكيين كجهلاء بدرجة سيئة بالجغرافيا

(23) مبادرة كلينتون العالمية Clinton Global Initiation: إشارة إلى مؤسسة كلينتون Foundation William J. Clinton، التي أسسها الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون بهدف «تعزيز قدرات الناس في أرجاء العالم على الاعتماد المتبادل على مستوى العالم»، وهي تركز على أربع قضايا رئيسة: الأمان الصحي، والتطور الاقتصادي، وتنمية القيادة وخدمة المواطن، والتصالح العرقي والديني. المترجم.

(24) Wiki: نوع من المواقع على الإنترنت يسمى «المواقع التشاركية» Collaborative Websites التي تسمح لأي شخص يتعامل معها بأن يشارك في تحريرها بالتعديل أو الإضافة، ويعتبر موقع دائرة المعارف المسماة Wikipedia نموذجا لهذا النوع من المواقع. المترجم.

(25) New American Foundation: معهد للسياسات العامة وتجمع فكري لا يهدف للربح، تأسس سنة 1998، وهو يدعم الحلول السياسية المبتكرة، ويتخطى الخطوط الحزبية التقليدية، ويتبنى موقفا محايدا. المترجم.

واللغات والثقافات الأجنبية، وقد ينطبق هذا الوصف على الكثيرين من الأمريكيين، لكن كثيرين آخرين. المهاجرين وأطفالهم بشكل خاص. يتعايشون مع الاختلافات الثقافية كل يوم، في المدرسة وفي أماكن العمل وفي الشارع، ومن بوسطن إلى لوس أنجلوس يتزاحم -بالأكتاف- المهاجرون الجدد من أفريقيين وعرب وأمريكيين لاتينيين وشرق آسيويين وجنوب شرق آسيويين مع أشخاص ينتمون لمجتمعات أكثر رسوخا، من البيض والسود على السواء، وعلى مستوى النخبة تقدم مدارس النخبة في الولايات المتحدة تعليما مشابها في منافسة متعددة الثقافات، والكثير من الأزواج والزوجات الذين يغيّرون اليوم وجه مدن عالمية التقوا ببعضهم بعضا في أماكن مثل جامعتي «هارفرد» (Harvard University) و«ستانفورد» (Stanford University)، وربما كان والدا أوباما سابقين لعصرهما، لكن الشباب الأمريكي اليوم. وأكثر بكثير من أي وقت مضى. يحذون حذوهم، إنهم حقا كما أسماهم زغبي «العالميون الأوائل».

كيف تصل إلى هناك من هنا؟

في ساعتنا هذه، ميزة الولايات المتحدة في هذا العالم الجديد متوقعة أكثر منها قائمة، فستواجه البلاد حجما كبيرا من العمل لإخراج نفسها من الحفر الكثيرة التي أوقعت نفسها فيها في الداخل والخارج، وفي هذه العملية يجب على الولايات المتحدة أن تتبنى خمس سياسات ومواقف من شأنها أن تشحذ ميزتها وتشدد قبضتها عليها.

الأول أن الولايات المتحدة عليها أن تتبنى إصلاحا شاملا في مجال الهجرة من شأنه أن يسهل على المهاجرين والعاملين الأجانب أن يتحركوا عبر الحدود، وأن تضفي الشرعية على وضع الملايين من المهاجرين غير الشرعيين الموجودين حاليا في الولايات المتحدة، وأن تزيد من عدد تأشيرات الدخول لأكثر الأشخاص موهبة في العالم، ويجب أن يتضمن تغيير موقف الولايات المتحدة تجاه الهجرة إدراك أنه بسبب روابط المهاجرين مع بلدانهم الأصلية فهم بمنزلة محركات للنمو الاقتصادي، وأي سياسات اقتصادية جديدة يجب أن تقدم إعانات أو حوافز ضريبية للمهاجرين، الذين ينشئون مشروعات قائمة على الارتباطات التي نموها مع الأسواق والمواهب في بلدانهم الأصلية، وبدلا من الأموال المتدفقة إلى الخارج في طريق ذي اتجاه واحد، فإن الولايات المتحدة تحتاج إلى طريق ذي اتجاهين لتدفق السلع والخدمات والناس، أما الإصلاح الثاني فهو أن الولايات المتحدة. كجزء من إصلاح نظامها التعليمي. عليها أن تنظر إلى الدراسة عبر البحار كرصيد مهم لكل الأمريكيين. والحقيقة إن منظمات مثل مؤسسة «براون بيل» (Brown Bell Foundation) توفر فرصا للدراسة في الخارج لطلاب المعاهد والجامعات المرتبطة تاريخيا بالسود، الذين يفتقدون مثل هذه البرامج عادة، وبنفس

إن الولايات المتحدة موصولة بكل أركان المخ العالمي

درجة الأهمية، يجب أن تنظر الولايات المتحدة لأطفال المهاجرين، الذين يشبون على تعلم العربية والهندية والماندارينية[26] Mandarin والأسبانية ولغات أجنبية أخرى بصفتهم رصيدا ضخما، ويجب على البرامج الحكومية والمبادرات الخاصة أن تشجعهم على الدراسة في بلاد آبائهم وأجدادهم مع احتفاظهم بجوازات سفرهم الأمريكية لكي يحصلوا على الجنسية المزدوجة. إن العالم الشبكي يتطلب مجتمعا شبكيا بحق، بما يعني كفالة العدالة الاقتصادية والاجتماعية، فالولايات المتحدة لم تكن يوما على القدر من المساواة الذي تصورته عن نفسها، لكن هذا الانفصام قد تزايد في العقد الأخير حيث أصبح الأثرياء شديدي الثراء، وفي ما بين أواخر خمسينيات القرن العشرين وسنة 2005 زاد نصيب أغنى واحد في المائة من الدخل بين سكان الولايات المتحدة بأكثر من الضعفين، وحتى الحزب الديموقراطي لم يكن منيعا، ففي الليلة التي قبل فيها أوباما التكليف بأن يكون المرشح الرئاسي الديموقراطي أغلق مسؤولو حملته قسما كاملا من استاد إنفيسكو في دنفر بكولورادو وقصروه على كبار ممولي الحملة الانتخابية مانعين أي شخص آخر من دخوله، ولبعض الوقت كانت الثقافة التي يستطيع فيها المال أن يشتري وضعا خاصا فكرة ديموقراطية ومساواة راديكالية، وبدلا من النظام الطبقي الأوروبي، الذي يضمن فيه النسب التفوق دائما، يستطيع الأمريكيون أن يعتمدوا على التعليم والتوظف لتحقيق التقدم الذالي، لكن هذه الثقافة نفسها تصبح مفتقدة للمساواة بشكل متأصل عندما تكون لدى فئة قليلة نسبيا فرصة الازدهار ماليا، وكما يقول عالم السياسة لاري بارتلز Larry Bartels، فإن عدم المساواة الاقتصادية المتصاعد هو خيار سياسي، فالرؤساء الجمهوريون بوجه عام سمحوا لعدم المساواة بأن تتسع، بينما لم يفعل الرؤساء الديموقراطيون ذلك، ولو كان الأمر كذلك، فإن الولايات المتحدة تستطيع اختيار الحد من عدم المساواة بأن تجعل من مجتمعها أكثر أفقية وأكثر ديمقراطية وأكثر اندماجا بين الطبقات والأعراق، وهذا هو الإصلاح الثالث، الذي يجب أن تتبناه، والقيام بهذا سيضيف مزيدا من الدوائر المحتملة إلى الشبكة، أما الإصلاح الرابع فهو أن الولايات المتحدة يجب أن تبذل في سياستها الخارجية مزيدا من الجهد تجاه الارتباط بأمريكا اللاتينية، ليس على حساب ارتباطاتها بآسيا، لكن بالإضافة للتاريخ الطويل من العلاقات عبر المحيط الهادي، فالبرازيل على سبيل المثال تحدد سياستها الخارجية بناء على مجموعة من الدوائر المتتالية، وهي تبدأ بـ «Mercosur[27]» الكتلة التجارية لأمريكا الجنوبية، ثم بقية أمريكا اللاتينية، ثم الأمريكتين، ثم بقية العالم، وعلى نحو

(26) Mandarin: أكثر اللهجات الصينية انتشارا، وهي الأكثر استعمالا في الأجزاء الشمالية وفي جنوب غرب البلاد. المترجم.

(27) Mercosure: اتفاقية تجارية إقليمية تجمع بين الأرجنتين والبرازيل وأورغواي وباراغواي، وتهدف إلى تحرير التجارة وحرية انتقال السلع والأفراد والعملات. أسست سنة 1991. المترجم.

مشابه يجب أن تفكر الولايات المتحدة في اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية[28] (North American Free Trade Agreement) (NAFTA) والأمريكتين قبل أن تستدير لبقية العالم، فاحتمالات النمو والتنمية في الأمريكتين ضخمة، والروابط السكانية بين الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية قوية وتزداد قوة، واللغة الأسبانية تدرس الآن فعليا في كل المدارس العامة الأمريكية بدءا من السنوات الدراسية المبكرة.

إن تقوية الروابط مع أمريكا اللاتينية يعني أيضا تنمية علاقات عبر جنوب الأطلنطي باتجاه دول البحر المتوسط مثل أسبانيا والبرتغال، وأيضا فرنسا وإيطاليا، وأخيرا، فإن الدم الأفريقي يجري في عروق الكثيرين من الأمريكيين الشماليين والأوسطيين والجنوبيين، وهذه الحقيقة ميراث لتاريخ بغيض، لكنها تعني أن الكثيرين من الأمريكيين لديهم تراث أفريقي يمكن أن يسمح لهم بإعادة الارتباط مع أفريقيا اليوم، ومن وجهة أكثر عمومية، فإن الولايات المتحدة يجب أن تتعلم أن تفرق بين نظرتها لنفسها ونظرتها للعالم، فلو كانت القوة تنبع من الاتصالية، فإن بؤرة القيادة يجب أن تكون في إقامة اتصالات لحل المشكلات المشتركة، وهذا المدخل ليس فقط نمطا مختلفا من القيادة عن ذلك الذي ساد في الولايات المتحدة في السنوات الأخيرة، لكنه أيضا مفهوم مختلف جذريا للقيادة، فعلى العكس من الأسلوب القائم على التنظيم الهرمي، لا يستطيع قائد منفرد. طبقا لهذا المفهوم. أن يكون مسؤولا بشكل مباشر عن كل الأفراد الآخرين، حيث تستطيع الدول المختلفة أن تعقد تحالفات من أجل تحقيق أغراض محددة، فالقوى الإقليمية. على سبيل المثال. تستطيع أن تواجه الأزمات في الجزء الذي يخصها من العالم، ولتنظر إلى دور استراليا في تعزيز الاستقرار في تيمور الشرقية وإلى قدرة منظمة آسيان[29] (ASEAN) على إقناع حكومة ميانمار بقبول المعونة الدولية بعد سيكلون نارجيس[30] Cyclone Nargis أو إلى عمل تركيا على الدفع من أجل محادثات بين سوريا وإسرائيل. إن نطاق وتعقد تحديات السياسة الخارجية . والسرعة التي يمكن أن تتفاقم بها أي أزمة . يعنيان أن معرفة الناس الذين يصح مخاطبتهم والأدوات التي يجدر استخدامها في أي ركن من العالم يجب أن تكون عاملا رئيسا في الدبلوماسية الأمريكية.

أخيرا، يجب على الولايات المتحدة أن تدرك ضرورة التوليف بين الأطراف العامة والخاصة والمحلية كي تواجه المشكلات العالمية، فقد انتهى العصر الذي تستطيع فيه حكومة أن تضع تشكيل وتنفيذ السياسات على عاتقها وحدها، حتى ولو كانت حكومة أمريكية تحظى بالتأييد وبقدر أكبر من

(28) اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية NAFTA: تكتل تجاري بين الولايات المتحدة وكندا والمكسيك بموجب اتفاقية تم توقيعها في ديسمبر 2002. المترجم.

(29) رابطة دول جنوب شرق آسيا (ASEAN): منظمة إقليمية للتعاون الاقتصادي والسياسي أسست سنة 1967، وتضم حاليا عشر دول. المترجم.

(30) Cyclone Nargis: إعصار مدمر ضرب دولة ميانمار (بورما سابقا) في 2 مايو 2008، وهو أعنف إعصار عرفته ميانمار في تاريخها المسجل، وأدى إلى وفاة 164 ألف إنسان وفقد آلاف آخرين. المترجم.

التفويض الاقتصادي والاجتماعي، ومع ذلك، فإن العهد بوظائف الحكومة إلى وسطاء من القطاعين الخاص والمحلي ليس هو الحل، بل يجب على المسؤولين الحكوميين. بدلا من ذلك. أن يتعلموا كيف يولفون شبكات من هذه الأطراف ويرشدونهم إلى حلول تشاركية.

تقاسم الميزة

في هذا القرن سوف يتم تعريف القوة العالمية بشكل متزايد بالاتصال، من يتصل بمن؟ ولأي أغراض؟ وسيظل العالم بالطبع محتويا على صراعات، ويمكن أن تكون الشبكات مضرة ومميتة كما يمكن أن تكون مثمرة ومفيدة، وبالإضافة إلى ذلك فإن الفجوة بين هؤلاء المتصلين بالشبكات العالمية وهؤلاء المستبعدين منها ستتضاعف بحدة من عدم المساواة الموجود بالفعل، لكن على وجه العموم، ستفوق الآثار الإيجابية للشبكات آثارها السلبية بدرجة كبيرة، ولنتصور على سبيل المثال اقتصادا أمريكيا قائما على التكنولوجيا الخضراء والبنية الأساسية الخضراء، فإن مجتمعات المهاجرين الأمريكيين من أفريقيا وآسيا وأوروبا وأمريكا اللاتينية والشرق الأوسط ستقتسم هذا الجيل الجديد من المنتجات والخدمات مع قرى ومدن في بلدانها الأصلية، وسينساب الابتكار في كلا الاتجاهين، وفي الولايات المتحدة ستكون الجامعات قادرة على تقديم مناهج دراسية في حجرات درس عالمية، بحق، معتمدة على طلابها وكلياتها العالميين في الاتصال بالمؤسسات التعليمية في الخارج من خلال السفر والإنترنت وعقد مؤتمرات الفيديو، كما أن الفنانين من كل الأنواع سوف يجلسون عند ملتقى طرق الثقافة والتعليم والطاقة الخلاقة، أما الديبلوماسيون الأمريكيون والمسؤولون الحكوميون الآخرون فسيتلقون باستمرار أحدث الأنباء والمعلومات حول الأحداث الجارية حول العالم، وسيكونون على اتصال بنظرائهم في الخارج، وقادرين على التنسيق السريع في الإجراءات الوقائية وحل المشكلات في نطاق من الأطراف الخاصين والمحليين، وستشبه الساحة العالمية في مجملها حملة أوباما الانتخابية التي جمعت فيها شبكة واسعة ملايين الدولارات من التبرعات، والتي حفزت ملايين من المتطوعين، وحشدت ملايين من الناخبين.

في عالم شبكي، تملك الولايات المتحدة الفرصة لأن تكون أكثر الدول اتصالية، كما ستكون متصلة أيضا بمراكز القوة الأخرى التي ستكون بدورها اتصالية على نطاق واسع، ولو اتبعت الولايات المتحدة السياسات الصحيحة فستكون لديها القدرة ورأس المال الثقافي لكي تجدد نفسها، وهي تحتاج ألا ترى نفسها كمتورطة في صراع عالمي مع قوى كبرى أخرى، وبدلا من ذلك يجب أن تنظر إلى نفسها كعنصر مركزي في عالم مندمج، وفي القرن الواحد والعشرين ستكون القدرة الاستثنائية للولايات المتحدة على الاتصال . وليس العزلة الكاملة أو الهيمنة المسيطرة . هي التي ستجدد قوتها وتستعيد لها دورها العالمي.



ملف العدد

مستقبل القوة الأمريكية:

كيف تستطيع أمريكا أن تتعايش مع صعود الآخرين؟

بقلم: فريد زكريا*

العنوان الأصلي للمقال: The Future of American Po-er: How America Can Survive the Rise of the Rest

ونشر في مجلة Foreign Affairs، عدد مايو - يونيو 2008

في الثاني والعشرين من يونيو 1897 كان حوالي 400 مليون إنسان حول العالم - ربع سكان الأرض - في إجازة، لقد كان يوم الذكرى الستين لارتقاء الملكة فيكتوريا عرش بريطانيا، وقد امتد الاحتفال باليوبيل الماسي على مدى خمسة أيام فوق الأرض والبحر، لكن ذروته كانت في الموكب وأداء صلاة الشكر يوم 22 يونيو، وقد كان رؤساء الوزراء الأحد عشر لمستعمرات بريطانيا ذات الحكم الذاتي من بين الحضور، إلى جانب أمراء ودوقات وسفراء ومبعوثين من بقية العالم، وشارك في العرض العسكري 50000 جندي من ضمنهم فرسان من كندا وفرسان من نيو ساوث ويلز وحملة البنادق من نابولي وقوافل الجمال من بيكانر Bikaner [1]، وفرق عسكرية من نيبال.

* فريد زكريا: محرر الـ «نيوزويك الدولية». هذا المقال مشتق من كتابه The Post-American World (W. W. Norton &Company, Inc., 2008 by Fareed Zakaria).

(1) Bikaner: مقاطعة تابعة لولاية راجاستان في غرب الهند - المترجم.

لقد كانت - كما كتب أحد المؤرخين - «لحظة رومانية». وفي لندن كان آرنولد توينبي[2] Arnold Toynbee ذو الثمانية أعوام قابعا فوق كتفي عمه يراقب الموكب في لهفة، ويستدعي توينبي - الذي شب ليصبح أشهر مؤرخ في عصره - هذه الذكرى حيث كان يلاحظ جلال اليوم شاعرا كما لو أن الشمس كانت «تقف ثابتة وسط السماء»، وقد كتب قائلا: «هكذا كان: نحن هنا فوق قمة العالم، وقد وصلنا إلى هذه الذروة كي نبقى هناك إلى الأبد. هناك بالطبع شيء يسمى التاريخ، لكن التاريخ شيء غير سار يحدث للشعوب الأخرى، وأنا واثق من أننا نقف بارتياح خارج كل هذا».

لكن التاريخ - بالطبع - طال بريطانيا، والسؤال بالنسبة للقوى العظمى في العصر الحالي هو: هل يطال التاريخ الولايات المتحدة بالمثل؟ هل يحدث هذا الآن بالفعل؟ لا توجد تشابهات محددة، لكن الإمبراطورية البريطانية في مجدها هي أقرب أمة في العصر الحديث وصلت إلى الموقع الذي وصلت إليه الولايات المتحدة اليوم. وفي ما يختص بما هي قوة التغيير وكيف ستؤثر في الولايات المتحدة، يستحق الأمر أن نعير الانتباه عن قرب لخبرة بريطانيا، وتوجد لدينا الآن العديد من الأصداء المعاصرة، فالتدخلات العسكرية للولايات المتحدة في الصومال وأفغانستان والعراق تتشابه مع التدخلات العسكرية البريطانية منذ عدة عقود، والمأزق الاستراتيجي الرئيسي الناتج عن كون كل منهما في حقيقة الأمر لاعبا دوليا وحيدا في الساحة العالمية متشابهاً لدرجة مذهلة، لكن هناك أيضا اختلافات جوهرية بين بريطانيا آنذاك والولايات المتحدة اليوم، فعندما حاولت بريطانيا أن تحافظ على وضع القوة العظمى، كان أكبر التحديات أمامها اقتصاديا أكثر منه سياسيا، أما بالنسبة للولايات المتحدة فالوضع عكس ذلك، فمن خلال الاختيارات الاستراتيجية الصائبة والديبلوماسية الراقية نوعا ما، كانت بريطانيا قادرة على أن تحافظ على، أو حتى توسع من نفوذها لعدة عقود، ورغم ذلك لم تستطع في النهاية أن تغير من حقيقة أن موقعها كقوة - ديناميتها الاقتصادية والتكنولوجية - كان يتآكل بقوة، لقد كانت بريطانيا تنحدر بنعومة لكن على نحو لا يمكن إيقافه، أما الولايات المتحدة فهي تواجه اليوم مشكلة فريدة ومختلفة، فالاقتصاد الأمريكي (رغم أزمته الحالية) لا يزال في الأساس معافى عندما يقارن بالاقتصادات الأخرى، والمجتمع الأمريكي حيوي، لكن النظام السياسي الأمريكي هو الذي لا يعمل على نحو صحيح، وغير قادر على القيام بالإصلاحات البسيطة نسبيا التي من شأنها أن تضع البلاد على قاعدة مستقبلية شديدة الصلابة، وتبدو واشنطن غير واعية لدرجة كبيرة بالعالم الجديد الذي ينهض من حولها، كما أنها لا تبدي

(2) أرنولد توينبي Arnold J. Toynbee (1975-1889): مؤرخ بريطاني وضع مؤلفا من 12 مجلدا يحمل عنوان «دراسة التاريخ» حلل فيه أسباب صعود الحضارات وهبوطها - المترجم.



علامات ذات شأن تفصح عن قدرتها على إعادة توجيه السياسات الأمريكية نحو هذا العصر الجديد.

موت بريتانيا [3]

اليوم، من الصعب حتى أن تتصور ضخامة الإمبراطورية البريطانية، ففي أقصى توسع لها كانت تغطي حوالي ربع مساحة اليابسة وتضم ربع سكان العالم، كما كانت تغطي العالم شبكة لندن من المستعمرات والأملاك والقواعد والموانئ، وكان يحمي الإمبراطورية الأسطول الملكي Royal Navy ، أكبر قوة بحرية في التاريخ، كما كانت تربط أجزاء الإمبراطورية ببعضها 170 ألف ميل بحري من الكابلات البحرية و662 ألف ميل من الكابلات الهوائية والأرضية، وقد سهلت السفن البريطانية من تطور أول شبكة اتصالات عالمية من خلال التلغراف، كما أن السكك الحديدية والقنوات (وأهمها قناة السويس) عمقت من ترابط هذا النظام، ومن خلال كل هذا أنشأت الإمبراطورية البريطانية أول سوق عالمية حقيقية.

إن الأمريكيين يتحدثون غالبا عن جاذبية ثقافتهم وأفكارهم، لكن «القوة الناعمة» بدأت في الحقيقة مع بريطانيا، ويشير المؤرخ كلوديو فيليز إلى أنه في القرن السابع عشر حاولت كل من القوتين الإمبراطوريتين بريطانيا وإسبانيا أن تصدر أفكارها وممارساتها إلى مستعمراتها الغربية، فإسبانيا أرادت أن تسيطر حركة الإصلاح المضاد Counter- Reformation [4] على العالم الجديد، وبريطانيا أرادت أن يزدهر التعايش الديني والرأسمالية، وفي ظل نهضة بريطانيا أثبتت الأفكار البريطانية أنها أكثر عالمية، والحقيقة إن بريطانيا لأسباب عديدة كانت أنجح مصدر للثقافة في التاريخ الإنساني، وقبل «الحلم الأمريكي» كان هناك «أسلوب إنجليزي للحياة» واحد فقط، وهو الذي نال الملاحظة والإعجاب والتقليد على نطاق العالم، وبفضل الإمبراطورية البريطانية أيضا انتشرت اللغة الإنجليزية كلغة عالمية يجري الحديث بها من الكاريبي إلى كيب تاون إلى كلكتا.

لم يكن كل هذا مدركا في يونيو 1897، لكن الكثير منه كان كذلك، ولم يكن البريطانيون وحدهم هم الذين يقومون بالمقارنة بين إمبراطوريتهم والإمبراطورية الرومانية، فقد ذكر باريس لي فيغارو 'Paris Le Figaro أن روما نفسها «قد تساوت بها إن لم تكن فاقتها القوة البريطانية التي تحكم الشعوب وتدير مصالحها في كندا واستراليا والهند وفي بحر الصين ومصر وأفريقيا الوسطى والجنوبية وفي المحيط الأطلنطي والبحر المتوسط»، ووصفت صحيفة كروز زيتوينج Kreuz-Zeitung

---

(3) بريتانيا Britannia: رمز لبريطانيا على شكل امرأة جالسة تحمل حربة ذات ثلاثة رؤوس، وتضع بجوار قدميها درعا مرسوما عليه العلم البريطاني. كان هذا الشكل سابقا يصك على بعض العملات المعدنية - المترجم.

(4) الإصلاح المضاد Counter-Reformation: حركة الإصلاح الديني التي أطلقتها كنيسة روما الكاثوليكية في النصف الثاني من القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر في مواجهة «حركة الإصلاح الديني»، التي دعا إليها المذهب البروتستانتي بقيادة مارتن لوثر - المترجم.

سقطت بريطانيا كقوة عالمية بسبب الاقتصاد الرديء، ليس بسبب السياسة الرديئة

التي كانت تصدر في برلين الإمبراطورية البريطانية أنها «لا تضاهى»، وعلى الجانب الآخر من الأطلنطي عبرت «نيويورك تايمز» في قوة ووضوح ومباشرة قائلة: «نحن جزء - وجزء كبير - من بريطانيا العظمى التي يبدو أنه من المحتم بجلاء أن تهيمن على هذا الكوكب». ومع ذلك فإن وضع بريطانيا المتميز كان أكثر هشاشة مما بدا، فبعد سنتين فقط من اليوبيل الماسي دخلت بريطانيا حرب البوير Boer War، وهو الصراع الذي يحدد - عند كثير من الباحثين - اللحظة التي بدأت فيها قوة بريطانيا في الأفول، فقد كانت بريطانيا واثقة من أنها ستكسب الحرب بقليل من الخسائر، ففوق كل شيء، سبق لبريطانيا أن كسبت معركة مشابهة ضد الدراويش في السودان على الرغم من أن عددهم كان يفوق عدد البريطانيين بأكثر من الضعفين، وقد أوقع البريطانيون في معركة أم درمان [5] 48000 درويش بين قتلى ومصابين في خلال خمس ساعات لا أكثر، بينما لم يخسروا هم سوى 48 جنديا، وقد تصور الكثيرون من البريطانيين أن النصر سيكون أسهل في مواجهة البوير، ففي النهاية كان طرفا الحرب - على حد تعبير أحد أعضاء البرلمان - «الإمبراطورية البريطانية في مواجهة 30000 مزارع». وقد كان السبب المزعوم للحرب سببا أخلاقيا بدعوى الدفاع عن حقوق المتحدثين بالإنجليزية في جمهوريات البوير[6] Boer Republics، الذين كانوا يعاملون كمواطنين من الدرجة الثانية من قبل الحكام البوير، لكن هذا الأمر لم يلفت انتباه لندن إلا بعد اكتشاف الذهب في المنطقة في العام 1886، حيث كانت تلك الجمهوريات تنتج ربع إنتاج العالم من الذهب. وعلى أي الأحوال فقد شن البوير هجوما استباقيا، وبدأت الحرب في العام 1899، وسارت الأمور على نحو سيئ بالنسبة لبريطانيا منذ البداية، وقد كان لديهم رجال أكثر وأسلحة أفضل، كما ألقوا في الميدان بأفضل جنرالاتهم (بمن فيهم لورد كتشنر[7] Lord Kitchener بطل معركة أم درمان)، لكن البوير كانوا باسلين في الدفاع عن أنفسهم، يعرفون

---

(5) معركة أم درمان: حملة عسكرية قادها المهدي عبدالله الطاشي زعيم الطائفة المهدية - والذي كان يعرف أتباعه باسم الدراويش - ضد الوجود البريطاني في السودان، وقعت في الثاني من سبتمبر 1898، وقاد الجانب البريطاني فيها لورد هنري كتشنر، واتسمت بعدم التكافؤ في التسليح وخبرة القيادة الذي كان لصالح بريطانيا، وانتهت بفوز حاسم للجانب البريطاني - المترجم.

(6) جمهوريات البوير Boer Republics: دويلات مستقلة ذات حكم ذاتي أقامها في منطقة الكاب - رأس الرجاء الصالح - المستوطنون الناطقون بالهولندية بداية من العام 1795، وقد استمروا في إنشائها حتى بعد الاحتلال البريطاني للمنطقة - المترجم.

(7) لورد كتشنر (1850-1916) :Lord Kitchener: قائد عسكري ورجل دولة ودبلوماسي بريطاني، خدم في تركيا ومصر والسودان والهند، كان وزير دفاع بريطانيا أثناء الحرب العالمية الأولى، وتولى مسؤولية إعادة بناء الجيش البريطاني لمواجهة ألمانيا - المترجم.

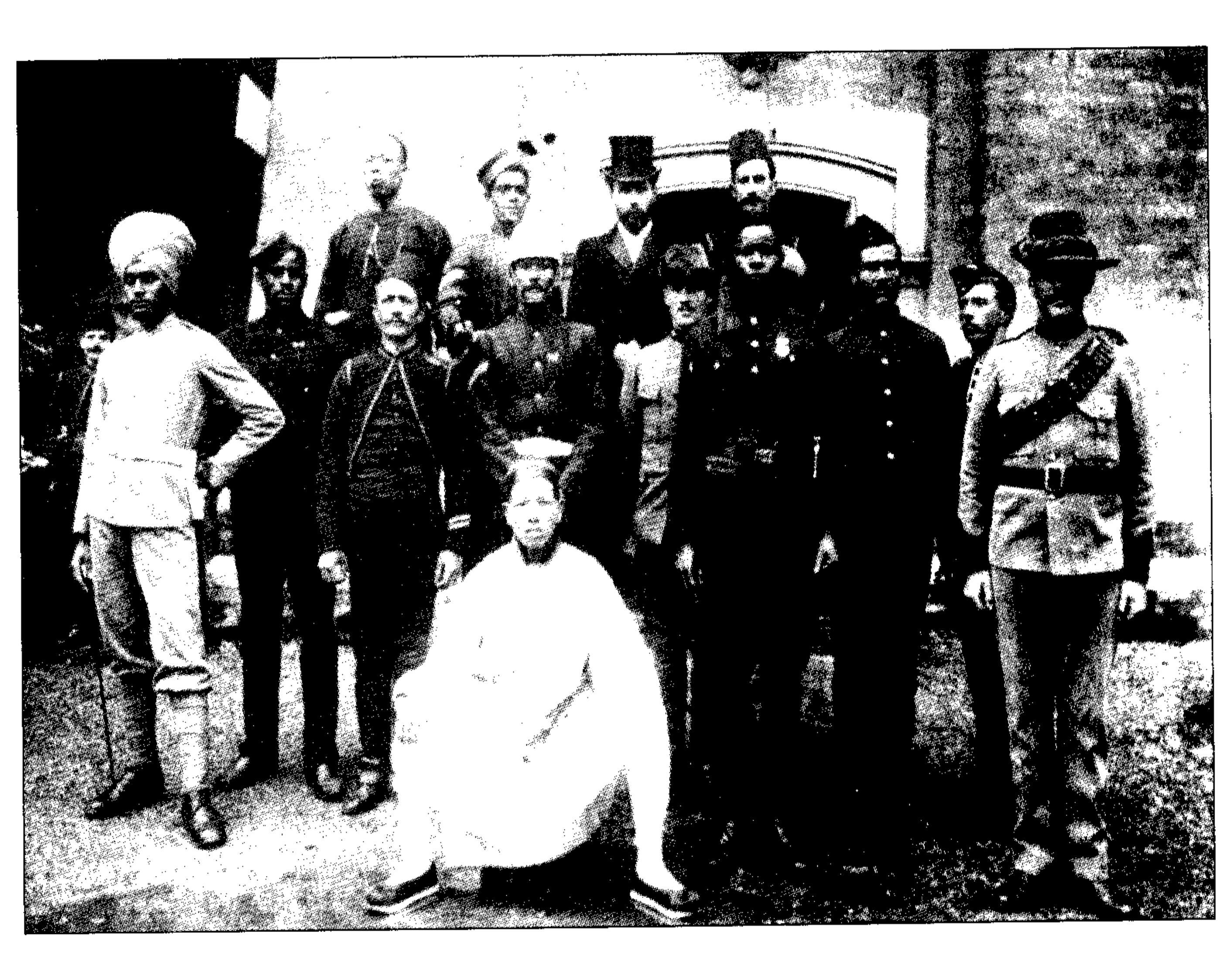
الأرض، ويتبنون تكتيكات حرب عصابات ناجحة اعتمدت على التسلل والسرعة، ولم يعن التفوق العسكري الكبير للجيش البريطاني الأمر الكثير على الأرض، كما اتبع قادته تكتيكات وحشية كإحراق القرى وتكديس المدنيين في معسكرات الاعتقال (أول معسكرات اعتقال عرفها العالم)، كما أرسلوا إلى المعركة المزيد والمزيد من القوات، وفي النهاية كان لبريطانيا 450 ألف عسكري مقابل ميليشيا تتكون من 45 ألف مقاتل. ولم يستطع البوير إيقاف تقدم الجيش البريطاني إلى الأبد، واستسلموا في العام 1902، لكن في المشهد الأعم، خسرت بريطانيا الحرب، فقد قدمت 45000 قتيل ومصاب، وأنفقت نصف مليار دولار، ونشرت جيشها إلى أقصى حد ممكن، واكتشفت عجزا وفسادا كبيرين في مجهودها الحربي، وفوق كل شيء فقد دمغتها ممارساتها الوحشية في زمن الحرب بعلامة سوداء في نظر بقية العالم، وفي الداخل خلق كل هذا - أو كشف عن - انقسام عميق حول دور بريطانيا في العالم، أما في الخارج فقد عارضت كل القوى الكبرى الأخرى - فرنسا وألمانيا والولايات المتحدة - تصرفات لندن، وقد كتب المؤرخ لورانس جيمس عن البريطانيين في العام 1902 أنهم «كانوا بلا أصدقاء».

قفزاً إلى عالم اليوم، هناك قوة عظمى أخرى ذات قوة عسكرية لا تهزم، أحرزت نصرا سهلا في أفغانستان، ثم تخوض ما تثق في أنه معركة بسيطة أخرى، هذه المرة ضد نظام صدام حسين المعزول في العراق، والنتيجة هي نصر عسكري أولي سريع تبعه نضال شاق طويل زاخر بالحماقات السياسية والعسكرية تواجهه معارضه عالمية كثيفة. إن التشابه واضح: الولايات المتحدة هي بريطانيا، وحرب العراق هي حرب البوير، وامتدادا لذلك، فإن مستقبل الولايات المتحدة يبدو أسود، والواقع، وبغض النظر عن نتيجة حرب العراق، فإن التكلفة كانت ضخمة، لقد أصاب الإنهاك والتشوش الولايات المتحدة، وتعرض جيشها للضغوط، وتشوهت صورتها، وانتهزت دول مارقة مثل إيران وفنزويلا، وقوى كبرى مثل الصين وروسيا فرصة غفلة واشنطن وسوء مصيرها، إن النمط الشائع لسقوط الإمبراطوريات يلعب لعبته مرة أخرى، والتاريخ يعيد نفسه.

الوداع الطويل

لكن أياً كانت التشابهات الظاهرة، فإن الظروف في الحقيقة ليست هي الظروف نفسها، فبريطانيا كانت قوة عظمى غريبة، وقد كتب المؤرخون مئات الكتب ليشرحوا كيف كان يمكن للندن أن تتبنى سياسات خارجية معينة لكي تغير من مصيرها، البعض يقول: لو أنها فقط تجنبت حرب البوير، وآخرون يقولون: لو أنها فقط ظلت خارج أفريقيا، والمؤرخ نيل فيرغسون Niall Ferguson [8] يفترض على نحو مثير للجدل

(8) نيل فيرغسون (1964) Nail Ferguson: مؤرخ إسكتلندي متخصص في التاريخ المالي والاقتصادي وتاريخ الإمبراطوريات، أستاذ في جامعة هارفارد، معروف بمساهماته خارج الحقل الأكاديمي، صدر له في 2008 كتاب بعنوان The Ascent of money: A Financial History of the World - المترجم.



من كل الرتب: جنود من الإمبراطورية البريطانية في إنجلترا في اليوبيل الماسي، 1897

أنه لو ظلت بريطانيا خارج الحرب العالمية الأولى (ولعله لم تكن تقع حرب عالمية من دون مشاركة بريطانيا)، فربما استطاعت أن تدبر أمر احتفاظها بوضعها كقوة عظمى، وهناك بعض الحقيقة في هذا الأسلوب لتقدير الأمور (الحرب العالمية الأولى لم تفلس بريطانيا)، لكن لكي نضع الأمور في سياقها التاريخي على نحو صحيح، فإن الأمر يستحق النظر للتاريخ من زاوية أخرى، فإمبراطورية بريطانيا الضخمة كانت نتاجا لظروف فريدة، والعجب ليس من أنها سقطت، لكنه من أن سيطرتها استمرت لكل هذا الزمن، ويمكن لفهم الكيفية التي فرضت بها بريطانيا سيطرتها - التي لحقها الضعف عبر الزمن - أن يساعد على إضاءة طريق الولايات المتحدة إلى المستقبل.

لقد كانت بريطانيا دولة غنية لقرون (وكانت قوة كبرى معظم هذا الوقت)، لكنها كانت قوة اقتصادية عظمى لأكثر من جيل، وغالبا ما يرتكب المراقبون خطأ توقيت ذروة قوتها بالأحداث الإمبراطورية الكبرى مثل اليوبيل الماسي، فالحقيقة إنه مع العام 1897 كانت أفضل سنوات بريطانيا قد ولت بالفعل، فقد كانت ذروة قوتها الحقيقية قبل ذلك بجيل، من 1845 إلى 1870، ففي ذلك الوقت كانت تنتج أكثر من 30 في المائة من الناتج المحلي الإجمالي للعالم، وكان استهلاكها من الطاقة يماثل خمسة أضعاف استهلاك الولايات المتحدة و155 ضعف استهلاك روسيا، وكانت تتحكم في خمس تجارة العالم وخمسي

تجارة العالم الصناعية، وقد أنجز كل هذا بما لا يزيد على اثنين في المائة من سكان العالم. وفي أواخر سبعينيات القرن التاسع عشر تساوت الولايات المتحدة مع بريطانيا بمعظم المعايير الاقتصادية، وفي أوائل ثمانينيات القرن ذاته فاقتها بالفعل، كما ستفعل ألمانيا بعد خمسة عشر عاما، ومع الحرب العالمية الأولى كان حجم الاقتصاد الأمريكي يساوي ضعفي حجم الاقتصاد البريطاني، كما كان حجم اقتصاد فرنسا وروسيا مجتمعتين يفوقه بالنسبة نفسها، وفي العام 1860 كانت بريطانيا تنتج 53 في المائة من الحديد في العالم (الذي كان آنذاك علامة على القوة الاقتصادية الفائقة)، بينما في العام 1914 كانت تنتج أقل من 10 في المائة منه.

كانت بريطانيا بالطبع لا تزال هي عاصمة العالم سياسيا في زمن الحرب العالمية الأولى، وكانت كلمتها مسموعة، وإلى حد كبير لا يمكن تحديها في معظم أنحاء العالم، فقد استحوذت بريطانيا على إمبراطوريتها في فترة سابقة على بداية عصر القومية، لذلك كان هناك قليل من العقبات أمام فرض السيطرة والحفاظ عليها في أماكن بعيدة، وكانت قوتها البحرية لا تنافس، كما استمرت مسيطرة في مجال البنوك والنقل البحري والتأمين والاستثمار، وكانت لندن لا تزال مركز التمويل العالمي، ولم يزل الجنيه الإنجليزي هو العملة الاحتياطية للعالم، وحتى في العام 1914 استثمرت بريطانيا في الخارج رأسمالا يساوي ضعفي ما استثمرته أقرب منافسيها، وهي فرنسا، وخمسة أضعاف ما استثمرته الولايات المتحدة، وقد وضعت عوائد هذه الاستثمارات وغيرها من «التجارة غير المنظورة» قناعا على سقوط بريطانيا بشكل أو بآخر. فالحقيقة إن الاقتصاد البريطاني كان ينزلق، حيث انخفضت معدلات النمو إلى أقل من 2 في المائة في العقدين السابقين على الحرب العالمية الأولى، وفي الوقت نفسه كانت ألمانيا والولايات المتحدة تنموان بحوالي 5 في المائة، وحيث قادت بريطانيا انطلاقة الثورة الصناعية الأولى، فقد كانت أقل كفاءة في التحرك نحو الثانية، حيث كانت السلع التي تنتجها تمثل الماضي أكثر مما تمثل المستقبل، ففي العام 1907 على سبيل المثال أنتجت من الدراجات أربعة أضعاف ما أنتجته الولايات المتحدة، لكن الولايات المتحدة أنتجت من السيارات اثني عشر ضعف ما أنتجته بريطانيا، وقد تجادل الباحثون حول أسباب سقوط بريطانيا بعد وقت قصير من بداية هذا السقوط، حيث ركز البعض على الجغرافيا السياسية، بينما ركز آخرون على العوامل الاقتصادية مثل انخفاض الاستثمار في المصانع والآلات، وعلاقات العمل السيئة. وظلت الرأسمالية البريطانية ذات طراز قديم وغير مرن، كما ظلت نظمها الصناعية قائمة على المشروعات الصغيرة ذات المستوى العائلي المعتمدة على الحرفيين المهرة وليس على المصانع الضخمة التي بدأت في الظهور في ألمانيا والولايات المتحدة، كما كانت هناك أيضا علامات على وجود مشكلات

ثقافية أوسع مدى، فبريطانيا الأكثر ثراء كانت تفقد التركيز على التعليم التطبيقي، والمجتمع البريطاني ظل محتفظا بالعقلية الإقطاعية التي منحته إياها أرستقراطية ملاك الأراضي، لكن ربما لا يكون أي من هذه الإخفاقات ذا تأثير حقيقي كبير، وقد شرح المؤرخ بولكنيدي[9] Paul Kennedy الظروف غير المعتادة التي أسفرت بشكل كبير الهيمنة البريطانية في القرن التاسع عشر، فعندما نأخذ في الاعتبار حصيلة بريطانيا من القوة - الجغرافيا والسكان والموارد - يكون من المعقول أن تحقق بريطانيا 4 في المائة من الناتج المحلي الإجمالي للعالم، لكن نصيبها ارتفع لحوالي عشرة أضعاف هذا الرقم، وإذ خف تأثير هذه الظروف - حيث لحقت دول غربية أخرى بمجال الصناعة، وتوحدت ألمانيا، وحلت الولايات المتحدة مشكلة الانقسام بين الشمال والجنوب - ارتبط مصير بريطانيا بالهبوط، وقد رأى رجل الدولة البريطاني ليو أمري Leo Amery ذلك بوضوح في العام 1905 حيث قال: «كيف تستطيع هذه الجزر الصغيرة أن تحتفظ بسيطرتها على المدى الطويل في مواجهة مثل هذه الإمبراطوريات الكبرى الغنية القادمة سريعا مثل الولايات المتحدة وألمانيا؟»، ثم تساءل: «كيف نستطيع بأربعين مليونا من البشر أن نتنافس مع دول يبلغ حجمها ضعفي حجمنا تقريبا؟»، إنه السؤال نفسه الذي يسأله الأمريكيون الآن في مواجهة صعود الصين.

دبرت بريطانيا احتفاظها بموقعها كقوة قائدة للعالم لعقود بعد فقدها سيادتها الاقتصادية بفضل الجمع بين استراتيجية واضحة وديبلوماسية جيدة، ففي بداية الأمر، وعندما رأت لندن تحول توازن القوة، اتخذت قرارا حرجا أدى إلى استمرار نفوذها لعدة عقود، فقد اختارت أن تتأقلم مع صعود الولايات المتحدة بدلا من أن تنافسها، وفي العقود التالية للعام 1880 استسلمت لندن لواشنطن الصاعدة الواثقة بنفسها في قضية بعد قضية، ولم يكن من السهل على بريطانيا أن تتنازل عن سيطرتها لمستعمرتها السابقة، البلد الذي اشتبكت معه في حرب لمدة سنتين، وتعاطفت مع الانفصاليين في الحرب الأهلية التي دارت فيه في السنوات الأخيرة، لكنها كانت ضربة معلم، فلو أن بريطانيا حاولت أن تقاوم صعود الولايات المتحدة فوق التزاماتها الأخرى لكان هذا استنزافا لها، أما بالنسبة لكل أخطاء لندن على مدى نصف القرن التالي، فإن استراتيجيتها تجاه واشنطن - تلك الاستراتيجية، التي اتبعتها كل الحكومات البريطانية منذ تسعينيات القرن التاسع عشر - كانت تعني أن بريطانيا تستطيع أن تركز انتباهها على الجبهات الحرجة الأخرى، فقد ظلت - على سبيل المثال - سيدة البحار، تسيطر على خطوطها وممراتها البحرية وعلى المفاتيح الخمسة،

(9) بول كنيدي (1945 -) Paul Kennedy: مؤرخ بريطاني متخصص في العلاقات الدولية والاستراتيجية العسكرية، له مؤلفات مرموقة في تاريخ السياسة الخارجية البريطانية وصراع القوى الكبرى - المترجم.

التي كان يقال عنها إنها تمثل مفاتيح العالم: سنغافورة ورأس الرجاء الصالح والإسكندرية وجبل طارق ودوفر، وقد حافظت بريطانيا على السيطرة على إمبراطوريتها واحتفظت بنفوذها في أنحاء العالم بمعارضة قليلة نسبيا على مدى عقود عديدة (في ظل الاستقرار الذي أعقب الحرب العالمية الأولى احتلت بريطانيا 8.1 ملايين ميل مربع من الأرض يقطنها 13 مليونا من البشر)، لكن الفجوة بين دورها السياسي وقدرتها الاقتصادية كانت لا تزال تتسع، ومع حلول القرن العشرين كانت الإمبراطورية تمثل استنزافا ضخما للخزانة البريطانية، ولم يكن هذا الوقت الذي يسمح بالعادات المكلفة، فقد كلفت الحرب العالمية الأولى أكثر من 40 مليار دولار، وبريطانيا، التي كانت يوما أكبر دائن في العالم، وصلت ديونها إلى 136 في المائة من ناتجها المحلي بعد الحرب، ومع منتصف عشرينيات القرن العشرين كانت مدفوعات فوائد الديون فقط تمتص نصف ميزانية الحكومة، وفي الوقت نفسه، وفي العام 1936، كان الإنفاق العسكري الألماني يصل إلى ثلاثة أمثال نظيره البريطاني. وفي السنة نفسها التي احتلت فيها إيطاليا أثيوبيا حشد موسوليني أيضا 50000 عسكري في ليبيا، أي عشرة أضعاف القوة التي كانت تحرس قناة السويس. لقد كانت هذه الظروف - مجتمعة مع ذكرى الحرب القريبة التي قتل فيها أكثر من 700 ألف شاب بريطاني - هي التي أدت بالحكومات البريطانية في ثلاثينيات القرن العشرين إلى تفضيل الاسترضاء والتهدئة والأماني الطيبة بدلا من المواجهة مع القوى الفاشية.

كانت الحرب العالمية الثانية هي آخر مسمار في نعش القوة الاقتصادية البريطانية، ففي العام 1945 كان الناتج المحلي الإجمالي للولايات المتحدة عشرة أضعاف نظيره البريطاني، وحتى ذلك الوقت كان لبريطانيا نفوذ جزئي، على الأقل بسبب الطاقة والطموح شبه الخارق لونستون تشرشل، وإذا أخذنا في الاعتبار أن الولايات المتحدة كانت تتحمل كل التكاليف الاقتصادية للحلفاء، وأن روسيا هي التي تحملت معظم ضحايا الحرب، فقد كان من الممتاز بالنسبة لبريطانيا أن تظل واحدة من القوى الرئيسة الثلاث التي تقرر مصير عالم ما بعد الحرب (صور كل من فرانكلين روزفلت وجوزيف ستالين وونستون تشرشل في مؤتمر يالتا في فبراير 1945 مضللة إلى حد ما: لم يكن هناك «ثلاثة كبار» في يالتا، كان هناك «اثنان كبار» زائد مستثمر سياسي عبقري كان قادرا على أن يبقي على نفسه وعلى بلده داخل الملعب).

حتى لو كان لهذا الأمر تكلفته، ففي مقابل الديون المستحقة لها على لندن أخذت الولايات المتحدة عشرات من القواعد البريطانية في كندا والكاريبي والمحيطين الهندي والهادي، وقد قال أحد أعضاء البرلمان: «الإمبراطورية البريطانية سلمت للمرتهن الأمريكي أملنا الوحيد»، أما الاقتصادي جون مينارد كينز John

القوة العسكرية للولايات المتحدة ليست هي السبب في قوتها لكنها نتيجة لها

[10] Maynard Keynes فقد وصف اتفاقية [11] Lend-Lease Act بأنها محاولة لـ «قلع عين الإمبراطورية البريطانية»، بينما رأى مراقبون أقل عاطفية أن التحول لم يكن حتميا، أما توينبي الذي أصبح آنذاك مؤرخا معروفا، فقد واسى البريطانيين بملاحظة أن يد الولايات المتحدة «ستكون أخف كثيرا من يد روسيا أو ألمانيا أو اليابان، وأعتقد أن تلك هي البدائل».

الإمبراطورية الاستثمارية

لقد تحللت بريطانيا كقوة عالمية، ليس بسبب السياسة الرديئة لكن بسبب الاقتصاد الرديء، والحقيقة إن المهارة الفائقة التي استخدمت بها لندن يدها الضعيفة على الرغم من سبعين عاما من التردي الاقتصادي تقدم دروسا مهمة للولايات المتحدة، أولها أنه من الضروري أن نلاحظ أن السمة الرئيسة في السقوط البريطاني - التدهور الاقتصادي الذي لا يمكن إيقافه - لا تنطبق على الولايات المتحدة اليوم، فقد استمر الوضع الاقتصادي بغير منافس لعقود قليلة، بينما استمر هذا الوضع بالنسبة للولايات المتحدة لأكثر من 120 عاما، فقد كان الاقتصاد الأمريكي أكبر اقتصاد في العالم منذ منتصف ثمانينيات القرن التاسع عشر، ولا يزال كذلك اليوم، والحقيقة إن الولايات المتحدة قد اختصت بنصيب ثابت من الناتج المحلي الإجمالي للعالم منذ ذلك الحين، ومع استثناء الفترة القصيرة من أواخر الأربعينيات حتى آخر الخمسينيات، حيث تحطمت باقي الدول الصناعية وارتفع نصيب الولايات المتحدة إلى 50 في المائة، فإن الولايات المتحدة استقرت تقريبا عند ربع الناتج المحلي للعالم لأكثر من قرن (32 في المائة لعام 1913، 26 في المائة لعام 1960، 22 في المائة لعام 1980، 27 في المائة لعام 2000، 26 في المائة لعام 2007)، ومن المتوقع أن ينخفض، لكن ليس لدرجة مؤثرة، في العقدين المقبلين، ومعظم التقديرات ترجح أنه في العام 2025 سوف يظل حجم اقتصاد الولايات المتحدة مماثلا لضعفي حجم اقتصاد الصين بمقياس الناتج المحلي الإجمالي بالأسعار الثابتة، وهذا الفرق بين الولايات المتحدة وبريطانيا ينعكس على عبء الميزانيات العسكرية،

---

(10) جون ماينارد كينز (1946 - 1883) John Maynard Keynes: اقتصادي بريطاني كان له تأثير كبير على كل من النظرية الاقتصادية والسياسية الحديثة وعلى السياسات المالية للكثير من الحكومات، وقد دعا إلى سياسات حكومية تدخلية تستطيع الحكومات من خلالها أن تستخدم الأدوات المالية والنقدية للحد من الآثار السلبية للركود والكساد والتضخم، وهو أحد مؤسسي علم الاقتصاد الكلي، كما أنه يعد من ضمن أكثر الاقتصاديين تأثيرا في القرن العشرين - المترجم.

(11) Lend-Lease Act: برنامج قدمت بموجبه الولايات المتحدة لبريطانيا والاتحاد السوفييتي والصين وفرنسا وبقية دول الحلفاء في الحرب العالمية الثانية إمدادات عسكرية ضخمة بين 1941 و1945، وحصلت في مقابله على القواعد العسكرية البريطانية في نيوفاوند لاند وبرمودا و جزر الهند الغربية البريطانية، وبلغت قيمة ما قدمته الولايات المتحدة 50 مليار دولار (تعادل 700 مليار دولار بأسعار 2007) - المترجم.

فبريطانيا حكمت البحار لكنها لم تحكم الأرض، وقد كان الجيش البريطاني من الصغر لدرجة أن أوتو فون بسمارك Otto Von Bismarck [(12)] سخر قائلا إنه لو حاول البريطانيون أن يغزوا ألمانيا فسوف يرسل قوات الشرطة المحلية لتقبض عليهم ببساطة ، وفي الوقت نفسه كانت سيادة بريطانيا على البحار - كانت تمتلك حمولة أكبر من حمولة الأسطولين التاليين لها معا - مكلفة لدرجة لا يمكن تحملها، بينما القوات المسلحة الأمريكية - على العكس - مهيمنة على كل المستويات، البحر والأرض والجو والفضاء، وتنفق أكثر من الدول الأربعة عشر التالية مجتمعة، وبما يصل تقريبا إلى 50 في المائة من الإنفاق العسكري للعالم، كما تنفق الولايات المتحدة أيضا على البحوث والتطوير أكثر مما تنفق بقية دول العالم مجتمعة، والأهم من كل ذلك أنها تفعل كل هذا دون تكلفة فوق الاحتمال، فالإنفاق العسكري الأمريكي كنسبة من الناتج المحلي الإجمالي يصل الآن إلى 1.4 في المائة - وهو يقل عما كان عليه أثناء الحرب الباردة (في عهد دوايت إيزنهاور وصل إلى 10 في المائة)، وحيث إن الناتج المحلي الإجمالي للولايات المتحدة نما كثيرا وكثيرا، فإن الإنفاق الذي كان يمكن أن يكون فوق الاحتمال أصبح محتملا، وسواء كانت حرب العراق محاولة مأساوية أو نبيلة، فإنها في كل الأحوال لن تفلس الولايات المتحدة. إن تسعيرة حربي العراق وأفغانستان معا - 125 مليار دولار سنويا - تمثل أقل من 1 في المائة من الناتج المحلي الإجمالي الأمريكي، بينما حرب فيتنام - على سبيل المقارنة - كلفت ما يعادل 6.1 في المائة من الناتج المحلي الإجمالي الأمريكي في العام 1970، هناك فرق كبير (النسب المئوية المذكورة لا تتضمن التكاليف من الدرجة الثانية أو الثالثة حتى تسمح بتقديم مقارنات عادلة حتى لو رغب أحد في أن يجادل حول الأرقام المطلقة).

إن قدرة الولايات المتحدة العسكرية ليست سببا في قوتها، لكنها نتيجة لها، فوقود قوة الولايات المتحدة هو قاعدتها الاقتصادية والتكنولوجية التي لا تزال شديدة القوة. إن الولايات المتحدة تواجه اليوم تحديات أكبر وأعمق وأعرض مما واجهته طوال تاريخها على الإطلاق، وهي ستفقد من دون شك بعضا من نصيبها في الناتج المحلي الإجمالي للعالم، لكن هذا سيبدو لا شيء مقارنة بانزلاق بريطانيا في القرن العشرين، عندما فقدت القيادة في الابتكار والطاقة والاستثمار، فالولايات المتحدة ستظل فعالة وذات اقتصاد حيوي وفي طليعة الثورات القادمة في العلوم والتكنولوجيا والصناعة. وفي محاولة لفهم الكيفية التي ستحقق بها الولايات المتحدة نجاحها في العالم الجديد فإن

---

(12) بسمارك (1815 - 1898) Otto Van Bismarck: زعيم ألماني من بروسيا، قاد ألمانيا نحو الوحدة في القرن التاسع عشر. تولى منصب مستشار ألمانيا في الفترة من 1890 - 1871، شهدت ألمانيا في عهده تقدما اقتصاديا كبيرا، وكان له نفوذ كبير على المستويين الوطني والدولي أثناء وبعد وجوده في السلطة. اشتهر باسم «المستشار الحديدي» - المترجم.

أول شيء يمكن عمله هو ببساطة أن ننظر حولنا لنرى أن المستقبل موجود الآن بالفعل، فعلى مدى العشرين عاما السابقة كانت العولمة تكتسب اتساعا وعمقا، فأصبح مزيد من الدول يصنع السلع، ووصلت تكنولوجيا الاتصالات إلى مرتبة ساحة للمنافسة، وأصبح رأس المال حرا في التحرك عبر العالم، وقد استفادت الولايات المتحدة استفادة كبرى من هذه الاتجاهات، حيث تلقى اقتصادها مئات المليارات من الدولارات بغرض الاستثمار، كما دخلت شركاتها دولا وصناعات جديدة بنجاح كبير، وعلى الرغم من عقدين من ارتفاع سعر الدولار، فقد سيطرت الصادرات الأمريكية على الساحة، حيث صنف المنتدى الاقتصادي العالمي World Economic Forum [(13)] الاقتصاد الأمريكي حاليا كأكثر اقتصادات العالم تنافسية، فمتوسط نمو الناتج المحلي الإجمالي - القاعدة الأساسية - تراوح حول 3 في المائة في الولايات المتحدة على مدى خمسة وعشرين عاما، وهو أعلى بدرجة كبيرة من نظيره في أوروبا واليابان. ونمو الإنتاجية - أكسير الاقتصادات الحديثة - كان 5.2 في المائة في السنوات العشر الأخيرة، أي أعلى بنقطة كاملة من المتوسط الأوروبي، وهذا المسار المتفوق للنمو يمكن أن يزداد تفوقا، وربما سيكون النمو الأمريكي أكثر مطابقة بالنسبة لدولة صناعية متقدمة على مدى السنوات القليلة المقبلة، لكن النقطة الرئيسة. وهي أن الولايات المتحدة لديها اقتصاد عالي الديناميكية إلى أقصى درجة على الرغم من حجمه الضخم. تبقى قائمة، وإذا أخذنا في الاعتبار صناعات المستقبل، سنجد أنه من المتوقع أن يؤدي النانوتكنولوجي Nanotechnology (العلم التطبيقي المعني بالتعامل مع السيطرة على المادة على مستوى الذرة أو الجزيء) إلى اكتشافات جوهرية على مدى الأعوام الخمسين المقبلة، والولايات المتحدة تهيمن على هذا المجال، فقد كرست مراكز لهذا العلم Nanocenters أكثر من مجموع ما خصصته ثلاث دول أخرى مجتمعة (ألمانيا وبريطانيا والصين)، كما أصدرت براءات اختراع في هذا المجال أكثر من بقية دول العالم مجتمعة، ملقية الضوء على قدرتها غير العادية على تحويل نظرية عامة إلى منتجات ملموسة، كما تهيمن الولايات المتحدة أيضا على التكنولوجيا الحيوية Biotechnology (وهي مجال عريض يهتم باستخدام الأنظمة البيولوجية - الحيوية - في ابتكار منتجات طبية وزراعية وصناعية)، وقد اقترب العائد من التكنولوجيا الحيوية من خمسين مليار دولار في العام 2005، وهو ما يعادل خمسة أضعاف نظيره في أوروبا ويمثل 76 في المائة من عائد التكنولوجيا الحيوية في العالم. وتغادر الصناعة التقليدية بالطبع الولايات المتحدة متحولة إلى العالم النامي ومحولة اقتصاد الولايات المتحدة إلى

(13) المنتدى الاقتصادي العالمي World Economic Forum: مؤسسة دولية لا تهدف إلى الربح، مقرها جنيف في سويسرا، أشهر أنشطتها هو الاجتماع السنوي الذي تعقده في دافوس بسويسرا ويلتقي فيه كبار الزعماء السياسيين ورجال الأعمال والمثقفين والصحفيين من أنحاء العالم، ليناقشوا فيه القضايا الملحة التي تواجه العالم بما في ذلك شؤون الصحة والبيئة، كما يعقد المنتدى مؤتمرات سنوية إقليمية أخرى في دول متعددة عبر العالم - المترجم.

اقتصاد خدمات، وهذا يفزع الكثيرين من الأمريكيين الذين يتساءلون ماذا ستصنع بلادهم حيث أصبح كل شيء «صنع في الصين»، لكن الصناعات الآسيوية يجب أن ينظر إليها في سياق اقتصاد عالمي، وقد أمضى جيمس فالوز James Fallows المحرر في مجلة «The Atlantic Monthly» عاما في الصين يلاحظ تقدمها الصناعي الساحق عن قرب، وقدم تفسيرا مقنعا يوضح أن هجرة الصناعات أدت إلى تقوية تنافسية الولايات المتحدة، وكان ما توصل إليه هو أن الأموال الحقيقية توجد في تصميم المنتجات وتوزيعها - اللذين تسيطر عليهما الولايات المتحدة - أكثر مما توجد في تصنيع المنتجات نفسها، والمثال الواضح على هذا هو مشغل اسطوانات الفيديو [14] i Pod، الذي يصنع غالبا خارج الولايات المتحدة، لكن معظم القيمة المضافة تذهب إلى شركة [15] «Apple» في كاليفورنيا.

كثير من الخبراء والباحثين وحتى السياسيين قلقون من إحصاءات معينة تنذر بالسوء بالنسبة للولايات المتحدة، فمعدل الادخار الأمريكي يساوي الصفر، وعجز حساب العمليات الجارية وعجز الميزان التجاري وعجز الموازنة كلها مرتفع، ومتوسط الدخل ثابت، والمستحقات والالتزامات غير مستدامة، هذه هي كل الاهتمامات التي يتعين مواجهتها، لكن من المهم أن نضع في أذهاننا أن الكثير من الإحصاءات التي يجري الاستشهاد بها تقدم فقط معايير تقريبية أو متقادمة حول اقتصاد ما، والكثير منها وضع في أواخر القرن التاسع عشر لدراسة اقتصادات صناعية ذات تعامل محدود مع العالم الخارجي، وليس اقتصادات حديثة في سوق عالمي مترابط كالذي نشهده اليوم، فعلى مدى العقدين السابقين - على سبيل المثال - شهدت الولايات المتحدة معدلات بطالة أقل كثيرا مما اعتقد الاقتصاديون أنها ممكنة من دون ارتفاع معدلات التضخم، أو خذ في الاعتبار أن العجز الحالي في حساب العمليات الجارية للولايات المتحدة - الذي وصل في العام 2007 إلى 800 مليار دولار، أي 7 في المائة من الناتج المحلي الإجمالي - كان يفترض أنه سيظل ثابتا عند 4 في المائة من الناتج المحلي الإجمالي. إن عجز حساب العمليات الجارية وصل إلى مستوى خطر، لكن ضخامته يمكن تفسيرها أن هناك فائضا في الادخار العالمي، وأن الولايات المتحدة لا تزال، وبشكل غير عادي، مكانا مستقرا وجذابا للاستثمار، كما أن الانخفاض في المدخرات الفردية تعوضه بدرجة كبيرة الزيادة في مدخرات الشركات، وذلك كما لاحظ ريتشارد كوبر، الاقتصادي في جامعة هارفارد، وستبدو صورة الاستثمار الأمريكي وردية أيضا لو أخذنا في الاعتبار الإنفاق على التعليم

---

(14) I Pod: علامة تجارية مملوكة لشركة «Apple» لنوع من أجهزة تشغيل الاسطوانات المدمجة ذات الحجم الصغير يمكن وضعها في الجيب - المترجم.

(15) Apple: شركة أمريكية متعددة الجنسيات تنتج أجهزة ومكونات وبرامج الكمبيوتر والأجهزة الإلكترونية - المترجم.

والبحوث والتطوير إلى جانب الإنفاق على رأس المال المادي والإسكان.

إن لدى الولايات المتحدة مشكلات خطرة، فوفقا لكل الحسابات تهدد الرعاية الصحية بإحداث انفجار في الميزانية الفيدرالية، والتحول من الفائض إلى العجز بين العامين 2000 و2008 يحمل تنبؤات خطيرة، وعدم المساواة المتنامي (كنتيجة لاقتصاد المعرفة والتكنولوجيا والعولمة) أصبح سمة لصيقة بالعصر الجديد، وربما كان أكثر ما يثير القلق أن الأمريكيين يقترضون 80 في المائة من فائض مدخرات العالم ويستخدمونها في الاستهلاك، إنهم يبيعون أصولهم للأجانب لكي يشتروا قدحين من القهوة كل يوم، لكن مثل هذه المشكلات يجب أن ينظر إليها في سياق أن الاقتصاد ككل يظل قويا وحيويا.

أمة التعليم

سيقول من هم أكثر قلقا: «نعم نعم، لكنك تنظر إلى أحوال اليوم بنظرة خاطفة، إن ميزات الولايات المتحدة تتآكل سريعا حيث تفقد البلاد قاعدتها العلمية والتكنولوجية، وتعاني من تحلل ثقافي مطرد»، ثم يكملون قائلين إن البلد الذي ارتبط ذات يوم بالقيم الطهارة (البيوريتانية)[16] Puritan حول المسرات المؤجلة أصبح بلدا منغمسا في الملذات الدائمة، إن الأمريكيين يفقدون اعتناءهم بالأساسيات - الرياضيات والتصنيع والعمل الشاق والادخار - ويصبحون مجتمعا متخصصا في الاستهلاك والترفيه، وليس هناك ما يعزز هذا القلق أكثر من تلك الإحصاءات، التي تكشف عن تدهور الهندسة في الولايات المتحدة، ففي العام 2005 أصدرت الأكاديمية الوطنية للعلوم (National Academy of Sciences) تقريرا يحذر من أن الولايات المتحدة يمكن أن تفقد في القريب العاجل موقعها المتميز كقائد علمي للعالم، ويقول التقرير إن الصين خرجت 600 ألف مهندس في العام 2004، والهند خرجت 350 ألف مهندس، بينما خرجت الولايات المتحدة 70 ألف مهندس، وهي الأرقام التي تكررت في عدد لا يحصى من المقالات والكتب والأحاديث، والحقيقة إن هذه الأرقام تبدو باعثة على اليأس، فماذا يتبقى للولايات المتحدة من أمل إذا كان هناك مقابل كل مهندس أمريكي مؤهل أكثر من دستة من المهندسين الصينيين والهنود؟ وبالنسبة لتكلفة الكيميائي أو المهندس الواحد في الولايات المتحدة فقد أشار التقرير إلى أن أي شركة تستطيع أن توظف مقابل الأمريكي خمسة كيميائيين صينيين أو أحد عشر مهندسا هنديا، ومع ذلك فإن هذه الأرقام مضللة، فقد قام أكاديميون وصحفيون كثيرون باستطلاع الأمر، وأدركوا بسرعة أن الأرقام الإجمالية الآسيوية تضمنت خريجين تدربوا على مهام فنية

(16) البيوريتانية Puritan: حركة إصلاح ديني قامت في إنجلترا في القرنين السادس عشر والسابع عشر تدعو إلى الطهارة أو النقاء purity في الالتزام بالعبادات والتعاليم الدينية واحترام القيم الدينية المسيحية - المترجم.

بسيطة من خلال برامج استغرقت سنتين أو ثلاث سنوات، وقد حددت مؤسسة العلوم الوطنية (The National Science Foundation)، التي تتابع الإحصاءات في الولايات المتحدة والدول الأخرى الرقم الخاص بالصين بحوالي 200 ألف مهندس يتخرج كل عام، أما رون هيرا من معهد روشستر للتكنولوجيا (Rochester institute of technology) فقد قدر عدد المهندسين الهنود الذين يتخرجون سنويا بحوالي 125 ألف مهندس، وهذا يعني أن الولايات المتحدة بالفعل تخرج مهندسين أكثر من الهند أو الصين بالقياس لعدد السكان، كما أن الأرقام لا تتطرق لمسألة النوعية، فإن أفضل المهندسين وألمعهم في الصين والهند - كهؤلاء الذين، على سبيل المثال، يتفوقون في الأكاديميات الهندسية الشهيرة في الهند، التي تحمل اسم المعاهد الهندية للتكنولوجيا Indian Institute of Technology (حيث لا يجتاز اختبارات القبول أكثر من 5000 متقدم من بين 300 ألف متقدم). سيبلون بلاء حسنا في أي نظام تعليمي، لكن بمجرد أن تذهب إلى ما دون مثل هذه المؤسسات النخبوية - التي يتخرج منها أقل من عشرة آلاف طالب سنويا - فإن نوعية التعليم العالي في كل من الصين والهند لا تزال فقيرة لأقصى الحدود، ولهذا السبب يغادر طلاب كثيرون جدا هذين البلدين ليتلقوا التعليم بالخارج، وقد أعد معهد ماكنزي الدولي (Mckinsey Global Institute) في العام 2005 دراسة حول «سوق العمل العالمي الناشئ»، ووجد أن 28 دولة منخفضة الأجور لديها حوالي 33 مليون مهني شاب في خدمتها، لكن الدراسة لاحظت إن نسبة صغيرة جدا من المرشحين للوظائف يستطيعون أن ينجحوا في الحصول على عمل في شركة أجنبية»، وذلك إلى حد كبير بسبب التعليم غير الجيد. والحقيقة إن التعليم العالي هو أفضل صناعات الولايات المتحدة، حيث لا توجد هذه الميزة الكاسحة للولايات المتحدة في مجال آخر، ويشير تقرير صادر عن مركز الإصلاح الأوروبي (Center of European Reform)[17] المتمركز في لندن إلى أن الولايات المتحدة تستثمر 6.2 في المائة من ناتجها المحلي الإجمالي في التعليم العالي، مقارنة بـ 2.1 في المائة في أوروبا، و1.1 في المائة في اليابان، واعتمادا على ماهية الدراسة التي يمكن أن ترجع إليها، فإن الولايات المتحدة التي يقطنها 5 في المائة من سكان العالم لديها ما بين خمس وست جامعات من بين أفضل عشر جامعات في العالم، وما بين 48 في المائة و68 في المائة من بين أفضل خمسين جامعة، والموقف بالنسبة للعلوم مذهل عمليا، فالجامعات الهندية تمنح سنويا ما بين 35 و50 درجة

ميزات الولايات المتحدة اليوم هي في جزء كبير منها نتاج للهجرة

(17) مركز الإصلاح الأوروبي Center of European Reform (CER): تجمع فكري مقره لندن يضم مفكرين من بريطانيا ودول القارة، معني بمناقشة التحديات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تواجه القارة وتشجيع الأفكار الجديدة التي من شأنها إحداث إصلاحات في الاتحاد الأوروبي. وهو يسعى للتعاون مع التجمعات المماثلة في أوروبا وأمركا الشمالية والعالم - المترجم.

دكتوراه الفلسفة في الكمبيوتر، بينما يصل الرقم في الولايات المتحدة إلى ألف درجة، وهناك قائمة تبين أين تعلم أفضل ألف عالم كمبيوتر في العالم، حيث احتلت المراكز العشرة الأولى معاهد أمريكية. وتظل الولايات المتحدة أيضا، وبدرجة كبيرة، أكثر المواقع جذبا للطلاب، حيث تستقطب 30 في المائة من العدد الإجمالي للطلاب الأجانب على مستوى العالم، كما أن التعاون المشترك فيها بين قطاع الأعمال والمؤسسات التعليمية لا يضاهيه أي مكان آخر في العالم، وكل هذه الميزات لن يكون من السهل محوها لأن بنية الجامعات الأوروبية واليابانية - غالبا بيروقراطية تدار بواسطة الدولة - ليس من المتوقع أن تتغير، وعلى الرغم من أن الهند والصين تفتحان جامعات جديدة فليس من السهل أن تنشئ جامعات على مستوى عالمي وكفاءة عالية خلال عقود قليلة.

قليلون من الناس يعتقدون أن المدارس الابتدائية والثانوية في الولايات المتحدة لا تستحق إعجابا مماثلا، وأن نظام المدرسة - كما يسود الاعتقاد - في أزمة، مع الأداء السيئ للطلاب عاما بعد عام خاصة في العلوم والرياضيات بالنسبة للمستويات العالمية، لكن الإحصاءات هنا - على الرغم من أنها ليست مخطئة - تكشف عن شيء مختلف قليلا، فالمشكلة الحقيقية ليست في الامتياز لكنها في زاوية الاقتراب من الموضوع، فمعيار الاتجاهات في دراسة الرياضيات والعلوم في العالم The Trends in International Mathematics and Science Study (TIMSS) [18]، وهو المعيار الذي يقارن البرامج التعليمية عبر العالم، يضع الولايات المتحدة في وسط الحزمة بالضبط، وقد علقت وسائل الإعلام على هذه الأنباء، بولع، بتحذير متوقع منها: «قنبلة العصر الاقتصادية: المراهقون الأمريكيون بين الأسوأ في الرياضيات»، هكذا أعلنت صحيفة «The Wall Street Journal»، لكن النتائج الإجمالية تخفي التنوعات الإقليمية والعرقية والاقتصادية الاجتماعية، فالأطفال الفقراء وأبناء الأقليات يحرزون درجات أقل بدرجة ملحوظة من المتوسط الأمريكي العام، بينما لاحظت إحدى الدراسات «الطلاب في المناطق التعليمية في الضواحي الأمريكية الغنية يحصلون على درجات مساوية تقريبا للطلاب في سنغافورة التي تحتل المرتبة الأولى في تصنيف (TIMSS) لتعليم الرياضيات». إن الفرق في متوسط التحصيل في العلوم بين المناطق التعليمية الفقيرة وتلك الغنية في الولايات المتحدة هو على سبيل المثال بين أربعة وخمسة أمثال الفرق في المتوسط العام بين الولايات المتحدة وسنغافورة، وبتعبير آخر فإن المشكلة بالنسبة للتعليم في الولايات المتحدة هي مشكلة عدم مساواة، وسيتحول هذا مع الوقت إلى مشكلة تنافسية، لأنه لو لم تستطع الولايات المتحدة أن تعلم

(18) The Trends in International Mathematics and science Study (TIMSS): معيار دولي لقياس معلومات تلاميذ المرحلتين الابتدائية والإعدادية في الرياضيات والعلوم حول العالم، وقد طبق للمرة الأولى في العام 1995، ثم كل أربع سنوات بعد ذلك، وشمل 48 دولة في العام 2007 - المترجم.



مهاجرون أمريكيون شباب بعد أداء قسم المواطنة الأمريكية، لوس أنجلوس، كاليفورنيا، 2007

وتدرب ثلث القوى العاملة لكي تنافس في اقتصاد المعرفة، فإن هذا سيضعف الاقتصاد، لكنها تعرف كيف تفعل، فقد يكون النظام في الولايات المتحدة كسولا، عندما يتعلق الأمر بالإتقان والتذكر، لكنه جيد جدا في تطوير قدرات العقل الخلاقة، ومن المؤكد أن هذه الصفة تساهم بقدر كبير في تفسير كون الولايات المتحدة تقدم الكثيرين جدا من المستثمرين والمخترعين والمستعدين للمخاطرة. ويشرح ثارمان شانموجارإتنام - الذي كان وزيرا للتعليم في سنغافورة حتى عهد قريب - الفرق بين نظام التعليم في بلاده ونظيره في الولايات المتحدة قائلا: «كل منا لديه نخب، لكن نخبتكم موهوبة بينما نحن لدينا نخبة امتحانات، فنحن نعرف كيف ندرب الطلاب على اجتياز الامتحانات، وأنتم تعرفون كيف توظفون مواهب الطلاب إلى أقصى درجة، إن كلا الأمرين مهم، لكن هناك بعض جوانب الذكاء التي لا نستطيع نحن أن نختبرها جيدا، مثل الإبداع والفضول وحس المغامرة والطموح، وفي معظم هذه الجوانب توجد لدى أمريكا ثقافة تعليم تتحدى الحكمة التقليدية، حتى لو كان معنى ذلك تحدي السلطات»، وهذا أحد الأسباب التي جعلت المسؤولين في سنغافورة يزورون مدارس الولايات المتحدة أخيرا لكي يعرفوا كيف ينشئون نظاما يرعى ويكافئ الابتكار والتفكير السريع وحل المشكلات، وقد صرح أحد الزوار من سنغافورة لصحيفة «The Washington Post» قائلا: «بمجرد المتابعة

تستطيعون أن تجعلوا الطلاب مندمجين، بدلا من تلقينهم المعلومات طوال اليوم»، وبينما الولايات المتحدة معجبة بمهارات اجتياز الامتحان الآسيوية، تأتي الحكومات الآسيوية للولايات المتحدة لتجد طريقة لتعليم طلابها كيف يفكرون.

المنطقة الرمادية

قد تبدو ميزات الولايات المتحدة شديدة الوضوح عندما تقارن بالأحوال في آسيا التي لا تزال قارة معظم دولها نامية، أما مع أوروبا فإن الهامش أضيق كثيرا مما يعتقد كثير من الأوروبيين، فالمنطقة الأوروبية نمت بسرعة شديدة جدا، وبسرعة الولايات المتحدة نفسها منذ العام 2000 بالقياس لعدد السكان، فهي تجذب نصف الاستثمار الأجنبي على مستوى العالم، وتتباهى بإنتاجية عمل عالية، كما حققت 30 مليار دولار كفائض تجاري في الأشهر العشرة الأولى من العام 2007. وفي تصنيف المنتدى الاقتصادي العالمي للتنافسية على مستوى العالم تحتل دول أوروبية سبعة مراكز من المراكز العشرة الأولى. إن لدى أوروبا مشاكلها - البطالة المرتفعة وعدم مرونة سوق العمل - لكنها أيضا لديها ميزاتها بما فيها نظم الرعاية الصحية والمعاشات الأكثر كفاءة والمستقرة ماليا. وخلاصة القول إن أوروبا تمثل أكبر تحد للولايات المتحدة على المدى القصير في مجال الاقتصاد، لكن أوروبا لديها عيب خطير، أو لمزيد من الدقة، إن الولايات المتحدة حيوية من الناحية السكانية. ويقدر نيكولاس إيبرستادت الباحث في المعهد الأمريكي للأعمال أن تعداد الولايات المتحدة سوف يزيد بمقدار 65 مليون نسمة مع حلول العام 2030، بينما سوف يظل تعداد أوروبا ثابتا غالبا، ويلاحظ إيبرستادت أن «أوروبا سوف يكون لديها في ذلك التاريخ مواطنون فوق سن 65 أكثر من ضعفي عدد الأطفال دون الخامسة عشرة، مع توقعات كبيرة جدا بزيادة عدد المسنين مستقبلا (أطفال أقل الآن تعني عاملين أقل في المستقبل)، أما في الولايات المتحدة فالحالة عكسية، فسوف يظل عدد الأطفال أكبر من عدد المسنين، ويقدر قسم السكان بالأمم المتحدة (The United Nations Population Division) أن نسبة المواطنين في سن العمل إلى كبار السن في أوروبا الغربية سوف تنخفض من 3.8 إلى واحد حاليا إلى 2.4 في العام 2030، أما في الولايات المتحدة فسوف تنخفض النسبة من 5.4 إلى 3.15 في الفترة نفسها، والطريق الوحيد لتجنب هذا التدهور السكاني بالنسبة لأوروبا هو أن تقبل مزيدا من المهاجرين، فالأوروبيون الأصليون توقفوا عن التزايد الطبيعي في عدد السكان منذ العام 2007، وهكذا، فإن مجرد الاحتفاظ بعدد السكان الحالي يتطلب هجرة متواضعة، لكن نمو عدد السكان يتطلب أكثر كثيرا، لكن المجتمعات الأوروبية لا تبدو قادرة على قبول واستيعاب مهاجرين من ثقافات غريبة وغير مألوفة، خصوصا من المناطق الريفية والمتخلفة في العالم الإسلامي، والتساؤل هنا عمن هو المخطئ - المهاجرون أم المجتمع - غير

ذي أهمية، فالواقع هو أن أوروبا تتجه لقبول مهاجرين أقل في وقت يعتمد فيه مستقبلها الاقتصادي على قدرتها على قبول المزيد والمزيد، أما الولايات المتحدة - على الجانب الآخر - فهي تخلِّق أول أمة عالمية، مشكلة من كل الألوان والأجناس والعقائد تعيش وتعمل معا في تناغم جديد بالاعتبار، ولتنظر إلى الانتخابات الرئاسية (...) التي (ضّمت) المنافسة فيها رجلا أسود وسيدة ومورموني Mormon [19] وهيسبانيك Hispanic [20] وأمريكياً إيطالياً. ومن المدهش أن العديد من الدول الآسيوية - باستثناء الهند - تعيش موقفا سكانيا مشابها للموقف الأوروبي أو حتى أسوأ منه، فمعدلات الخصوبة في الصين واليابان وكوريا الجنوبية وتايوان لديها معدل إحلال أقل من 1.2 مولود لكل امرأة، وتشير التقديرات إلى أن دول شرق آسيا الرئيسة سوف تواجه انخفاضا كبيرا في عدد السكان في سن العمل على مدى نصف القرن المقبل، وقد وصل عدد السكان في سن العمل في اليابان إلى منتهاه، وبحلول العام 2010 ستكون لدى اليابان قوى عاملة أقل بثلاثة ملايين فرد عما كان لديها في العام 2005، ومن المتوقع أيضا أن تصل القوة العاملة في كل من الصين وكوريا الجنوبية إلى ذروتها خلال العقد المقبل. ويتوقع غولدمان ساتشز Goldman Sachs أن متوسط الأعمار في الصين سوف يرتفع من 33 في العام 2005 إلى 45 في العام 2050، وهي شيخوخة ملحوظة في سكان البلاد، كما أن دول آسيا لديها مشكلة كبيرة مع المهاجرين مثلها مثل الدول الأوروبية، أما اليابان فهي تواجه نقصا متوقعا كبيرا في القوة العاملة حيث إنها لا تستطيع أن تقبل مهاجرين كافين ولا أن تسمح للنساء بالمشاركة الكاملة في قوة العمل.

إن آثار ارتفاع أعمار السكان جديرة بالأخذ في الاعتبار، فأولا هناك عبء المعاشات، حيث يدعم عدد أقل من العاملين عددا أكبر من كبار السن، وثانيا - كما يوضح الاقتصادي بنيامين جونس - فإن معظم المخترعين المبتكرين - والأغلبية القصوى من الحاصلين على جوائز نوبل - قاموا بمعظم أعمالهم المهمة في ما بين سن الثلاثين والأربعة والأربعين، وبعبارة أخرى، فإن سكانا أقل في سن العمل يعني ميزات تكنولوجية وعلمية وإدارية أقل، وثالثا حيث يرتفع سن العاملين يتحولون من مدخرين صافين إلى مستهلكين صافين مع ما لذلك من آثار إضافية خطيرة على معدلات الادخار القومي، وبالنسبة للبلاد الصناعية المتقدمة، فإن التركيبة السكانية السيئة مرض قاتل. إن الميزات المتوقعة للولايات المتحدة اليوم هي ناتج للهجرة، ومن دون الهجرة لكان الناتج المحلي الإجمالي للولايات المتحدة على مدى ربع القرن الماضي كمثيله في الدول الأوروبية،

---

(19) مورموني Mormon: من أتباع طائفة «المورمون»، وهي طائفة دينية مسيحية صغيرة موجودة في الولايات المتحدة - المترجم.

(20) Hispanic: مصطلح يشير إلى ثقافات وشعوب الدول التي كانت تحتلها أسبانيا وتركت فيها تراثها الثقافي واللغوي. وهي تشمل - فيما تشمل - المكسيك ودول أمريكا الجنوبية والوسطى، والمصطلح يشير في الولايات المتحدة إلى الأمريكيين المنحدرين من هذه البلاد - المترجم.

فالأمريكيون البيض المولودون في الولايات المتحدة يتسمون بمعدلات خصوبة منخفضة كالأوروبيين، لكن نسبة الطلاب الأجانب والمهاجرين في الولايات المتحدة تصل إلى 50 في المائة من الباحثين في العلوم في البلاد، وقد تلقوا في العام 2006 نحو 40 في المائة من درجات الدكتوراه في العلوم والهندسة و65 في المائة من درجات الدكتوراه في علم الكمبيوتر، وفي العام 2010 سيحصل الطلاب الأجانب على أكثر من 50 في المائة من درجات دكتوراه الفلسفة الممنوحة في جميع المجالات في الولايات المتحدة، وفي العلوم سيقترب الرقم من 75 في المائة. إن نصف منشآت وادي السيليكون Silicon Valley كان بكل منها مؤسس إما من المهاجرين أو من الأمريكيين من الجيل الأول، وباختصار، فإن التوسع الكبير الجديد المتوقع في الإنتاجية في الولايات المتحدة وتميزها في النانوتكنولوجي والتكنولوجيا الحيوية وقدرتها على أن تخترع المستقبل، كلها تستند إلى سياساتها بشأن الهجرة، ولو أن الولايات المتحدة استطاعت أن تبقي على من تعلمهم داخل البلاد، فإن الابتكار سيكون هنا، أما إذا رجعوا إلى بلادهم، فإن الابتكار سيرحل معهم.

تعطي الهجرة الولايات المتحدة أيضا ميزة نادرة بالنسبة لدولة غنية، حيث وجدت البلاد طريقة للحفاظ على نفسها متجددة بفضل موجات الناس المتلهفين على إقامة حياة جديدة في عالم جديد، وهناك بعض الأمريكيين دائمي القلق من مثل هؤلاء المهاجرين، سواء كانوا من إيرلندا أو إيطاليا أو من الصين أو المكسيك، لكن هؤلاء المهاجرين استمروا في أن يكونوا العمود الفقري للطبقة العاملة الأمريكية، ودخل أبناؤهم أو أحفادهم في تيار الحياة الأمريكية، وقد كانت الولايات المتحدة قادرة على توظيف هذه الطاقة وعلى إدارة التنوع واستيعاب القادمين الجدد والتقدم للأمام اقتصاديا، وأخيرا هذا هو ما وضع الولايات المتحدة في موضع بعيد عن خبرة بريطانيا وكل قوى الماضي الاقتصادية الكبيرة الأخرى، التي كبرت حتى أصبحت بدينة وكسولة وتراجعت للوراء عندما واجهت صعود أمم أكثر هزالا وجوعا.

التعلم من العالم

في العام 2005 تلقت مدينة نيويورك صيحة تحذير، حيث عقدت في هذا العام أربع وعشرون من بين خمس وعشرين من أكبر صفقات الاكتتاب العام الرئيسة في دول أخرى غير الولايات المتحدة، وقد كان هذا مذهلا، فقد كانت أسواق المال الأمريكية لزمن طويل هي أكبر أسواق المال في العالم، فهي التي مولت التطوير الجوهري في الصناعة في ثمانينيات القرن العشرين والثورة التكنولوجية في التسعينيات، وهي الآن تمول التقدم الجاري في العلوم الحيوية Bioscience. إن حيوية هذه الأسواق هي التي احتفظت لقطاع الأعمال الأمريكي بديناميته، ولو أن الولايات المتحدة فقدت هذه الميزة المتفردة، ستكون هذه أخبارا سيئة جدا.

وقد ركزت كثير من المناقشات حول هذه المشكلة على القوانين الأمريكية، وخاصة قوانين ما بعد [21] Enron مثل قانون [22] Sarbanes-Oxley والتهديد الدائم بالمساءلة القانونية الذي يحلق فوق مجال الأعمال في الولايات المتحدة، هذه العقبات موجودة، لكنها في الحقيقة ليست مسؤولة عن تحويل الأعمال إلى خارج الولايات المتحدة، فالولايات المتحدة تعقد صفقات الأعمال كالمعتاد، ولكن هناك آخرين يدخلون إلى الحلبة. إن ما يحدث هنا في الحقيقة - كما في مناطق أخرى - بسيط: صعود الآخرين، إن إجمالي مبلغ الأسهم والسندات والإيداعات والقروض والأدوات المالية الأخرى - وبعبارة أخرى رصيدها المالي - ما زال يفوق نظيره في أي منطقة أخرى، لكن مناطق أخرى ترى رصيدها المالي ينمو أسرع بكثير. وهذا صحيح بشكل خاص بالنسبة للدول الصاعدة في آسيا، لكن حتى المنطقة الأوروبية تسبق الولايات المتحدة، فالعوائد المصرفية والتجارية الأوروبية (98 مليار دولار في 2005) تكاد تقترب من العوائد الأمريكية، وفي ما يتعلق بالمشتقات المالية الجديدة القائمة على الأدوات المالية غير المرئية مثل المدفوعات على الأسهم وسعر الفائدة، والمتزايدة الأهمية بالنسبة لصناديق الحماية والبنوك والتأمين، فإن لندن هي المهيمنة بالفعل، لكن كل هذا يمثل جزءا من اتجاه أكثر اتساعا، فالدول والشركات الآن لديها خيارات لم تكن متاحة لها في أي وقت سابق، وفي ما يتعلق بالعوامل السابقة وغيرها، ليس أداء الولايات المتحدة أسوأ من المعتاد، فهي تؤدي وظائفها كما كانت تؤديها دائما، ربما مفترضة بعفوية أنها تقف على قمة الدول الصناعية المتقدمة، فالمشرعون الأمريكيون نادرا ما يفكرون في بقية العالم عندما يسنون القوانين والقواعد والسياسات، والمسؤولون الأمريكيون نادرا ما يراجعون المعايير العالمية، وفوق كل شيء فقد كانت الولايات المتحدة لزمن طويل هي المعيار العالمي، وعندما تختار أن تفعل شيئا مختلفا كان من المهم بما فيه الكفاية أن يتجاوب باقي العالم مع وضعها الاستثنائي، فالولايات المتحدة هي الدولة الوحيدة في العالم - بالإضافة إلى ليبيريا وميانمار - التي لا تتبع النظام المتري، وبالإضافة للصومال هي الدولة الوحيدة التي لم توقع على اتفاقية حقوق الطفل Convention of the Rights of the Child [23]، وفي مجال الأعمال لم تكن

(21) Enron: شركة أمريكية عملاقة أفلست في العام 2001، كانت تعمل في مجال الطاقة وصناعة الورق والاتصالات، وكانت توصف بأنها «أكثر الشركات الأمريكية ابتكارا». وصلت عائداتها في العام 2000 إلى 101 مليار دولار. تبين في العام 2001 أن تقاريرها المالية والمحاسبية كانت تقوم على التزوير المنظم والمخطط، وقد اشتهرت هذه الواقعة باسم «فضيحة إنرون» - المترجم.

(22) Sarbanes-Oxley Act: قانون أمريكي صدر إثر فضيحة إنرون يقضي بتشديد الرقابة على الشركات الأمريكية والقواعد المنظمة لإدارتها وتقاريرها المالية والمحاسبية والجزاءات القانونية المترتبة على مخالفة هذه القواعد - المترجم.

(23) اتفاقية حقوق الطفل United Nations Convention of Rights of the Child: اتفاقية تبنتها الأمم المتحدة وبدأ تطبيقها في العام 1990، وهي تهدف إلى حماية الحقوق المدنية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية للأطفال. في العام 2008 بلغ عدد الدول الموقعة عليها 189 دولة - المترجم.

الولايات المتحدة تحتاج إلى تقييم، فقد كانت وحدها هي التي تعلم العالم كيف يكون رأسماليا، أما الآن فالجميع يلعبون لعبة الولايات المتحدة، وهم يلعبونها لكي يكسبوها، فعلى مدى معظم السنوات الثلاثين الماضية كانت الولايات المتحدة تطبق أقل سعر ضريبة على الشركات بين الدول الصناعية الرئيسة، أما اليوم فهي تحتل المرتبة الثانية، بينما ألمانيا على سبيل المثال، التي ظلت طويلا موالية لنظامها الضريبي ذي السعر العالي، فقد خفضت سعر الضريبة في تجاوب مع إجراءات الدول الواقعة إلى شرقها مثل النمسا وسلوفاكيا، وهذا النوع من المنافسة بين الدول الصناعية واسع الانتشار اليوم، وهو ليس سباقا نحو القاع - فدول اسكندنافيا لديها ضرائب مرتفعة وخدمات جيدة ونمو قوي - لكنه سعي إلى النمو، وقد اعتادت قوانين الولايات المتحدة أن تكون أكثر مرونة وصديقة للسوق أكثر من جميع الآخرين، لكن هذا لم يعد حقيقة واقعة، فقد تم إصلاح النظام المالي البريطاني في العام 2001، حيث تم إحلال نظام موحد محل خليط مشوش غير متسق، وهذا أحد الأسباب في أن قطاع لندن المالي يتفوق الآن على نيويورك وفقا لبعض المعايير، والحكومة البريطانية في مجملها تعمل بشراسة لكي تجعل من لندن محورا عالميا، والمشرعون من وارسو إلى سنغافورة إلى بومباي يتحركون كل يوم ليجعلوا نظمهم أكثر جاذبية للمستثمرين ورجال الصناعة، بينما واشنطن - على النقيض من ذلك - تشغل وقتها وطاقتها في التفكير في وسائل جباية الضريبة من نيويورك، حتى تستطيع أن ترسل المتحصلات إلى بقية أرجاء البلاد.

إن البقاء على القمة لزمن طويل له سلبياته، فالسوق الأمريكي كان من الضخامة لدرجة أن الأمريكيين افترضوا أن بقية العالم يجب أن تتحمل المتاعب من أجل أن تفهمه وتفهمهم، وهم لم يضطروا لأن يمارسوا الأخذ والعطاء بتعلم لغات أو ثقافات أجنبية، أو أن يتعلموا من الأسواق الأجنبية، وهذا ما يمكن أن يصيب الولايات المتحدة اليوم بسلبيات تنافسية، خذ مثلا انتشار اللغة الإنجليزية كلغة سائدة في العالم، فقد استمتع الأمريكيون بهذه العملية لأنها سهلت عليهم كثيرا السفر وممارسة الأعمال في الخارج، لكنها أيضا أعطت مواطني الدول الأخرى فهما ومدخلا لسوقين وثقافتين، فهم يستطيعون التحدث بالإنجليزية، لكن أيضا بالصينية أو الهندية أو البرتغالية، وهم يستطيعون أن يقتحموا السوق الأمريكي، لكن بالإضافة إلى السوق المحلي الصيني أو الهندي أو البرازيلي، بينما الأمريكيون على العكس لم يحاولوا أبدا أن ينموا قدرتهم على التحرك إلى داخل عوالم الشعوب الأخرى، فقد اعتادت الولايات المتحدة على أن تكون الاقتصاد القائد والمجتمع القائد، ولم تلاحظ أن بقية العالم الصناعي - وجزءا غير قليل من العالم غير الصناعي أيضا - لديها خدمة تليفون محمول أفضل مما لدى الولايات

المتحدة، وأن الاتصال عبر الكمبيوتر أسرع وأرخص عبر بقية العالم الصناعي، من كندا إلى فرنسا إلى اليابان، وأن الولايات المتحدة تحتل اليوم المرتبة السادسة عشرة في العالم من حيث متوسط نصيب الفرد من الاتصالات الإلكترونية، وقد أخبر الأمريكيون باستمرار من قبل السياسيين في بلادهم أن الشيء الوحيد الذي يجب أن يتعلموه من نظم الرعاية الصحية لدى الدول الأخرى هو أن يكونوا ممتنين لنظامهم هم، والحقيقة إن الأمريكيين ينظرون حولهم ويلاحظون اختيارات وبدائل، لكنهم لا يحوزون مثلها.

إن التعلم من الآخرين لم يعد شأنا أخلاقيا أو سياسيا، لكنه يصير بشكل متزايد متعلقا بالتنافسية، ولننظر إلى صناعة السيارات، فعلى مدى أكثر من قرن بعد العام 1894 كانت معظم السيارات المصنعة في أمريكا الشمالية تصنع في ميتشغان، ومنذ العام 2004 حلت أونتاريو في كندا محل ميتشغان، والسبب بسيط: الرعاية الصحية، ففي الولايات المتحدة يضطر مصنعو السيارات لدفع 5600 دولار كتكاليف صحية وتأمينية لكل عامل، ولو أنهم نقلوا المصنع إلى كندا التي لديها نظام حكومي للرعاية الصحية، تصبح التكلفة بالنسبة لهم حوالي 800 دولار، وهذا ليس بالضرورة على سبيل الدعاية لنظام الرعاية الصحية الكندي، لكنه يوضح أن تكلفة نظام الرعاية الصحية ارتفع للدرجة التي عندها يصبح توظيف عمال أمريكيين سلبية تنافسية خطيرة، فالوظائف لا تذهب إلى دول منخفضة الأجور، لكن إلى الأماكن التي يمكن أن يوجد فيها عمال جيدو التدريب والتعليم، إنها المزايا الجذابة وليس الأجور المنخفضة هي التي يبحث عنها أرباب الأعمال. وقد كان لدى العمال الأمريكيين على مدى عقود - وسواء في شركات السيارات أو مصانع الصلب أو البنوك - ميزة ضخمة عن كل العمال الآخرين، حيث كان الدخول إلى عالم رأس المال الأمريكي مقصورا عليهم، وقد كانوا يستخدمون هذه الميزة في الحصول على التكنولوجيا والتدريب اللذين لم يكن يحصل عليهما أحد سواهم، ولهذا كانوا ينتجون منتجات لا يستطيع أن ينتجها أحد سواهم، وبأسعار تنافسية، وهذه الميزة أيضا رحلت، فالعالم يسبح في رأس المال، وكان على العمال الأمريكيين فجأة أن يسألوا أنفسهم: ماذا نستطيع أن نفعل أفضل من الآخرين؟ إنه مأزق ليس فقط للعمال، لكن أيضا للشركات، فعندما كانت الشركات الأمريكية تذهب للخارج كانت تجلب معها رأس المال والمعرفة، لكنهم عندما يذهبون للخارج اليوم يكتشفون أن الناس هناك لديهم المال والمعرفة، والحقيقة إنه لم يعد هناك بعد عالم ثالث، إذن ماذا تجلب الشركات الأمريكية للبرازيل أو الهند؟وما الميزة التنافسية للولايات المتحدة؟ هذا سؤال لم يفكر رجال الأعمال الأمريكيون في أنه سيكون عليهم الإجابة عنه، ولعل الإجابة تكمن في شيء ما لاحظه الاقتصادي مارتين وولف، فقد اعتاد الاقتصاديون

أن يناقشوا مفهومين رئيسين: رأس المال والعمل، لكن هذه الأشياء أصبحت اليوم سلعا، متاحة على نطاق واسع للجميع، بينما ما يميز الاقتصاد اليوم هو الأفكار والطاقة، ويستطيع أي بلد أن يزدهر إذا كان مصدرا للأفكار أو للطاقة بالنسبة للعالم.

سياسة اللافعل

كانت الولايات المتحدة - وتستطيع أن تظل - أهم مصدر في العالم للأفكار الجديدة كبيرها وصغيرها، التقني منها والإبداعي، الاقتصادي والسياسي (ولو أنها مبدعة حقيقة، فسوف تستطيع أن تولد أفكارا جديدة لإنتاج أنواع جديدة من الطاقة)، لكن لكي تفعل ذلك فعليها أن تقوم بتغييرات مؤثرة، فالولايات المتحدة لديها تاريخ من القلق من أن تفقد ميزاتها، ويمثل شعورها الحالي بالقلق الموجة الرابعة على الأقل لمثل هذه الحالة منذ الحرب العالمية الثانية، وقد جاءت الموجة الأولى في أواخر خمسينيات القرن العشرين كنتيجة لإطلاق الاتحاد السوفييتي لقمره الصناعي سبوتنيك Sputnik، وكانت الثانية في أوائل السبعينيات عندما جاء انخفاض أسعار البترول وانخفاض النمو ليقنعا الأمريكيين أن أوروبا الغربية والمملكة العربية السعودية قد أصبحتا قوتي المستقبل، ووصلت الموجة الثالثة في أواسط الثمانينيات عندما اعتقد معظم الخبراء أن اليابان ستصبح القوة العظمى المهيمنة تكنولوجياً واقتصادياً في المستقبل، وكان من أثار القلق في كل من هذه الحالات هو تقديرات النخبة المثقفة، لكن لم يحدث أي من السيناريوهات التي أثارت القلق، والسبب هو أن نظام الولايات المتحدة أثبت أنه مرن وغني بالموارد وقابل للتكيف وقادر على تصحيح أخطائه وتغيير توجهاته، وانتهى التركيز على التدهور الاقتصادي بمنع وقوعه، والمشكلة اليوم هي أن النظام السياسي الأمريكي يبدو كمن فقد قدرته على معالجة أمراضه، والمشكلات الاقتصادية للولايات المتحدة اليوم حقيقية، لكنها بوجه عام ليست نتاجا لعدم كفاءة متأصلة في الاقتصاد الأمريكي، كما أنها ليست انعكاسا لتفسخ حضاري، بل هي عواقب لسياسات حكومية محددة، فهناك سياسات مختلفة يمكنها بسرعة وبسهولة نسبية أن تضع الولايات المتحدة على قاعدة أكثر ثباتا بكثير. وهناك مجموعة من الإصلاحات الملائمة التي يمكن البدء فيها من الغد كي تحد من الإسراف في النفقات والإعانات، وتزيد من المدخرات، وتؤدي إلى التوسع في التدريب في مجالات العلوم والتكنولوجيا، وتؤمن المعاشات، وتحقق كفاءة كبيرة في استخدام الطاقة. وليس هناك اختلاف كبير بين خبراء السياسات حول معظم هذه القضايا، كما أنه ليس هناك من السياسات المقترحة ما يتطلب تضحيات تقارن بمعاناة أيام الحرب، لكنها فقط تعديلات متواضعة على الترتيبات الموجودة حاليا، لكنها تبدو غير ممكنة بسبب السياسة، فالنظام السياسي الأمريكي قد فقد القدرة على تقبل بعض الألم الآن

من أجل جني مكاسب كبيرة فيما بعد، أما الولايات المتحدة - حيث تدخل القرن الواحد والعشرين - فهي ليست أساسا ذات اقتصاد ضعيف أو مجتمع متفسخ، لكنها قد نمَّت سياسة غير فعالة لدرجة كبيرة، أصبحت تشكل نظاما سياسيا متقادما ومتصلبا بشدة (عمره الآن حوالي 225 عاما) قبض عليه المال والمصالح الخاصة ووسائل إعلام غوغائية ومجموعات أيديولوجية عدوانية، وكانت النتيجة هي مجادلات عدوانية لا تنتهي حول خلافات سياسية مسرحية تافهة مع القليل جدا من الجدية أو التوافق أو الفعل. إن وطن القدرة على الفعل أصبح الآن مثقلا بعملية لا فعل سياسية صممت من أجل معركة دفاعية وليس من أجل حل المشكلات، وهو نظام معارض بشدة لأن يشجع سياسات حزبية جريئة، وضد دعوات تستحق الاهتمام من أجل التعاون بين الحزبين، وقد ود بعض علماء السياسة طويلا لو أن الأحزاب السياسية الأمريكية كانت أكثر شبها بالأحزاب الأوروبية، أي نقية أيديولوجيا وشديدة الانضباط، لكن النظم البرلمانية الأوروبية تعمل جيدا في ظل وجود أحزاب مناصرة، يقوم فيها الجناح التنفيذي دائما بضبط عمل الجناح التشريعي، وهكذا يستطيع الحزب الممسك بالسلطة أن ينفذ برنامجه بسهولة، أما النظام الأمريكي فهو على عكس ذلك يقوم على مشاركة السلطة وتداخل الوظائف وتنازع السلطات، لكن التقدم يتطلب تحالفات سياسية عريضة بين الحزبين الرئيسيين والسياسيين الذين سيعارضون الجانبين، وهذا هو السبب في أن جيمس ماديسون James Madison فقد الثقة في الأحزاب السياسية جامعا إياها مع كل أنواع الأقليات ومعتبراً أنها تشكل خطرا مميتا على الجمهورية الأمريكية الفتية.

الجميع الآن يلعبون لعبة الولايات المتحدة وهم يلعبونها ليكسبوها

إن التقدم في حل أي مشكلة - الرعاية الصحية أو الأمان الاجتماعي أو الإصلاح الضريبي - يتطلب توافقا من كلا الجانبين، كما يتطلب النظر إلى مدى أبعد، لكن هذا أصبح خطرا من الناحية السياسية، فهؤلاء الذين دعوا إلى حلول عقلانية وتشريعات توافقية وجدوا أنفسهم يهمشون من قبل قيادات حزبهم وفاقدين التمويل من جماعات المصالح الخاصة ومحل هجوم دائم من حزبهم في التلفزيون والإذاعة، بينما النظام يقدم حوافز أكبر لمن يقف بصلابة ويعود ليخبر فريقه أنه رفض أن ينحني أمام العدو، وهذا عظيم بالنسبة لجمع الأموال، لكنه مخرب بالنسبة للحكم.

صعود الآخرين

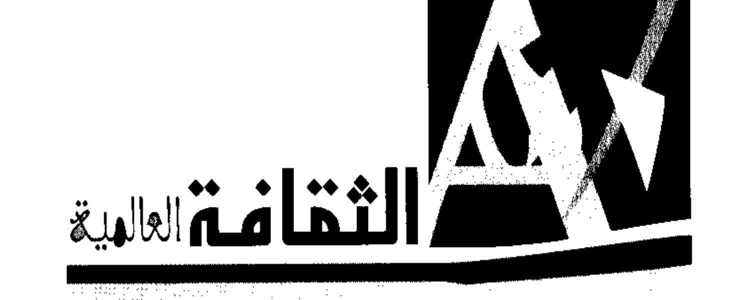
إن الاختبار الحقيقي للولايات المتحدة هو عكس الاختبار الذي واجه بريطانيا في العام 1900، فقد شحبت قوة بريطانيا الاقتصادية حتى وهي قادرة على الاحتفاظ بنفوذ سياسي ضخم حول العالم، بينما الاقتصاد والمجتمع الأمريكيان قادران -

على العكس - على التفاعل مع الضغوط الاقتصادية والمنافسة التي تواجههما، وهما يستطيعان أن يتكيفا ويتأقلما ويتواصلا. إن ما يواجه الولايات المتحدة هو اختبار سياسي، وهو لا يقع تماما على عاتق الولايات المتحدة ككل، لكن على عاتق واشنطن على وجه الخصوص، فهل تستطيع واشنطن أن تتكيف وتتأقلم مع عالم صعد فيه الآخرون؟ وهل تستطيع أن تستجيب للتحولات في المتطلبات الاقتصادية والقوى السياسية؟ لقد كانت الولايات المتحدة في عالم لا ينافسها فيه أحد على الإطلاق لمدة عقدين، لقد كان عالما من تصميم الولايات المتحدة - بشكل عام - منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، لكنها الآن في قلب فترة من أكبر فترات التغيير في التاريخ، فقد كانت هناك ثلاثة تحولات زلزالية في القوة على مدى الخمسمائة العام الماضية، وهي تغيرات جوهرية في توزيع القوة أعادت تشكيل الحياة الدولية سياسيا واقتصاديا وثقافيا، وكان التحول الأول هو صعود العالم الغربي، وهي العملية التي بدأت في القرن الخامس عشر، وتسارعت بشكل درامي في أواخر القرن الثامن عشر، وأسفرت عن الحداثة كما نعرفها: العلم والتكنولوجيا، والتجارة والرأسمالية، والثورتين الزراعية والصناعية، كما نتجت عنها أيضا استطالة أمد الهيمنة السياسية للدول الغربية، أما التحول الثاني، الذي أخذ مكانه مع السنوات التي اختتم بها القرن التاسع عشر، فقد كان صعود الولايات المتحدة، ففور أن أصبحت الولايات المتحدة دولة صناعية غدت أكبر قوة منذ روما الإمبراطورية، وهي الوحيدة التي كانت أكبر من أي دول أخرى مجتمعة معا. وعلى مدى معظم سنوات القرن الماضي هيمنت الولايات المتحدة على الاقتصاد والسياسة والعلم والثقافة والأفكار على مستوى العالم، وقد كانت الأعوام العشرون الماضية - حيث كانت هيمنتها لا تبارى - ظاهرة غير مسبوقة في التاريخ، وها نحن الآن نعيش في قلب التحول الكبير الثالث للقوة في العصر الحديث، والذي يتمثل في صعود الآخرين، فعلى مدى العقود القليلة الماضية شهدت دول من كل أنحاء العالم معدلات للنمو الاقتصادي كانت يوما لا تخطر على البال، وعلى الرغم من أنها شهدت موجات من الازدهار والانحسار، فقد كان الاتجاه العام متصاعدا بقوة (كان هذا النمو أكثر وضوحا في آسيا، لكنه لم يعد مقصورا عليها، لذا فإن تسميته «صعود آسيا» لا يصفه بدقة).

إن النظام العالمي الناشئ يتوقع أن يكون مختلفا كثيرا عن الأنظمة التي سبقته، فمنذ مائة عام كان هناك نظام متعدد الأقطاب يدار بواسطة مجموعة من الحكومات الأوروبية مع تحالفات دائمة التغير ومنافسات وحسابات خاطئة وحروب، ثم أتت الهيمنة الثنائية مع الحرب الباردة، التي كانت أكثر استقرارا من عدة جوانب، لكنها تقوم على قوى عظمى تتفاعل وتتبالغ في رد الفعل تجاه تحركات بعضها بعضا. ومنذ العام 1991 عشنا، في

ظل غطرسة الولايات المتحدة، عالما فريدا أحادي القطبية تمدد وتسارع فيه اقتصاد عالمي مفتوح، وهذا التمدد يقود إلى التغيير التالي في طبيعة النظام الدولي، ونحن على المستوى السياسي العسكري لا نزال في نظام ذي قوة عظمى واحدة، لكن لن يمكث أحادي القطبية لعدة عقود ثم فجأة ذات ظهيرة يصبح متعدد الأقطاب. ففي كل بعد آخر، بخلاف القوة العسكرية، يتحول توزيع القوة - صناعيا وماليا واجتماعيا وثقافيا - بعيدا عن هيمنة الولايات المتحدة، وهذا لا يعني أننا ندخل إلى عالم معاد لأمريكا، لكننا ننتقل إلى عالم ما بعد أمريكا، عالم يتحدد ويوجه من أماكن متعددة وبواسطة أناس كثيرين.

هناك بعض السياسات والبرامج المحددة التي يمكن أن يدعو إليها المرء من أجل جعل الاقتصاد والمجتمع الأمريكيين أكثر تنافسية، لكن ما نحتاج إليه فوق كل هذا هو تغيير واسع النطاق في الاستراتيجية والتوجه، فيجب على الولايات المتحدة أن تتوصل لإدراك أنها تواجه اختيارا: فهي تستطيع أن تحقق الاستقرار للنظام العالمي الناشئ بتقبل الأمم الصاعدة والتنازل عن بعض سلطاتها ومتطلباتها والقبول بعالم متعدد الأصوات ووجهات النظر، أو أن تقف لتراقب صعود الآخرين وهو يولد مزيدا من النزعات القومية، والقلاقل وعدم الاندماج، مما سيمزق ببطء النظام العالمي الذي بنته الولايات المتحدة على مدى الستين عاما الماضية. إن حالة الاختيار الأول واضحة، فالعالم يتغير، لكنه يمضي في طريق الولايات المتحدة، فالآخرون الذين يصعدون يحتضنون نظام السوق والحكومات الديموقراطية (بشكل أو بآخر) وانفتاحا وشفافية أكبر، وربما يكون عالما تسيطر فيه الولايات المتحدة على مساحة أقل، لكنه عالم ستكون فيه للأفكار والمثل الأمريكية هيمنة طاغية. إن لدى الولايات المتحدة مساحة من الفرص لكي تشكل وتسود الشكل العام للتغير العالمي، لكن فقط لو أنها أدركت أولا أن عالم ما بعد أمريكا حقيقة واقعة، وإذا احتضنت هذه الحقيقة واحترمتها.



بروكسل: هل تكون العاصمة القادمة للبلقان؟

بقلم: جيمس سين أبراين*

ترجمة: فرج الترهوني

العنوان الأصلي للمقال: Brussels: Next Capital of the Balkans?

ونشر في مجلة The Washington Quarterly، عدد صيف 2006

نشهد الآن صيفا هنديا** في ما يتعلق بتوسيع الاتحاد الأوروبي، حيث تستمر كلمات التشجيع الدافئة بالتدفق من بروكسل إلى سراييفو، وبلغراد، وزغرب، وتيرانا، وسكوبي، لكن حالة التجمد على الأبواب. وتبين نتائج التصويت الفرنسية والهولندية بالرفض أن الشعوب الأوروبية صارت تحس بالإنهاك من المشاريع الأوروبية الضخمة، بما فيها توسع الاتحاد الأوروبي نحو بلدان مثل التي في غرب البلقان، ولها أعراق وأديان وثقافات مختلفة، بل حتى تواريخ إمبريالية تختلف عن موروث أوروبا الشمالية. لمدة حوالي ثلاث أو أربع سنوات ستواصل المفوضية الأوروبية العمل مع بلدان غرب البلقان من أجل إعدادها كي تصبح أعضاء في النادي الأوروبي، حتى مع ازدياد حالة الشكوك الشعبية نحو المزيد من التوسع.

* James C.O'Brien: مدير تنفيذي في مجموعة ألبرايت، كما كان مبعوثا رئاسيا إلى البلقان أثناء إدارة كلينتون.

** Indian Summer فترة هدوء وإنتاج ممتعة في حياة المرء، أو في مسيرة مشروع ما تقطف خلالها ثمار العمل السابق.

عند هذا الحد، توجد إمكانية حدوث مواجهة: فالمفوضية الأوروبية ستقرر أول الطامحين بالعضوية، وبعد ذلك سيواجه القادة الأوروبيون الخيار: إما الالتزام بمقولاتهم لمصلحة توسيع الاتحاد أو الانحناء لتوقعات شعوبهم واتخاذ قرار بعدم التوسيع.

إذا كانت دول غرب البلقان الطامحة للعضوية مستعدة، ففي الغالب سيقوم القادة بدعوتها للانضمام، لأن هؤلاء القادة ستحكمهم في النهاية قضية استراتيجية تدعو إلى استيعاب مجتمعات ملتزمة جديدة وتوفير الفرصة وتجنب التكلفة الباهظة لتكوّن طوقا من الدول الضعيفة والفقيرة فوق القارة الأوروبية، ومع ذلك، فإن هذه النتيجة ليست حتمية، سيكون الجدل الشعبي حول التوسع أمرا صحيا في أوروبا، لكن الديماغوجية الشعبية في دول الاتحاد الأوروبي الحالية ستقلل من الإرادة السياسية في بعض دول غرب البلقان اللازمة لتنفيذ الإصلاحات وإعداد هذه الدول للعضوية، وسيترك هذا الأمر بلدا أو أكثر من الدول الطامحة غير مستعدة للعضوية ما يسمح للأعضاء الحاليين في الاتحاد الأوروبي بتجنب الاختيار بين مصالحهم الحيوية وما يقومون به لكسب الرأي العام.

يمكن لقادة الاتحاد الأوروبي وغرب البلقان والولايات المتحدة أن يحسّنوا من مستوى القبول الشعبي للتوسع نحو دول غرب البلقان إذا ما عملوا خلال السنين القليلة المقبلة بطريقة بناءة على حدة أو متعاونين. يلزم أيضا سماع الأصوات الداعية إلى التوسيع في أوروبا، وللولايات المتحدة دور مهم يمكن أن تؤديه في تشجيع دول غرب البلقان للقيام ببعض الإصلاحات الضرورية لعضوية الاتحاد الأوروبي، مثل إجراء تحسينات في قطاع الأمن. وفي غياب مثل هذا التعاون تواجه أوروبا خطورة ترك كل أو بعض دول غرب البلقان خارج حدود أوروبا الجديدة، وسيؤدي هذا الأمر إلى رسم خطوط الفصل بين العثمانيين والهابسبورغيين* والرومان الكاثوليك عن الأرثوذكس والمسلمين، هذه الخطوط التي قسمت الجزء الجنوبي من أوروبا الغربية لقرون عديدة، ستكون نتيجتها مجموعة بلدان يسودها الفقر، ومحاطة بأعضاء الاتحاد الأوروبي، لكنها مثقلة بموانع التنقل، وبحكومات أكثر ضعفا، وبجريمة منظمة، وإمبراطوريات أعمال عليها علامات استفهام. باختصار، ستكون مجرد غيتوات يمكن أن تسبب مخاطر إجرامية، بل وحتى خروقا أمنية لأوروبا.

سجل عملية التوسع

يعد توسيع الاتحاد الأوروبي إحدى أكثر القصص نجاحا في فترة ما بعد الحرب الباردة، ومنذ ظهوره باعتباره

---

* Hapsburg عائلة ملكية في أوروبا هي الأقدم والأكثر شهرة ينتسب إليها الكثير من ملوك وأباطرة أوروبا من القرن الخامس عشر إلى القرن العشرين، والاسم مشتق من هايسبورغ أو قلعة الصقر، وقد تواصل حكمهم في النمسا حتى العام 1918م - المترجم.

جماعة اقتصادية، تعمق الاتحاد ليصبح فضاء اقتصاديا وسياسيا مشتركا، وجاء النمو الأكثر سرعة في ثمانينيات القرن العشرين عندما اضطر الاتحاد لتأكيد مكانته في القارة برمتها. بعد عدة سنوات من التردد، من جانب فرنسا ودول أخرى، ظهر برنامج فسح المجال لدول شرق أوروبا للانضمام للاتحاد، وكان على الدول الطامحة في العضوية أن تثبت نفسها بأنها ديموقراطيات تعمل بمبدأ التنافس، ونظام السوق الحرة، وأنها تلتزم معايير كوبنهاغن، وهي مجموعة من المتطلبات تؤمن لكل المواطنين الحقوق السياسية والمدنية والإنسانية. بحلول العام 1996، دخلت دول وسط وشرق أوروبا، عدا يوغوسلافيا السابقة، في مناقشات الانضمام، وفي العام 2004 أصبحت ثماني دول منها أعضاء في الاتحاد.

خلال سنين قليلة كان الستار الحديدي، الذي قسم أوروبا طوال ما يقارب من الـ 45 عاما قد أزيل سياسيا على الأقل، وقبلت كل دولة من الأعضاء الجدد الثمانية على أساس أنها ديموقراطيات تعمل بنظام السوق الحرة، وتشهد تقدما ظاهرا في تحولها إلى أنظمة تعددية، وديموقراطيات انتخابية مستقرة. انضمت هذه الدول إلى ما أصبح أكبر سوق اقتصادي في العالم، ووافقت على التطبيق الكامل للقانون المشترك للاتحاد الأوروبي Acquis Communautaire، وهو خلاصة تضم أكثر من ثلاثين فصلا تعالج قضايا من العلوم إلى البحوث، وهي مسائل أكثر حساسية مثل الثقافة ودعم الدولة لقطاع الأعمال. اتخذت كل دولة جديدة مكانتها في هيئات اتخاذ القرارات في أوروبا، فأدت أدوارا ناضجة وقيادية في اتخاذ قرارات شائكة تتعلق بالميزانية والأوروبية، وسياسة الاتحاد تجاه الديموقراطية في دول مجاورة، كما تعمل الآن على إقرار سياسات وتشريعات أوروبية يتم تقييمها من قبل منظومات القضاء الأوروبي والمفوضية الأوروبية.

قد يصبح غرب البلقان غيتو يمتلئ بالمخاطر الإجرامية والأمنية لأوروبا

عملية توسيع الاتحاد الأوروبي، كما صرح خافيير سولانا، لا تحسّن من الاستيعاب الفني للدول فحسب، لكنها تلزم هذه الدول قيما مشتركة، وتضعها في إطار عملية متواصلة من سن التشريعات، وتطبيق القوانين. سولانا، الذي يشغل منصب ممثل السياسة الخارجية لمجلس الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي، كان محقا في تسمية توسيع الاتحاد بأنه أكبر نجاح في مجال بناء الأمة - الدولة في التاريخ الحديث، وهو أيضا أكبر نجاح في بناء كيان جديد غير مسبوق، أي أوروبا المقامة على مؤسسات مشتركة، والتزام بكتابة تاريخ جديد في مرحلة ما بعد الحرب الباردة. الصراعات تبدو واضحة الآن حول سلطات الاتحاد الأوروبي، مقابل سلطات الدول الأعضاء، أو حول إيجاد هوية أوروبية بالإضافة إلى الهويات الوطنية، وهذه الصراعات جزء من المعاناة

المحتومة لمخلوق جديد يتحسس طريقه. وإدخال المزيد من الصوت الشعبي في النقاش الدائر، وما يتبع ذلك من مبادئ شعبية، يعد من الأمور الصحية، وليس هناك أسلوب لتوقع ما سيصبح عليه الاتحاد الأوروبي - أكثر عمقا، أو أقل، أكثر اتساعا، أو أكثر انعزالا - لكن الجدل اللاحق حول الهجرة في أوروبا، وتأكيد سلطة المؤسسات الأوروبية، والدستور المتعثر، تعد كلها جوانب من بناء الدولة، وما الشكوك المحيطة بعملية التوسيع إلا جانب واحد، وغير مركزي، في رؤى الشعب الأوروبي، ومع ذلك، يمكن أن يأتي التوسيع معه برؤى جديدة تشكلها عملية العضوية لدى المؤسسات التي ستقرر مستقبل أوروبا.

دروس ليوغوسلافيا السابقة

يعد مسار الدول المنبثقة من يوغوسلافيا السابقة - كرواتيا، سلوفينيا، مقدونيا والبوسنة والهرسك، وما يشكل الآن صربيا والجبل الأسود - أكثر صعوبة. ففي العام 1993، وبينما أقر القادة الأوروبيون إمكانية توسيع الاتحاد باتجاه أوروبا الوسطى، كانت كرواتيا والبوسنة ويوغوسلافيا العاجزة في حالة حرب، وأكثر من نصف مساحة كرواتيا تحت علم جمهورية صربية منشقة، و70 في المائة منها تحكمها الجمهورية الصربية، التي وجدت بفعل المذابح الجماعية والتطهير العرقي، وتقع كل هذه البلدان تحت طائلة حظر استيراد الأسلحة من قبل الأمم المتحدة. قبل أسابيع فقط من انعقاد قمة كوبنهاغن، شكل مجلس الأمن محكمة دولية خاصة بيوغوسلافيا السابقة، وهي أول محكمة جنائية دولية منذ أن حوكم قادة دول المحور في نورمبرغ وطوكيو.

في هذا الإطار لم يكن ممكنا أن يبدي الاتحاد الأوروبي أي اهتمام جدي برؤية هذه الدول الجديدة أعضاء في الاتحاد، ومع ذلك لم يحسن التصرف في تدخله في البلقان حين صادق على عملية السلام، التي انطلقت بشكل سيئ عندما تشكلت بعثتا سلام تصرفتا دون امتلاك أي أدوات تحتاجانها لفرض السلم، وأجبرتا على التعامل مع أطراف لا حصر لها، واعترضتا في كل المراحل عندما كانت الدول الخارجية تتدخل لحماية الأطراف المتصارعة، وما إن بدأت الولايات المتحدة وحلف الناتو في القيام بأدوار رئيسة حتى توقفت عملية السلام، وتحول التوازن العسكري إلى مصلحة القوات الصربية التي امتلكته لفترة طويلة.

أثبت الاتحاد الأوروبي أيضا عدم مقدرته على تشكيل المناخ السياسي المناسب لمرحلة ما بعد الصراع في غرب البلقان. لقد سمحت اتفاقية دايتون في العام 1995، الخاصة بالبوسنة، بتشكيل إدارة مدنية تضطلع بمهام تسيير كل الشؤون المدنية، وكانت المباحثات في دايتون قد واجهت سؤالا بديهيا: من الذي سيصدر التعليمات إلى رئيس الإدارة المدنية؟ كما لم يتوافر مرشحون واضحون لهذا الدور لأن الأمم المتحدة والبلقان كانا تعبين من بعضهما بعضا. لم يكن

لمنظمة الأمن والتعاون الأوروبي (OSCE) أي مصداقية، مناسب أو تنظيم مناسب، أو سلطة تنفيذ القرار. أما حلف الناتو المكلف بالمسؤوليات العسكرية، فلم يرغب في التورط في القيام بمهام مدنية، كان الجواب الأمثل هو تعيين مندوب خاص للاتحاد الأوروبي، مسلحا بتفويض لمساعدة البوسنيين على إعداد بلدهم لتطبيق التشريعات الأوروبية، وربما تحقيق العضوية.

مع ذلك، لم يتوافر حماس لوجود دور أكثر فاعلية للاتحاد الأوروبي، وتساءل الأوروبيون إن كان باستطاعتهم أداء مهمة ما بعد الصراع هذه، وبالأخص خارج حدود الاتحاد الأوروبي، أما الولايات المتحدة وروسيا فكانت لديهما شكوك حول استطاعتهما، أو حول ضرورة أن يدفعا الاتحاد الأوروبي لاستلام زمام الأمور. بدلا من ذلك، قدمت دايتون صيغة معدلة عن طريق وجود «ممثل أعلى» تحت سلطة تحالف بلدان مؤقتة. جرى خلاف حول مدى سلطات هذا الممثل إلى أن تم توضيح ذلك بواسطة «مجلس إحقاق السلم» في العام 1997، الذي أكد على حق الممثل في توظيف الأشخاص وإعفائهم، وفي فرض القوانين. أحيانا سخر من هذا الوضع باعتبار أنه تفويض «إمبريالي»، لكن الممثل الأعلى ... كريستيان سوارز - شلينغ قال إن هدفه هو الإقلال من تدخل إدارته في القرار السياسي البوسني، وأن تركز على مساعدة السلطات البوسنية في الإعداد لعضوية الاتحاد الأوروبي. هذا الخلاف حول سلطات الممثل الأعلى يعكس حقيقة أن المجتمع الدولي خرج من دايتون من دون استراتيجية سياسية، ولو كان هناك اتفاق في دايتون بوجوب استعداد البوسنة لعضوية الاتحاد الأوروبي، وأن الأخير يجب أن يوفر الأفراد والمؤسسات الضرورية لمساندة هذا الإعداد، لكانت مهام الإدارة المدنية، والقوى المطلوبة، والموارد الضرورية أكثر وضوحا.

تبدل المنظور الأوروبي في العام 1999 لأسباب عديدة، فقد بدأت حكومات جديدة في بريطانيا وألمانيا بإلقاء نظرة جديدة على كيفية تعامل أوروبا مع البلقان. لقد وفر التقدم الثابت والبطيء في البوسنة تأكيدا جديدا بإمكانية أن تصبح المهمة الأكبر على الأرض بناءة وسلمية، وعلى كل، فقد فرضت هذه القضية من خلال الحرب في كوسوفو، فمع حلول العام 1998 ووجه نظام سلوبودان ميلوسيفيتش في صربيا بعنف ألباني، وبقلاقل داخلية، ومقدرة متناقصة على إحداث القلاقل في البوسنة وكرواتيا دون إثارة غضب دولي، وفي ربيع العام 1999 رفض ميلوسيفيتش عروضا دولية بالسلام في كوسوفو، وبدأ حملة صربية ضخمة نتج عن ذلك نزوح مليوني ألباني ومن ثم بدأ حلف الناتو أول تحرك عسكري له خلال خمسين عاما من تاريخه.

مكان في أوروبا

خلال أسابيع من بدء الصراع، أيقن زعماء عالميون أن حضورا دوليا مؤقتا

آخر، مضافا إلى ذلك الموجود في البوسنة وكرواتيا، سيطيل من أمد التورط الدولي في المنطقة، وسيترك الأسباب الرئيسة لعدم استقرارها من دون حلول. اقترحت الحكومة الألمانية أن يكون للمنطقة مستقبل في أوروبا، وكانت هذه المبادرة قد نسقت بشكل وثيق مع الولايات المتحدة، حيث قدمت وزيرة الخارجية الأمريكية عرضا مماثلا في أبريل العام 1999، وكانت النتيجة انعقاد قمة سراييفو في يونيو 1999، بعد أسابيع من انتهاء حرب كوسوفو. هناك في المدينة، التي مثلت رمزا لوحشية يوغوسلافيا، اعترف الاتحاد الأوروبي للمرة الأولى أن لدول غرب البلقان مستقبلا في أوروبا، لكن، للأسف، أن هذا البيان الذي صيغت كلماته بصورة دقيقة لم يذكر بالتحديد عضوية الاتحاد الأوروبي، فالقادة الأوروبيون لم يتشربوا بعد فكرة وجود دول غرب البلقان في الاتحاد الأوروبي، ولم يستشر الشعب الأوروبي في ذلك.

زيادة على ذلك، فلا يمكن لأي مراقب خارجي القول في العام 1999 إن صربيا وكرواتيا والبوسنة ومقدونيا والبانيا كانت جاهزة للانضمام للاتحاد. كانت أول حكومة كرواتية بعد الاستقلال في حال تدهور وانكفاء إلى الداخل، بين مرض في القيادة وفساد في جهات أخرى. في ذلك الوقت، كان الاتهام قد وجه لميلوسيفيتش من قبل المحكمة الدولية والقيادة في بلغراد في قمة فسادها وعزلتها، وانتخبت الجبل الأسود أيضا حكومة مضادة لميلوسيفيتش، وهكذا يكون ما تبقى من يوغوسلافيا قد سقط في أتون الصراع الداخلي. لم تتشكل أول حكومة بوسنية معترف بها إلا بعد عام من ذلك، ولم يمر على ألبانيا سوى عامين بعد انهيار النظام السلطوي فيها، أما مقدونيا فكانت تنتخب حكومة وطنية عديمة الخبرة ستقود البلاد إلى حرب أهلية بعد 18 شهرا.

هل تستطيع الحكومات أن تحقق الإصلاحات الضرورية لتنال العضوية؟

مع ذلك، فخلال السنوات اللاحقة أيقن الاتحاد الأوروبي أن عليه التحرك بقوة لمساعدة هذه الدول على إعداد نفسها، فعملية العضوية أداة بالغة التأثير في هذا المجال، والنتيجة هي ارتجال في مستويات عليا، وفي ظل وجود شكوك عالية من قبل موظفين كبار في الاتحاد، وبالأخص سولانا، وكريس باتن مفوض الشؤون الخارجية، ومفوض التوسيع غنتر فيرهاغن، بالإضافة إلى خليفته أولي ويهن. طور الاتحاد الأوروبي برامج على القياس لمعالجة حالات ضعف محددة لدى الحكومات المحلية: برنامج مساعدة جديد يوفر الدعم الفني والمالي مركزا على التقارب معه، وخرائط طرق تحدد الأسبقيات للدول للإعداد للمراحل الأولى من المباحثات، وما يعرف باتفاقات الاستقرار والارتباط (SAA)، التي توفر اتجاها وسطيا للدول غير الجاهزة لبدء المباحثات الرسمية.

بدأ الاتحاد الأوروبي أيضا في معالجة التعامل مع عضويته كاستجابة للمشاكل الأمنية عوضا عن النظر للمشاكل الأمنية كسبب لتأخير مباحثات العضوية. في العام 2001 عين الاتحاد الأوروبي رئيسا للإدارة المدنية لمساعدة مقدونيا في تطبيق اتفاق السهم فيها بها، وتضارب هذا التحرك مع تحفظ الاتحاد السابق في البوسنة. في العام 2003 كان الممثل الأعلى في البوسنة هو ممثل الاتحاد الأوروبي في الوقت نفسه، ومع خريف العام 2005 كان من الواضح أن كل جنوب غرب أوروبا يسير على طريق عضوية الاتحاد، حيث حدد لكل من بلغاريا ورومانيا أن تنضما للاتحاد في العام 2007 ما لم يحدث تأخير ما، وأعلن أن كرواتيا ومقدونيا ستكونان مرشحتين للعضوية، بينما وقعت ألبانيا اتفاق استقرار وارتباط، أما البوسنة وصربيا والجبل الأسود فقد بدأت مباحثات لاستكمال مثل هذه الاتفاقية.

جرى هذا التحول بسرعة، ففي العام 1995 كان تردد الاتحاد الأوروبي حيال المنطقة سببه، من ناحية، الفوضى التي تعم يوغوسلافيا السابقة، ومن ناحية أخرى يعود السبب إلى الاتحاد نفسه الذي بدأ حينذاك فقط يطور طرق تعامل نحو المزيد من التوسيع، ومع ذلك، هناك وجه آخر للقصة، فطوال قرون تواجهت أكبر إمبراطوريات أوروبا عبر حدود رسمت في هذه المنطقة، والتنقل عبر هذه الأراضي يبين اختلافات واضحة في المعمار، والثقافة، والمناخ، والشكل العام. منذ ما يقرب من عشر سنوات كان ثمة شعور ملموس حتى بالنسبة لمراقب عرضي من الولايات المتحدة، أن الرسميين الأوروبيين كانوا ينظرون إلى سلوفينيا والأجزاء الغربية من كرواتيا باعتبارها مناطق أوروبية، ولقرون عديدة كانت هذه المناطق خارج نطاق سيطرة الإمبراطورية العثمانية ومتاخمة لها، فهذه المناطق تبدو ذات صبغة أوروبية وسطية، وتعطي الإحساس بذلك، كما أن الأوروبيين الشماليين يحسون بالارتياح تجاهها، لكن الأمر لم يكن كذلك مع البوسنة والهرسك وصربيا والجبل الأسود والبانيا ومقدونيا، فهذه البلدان شرقية وأرثوذكسية ومسلمة، والنظر جنوبا وشرقا يعني موضوعات تصلح لشعر ملحمي وأساطير مثيرة. وعدم إحساس الأوروبيين بالراحة نحو هذه البلدان يبدو واضحا أثناء أي نقاشات تجري حول مستقبل دور الاتحاد الأوروبي في المنطقة، لكن اليوم يظهر أن عملية العضوية تأخذ مكان الصدارة دون النظر إلى الفروق بين الحضارات، والتحدي الذي لا بد أن يواجهه هذه البلدان الآن هو نفسه الذي يواجهه أي بلد مرشح للعضوية حتى الآن: هل يمكن أن تطبق الحكومة الإصلاحات الضرورية التي تؤهل للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي؟

تحديات محلية لغرب البلقان

يكمن التحدي الأول في بلدان غرب البلقان نفسها، فالإعداد لعضوية الاتحاد

الأوروبي سيتطلب القيام بتغييرات محلية قاسية، لا محالة أن تواجه بمقاومة. وقد يترك الغموض الأوروبي حول قبول دول غرب البلقان بعض هذه الدول من غير الدعم المطلوب لتطبيق الإصلاحات، وكرواتيا باعتبارها الدولة الأكثر استعدادا للانضمام في وقت قريب تكتسب أهمية خاصة. إذا تعثرت كرواتيا ستجادل القوى المضادة للتوسيع في أوروبا بأن المنطقة غير جاهزة، وستصر على ضرورة مراجعة فكرة العضوية برمتها، وإذا حدث هذا الأمر فقد تجد دولا أخرى طامحة في العضوية نفسها غير راغبة في القيام بالإصلاحات الصعبة المطلوبة للحصول على العضوية ومنها: مقاومة التأثيرات القومية والإصرار على المضي قدما وتحسين أداء الدول الضعيفة وسط تحديات بيروقراطية.

الحنين القومي

يمكن الافتراض أن كل دولة في المنطقة ستواصل طريق العضوية، لكن من المحتمل أن تتخلى إحدى الدول المعنية عن نهجها وتدير ظهرها إلى الاتحاد الأوروبي، وفي غرب البلقان قد تبدو صربيا هي المرشحة للقيام بهذا الرفض المثير. لقد خاضت كل دولة أخرى معركة سياسية مشهودة، أو شهدت تغييرا حكوميا، وخرجت من ذلك ملتزمة عملية الاتحاد الأوروبي، لكن في صربيا لايزال الاتجاه الرئيس من السياسيين يربط نفسه بالدعاوى القومية التي برزت في تسعينيات القرن العشرين، واحتمال استقلال الجبل الأسود وكوسوفو خلال العام المقبل، سيعطي حافزا للتيار القومي في صربيا وبالأخص إذا نظر إلى أن الاتحاد الأوروبي قد تبنى تفكيك ما تبقى من يوغوسلافيا.

مع ذلك، فقد لا يبدو ممكنا حدوث حالة رفض درامية، حتى في صربيا، لأن العواقب ستكون وخيمة. ومن المقدر أن يزداد الاهتمام الديبلوماسي، وأن يتم تعديل المساعدات الفنية والمالية لدعم عملية الضم، وسترتبط المشاركة في هيئات دولية بما فيها حلف الناتو، بمدى الالتزام بعملية الاتحاد الأوروبي، كما ستجد الحملات المحلية في صربيا، لمساندة عضوية الاتحاد والإصلاحات المرتبطة بها، دعما خارجيا سهلا وغير محدود، أما الأفراد المرتبطون بالحركة المضادة للاتحاد فسيجدون أنفسهم عرضة لتحديد تنقلهم، وربما تحويلاتهم المالية. وبالنسبة لأولئك القادة الصرب الذين لا تقوى تعاملاتهم المالية على تحمل المراقبة الدقيقة، وهم مجموعة قد تشمل حلفاء ميلوسيفيتش السابقين، فسيكون تسليط الضوء عليهم غير مريح لهم. هذه الأدوات، مقرونة بالحركة الهائلة المساندة لعملية الاتحاد، كانت مؤثرة على الدوام، وقد تخطت دول أخرى طامحة في العضوية وفقيرة حكومات مضادة للاتحاد، ولم تنجح أي منها في إيقاف العملية ما إن تذهب إلى المدى الذي ذهبت إليه صربيا.

لكن الأهم هو أنه من غير المحتمل أن تصبح صربيا رافضة لأن شعبها نفسه هو

الذي اختار الانضمام إلى أوروبا، فالصرب الآن ينظرون غربا، وليس شرقا. بالطبع، فهي قضية خلاف تكون، لكن اتجاه مستقبل الصرب ليس كذلك، ورد فعل الشعب الصربي على موت ميلوسيفيتش يبين اتجاه البلد. لقد سعت وسائل الإعلام الغربية إلى لقاء المدافعين عنه، والمتعاطفين معه، والقائلين بنظرية المؤامرة في قضية موته، لكنها لم تجد سوى بعض المتقاعدين الذين يشبهون الجموع الروسية المتأسية على موت ستالين، وقد تجمعت أعداد كبيرة من الشعب لتأبين زوران جندتش، معارض ميلوسيفيتش الذي اغتيل منذ ثلاث سنوات، وبالنسبة لأغلب الصرب لم يلق موت ميلوسيفيتش أكثر من هزة كتف لا مبالية.

لسوء الحظ فإن تلك الشعارات، التي أطلقها ميلوسيفيتش حول صربيا الكبرى التي تضم مساحات كبيرة من كرواتيا والبوسنة وأجزاء من مقدونيا، والتي لم يؤمن بها ميلوسيفيتش نفسه، لاتزال باقية وستؤثر هذه الشعارات في سياسة صربيا لعقود قادمة، لكنها لن تكون صرخة تجميع للأغلبية، وتجتذب شعارات مماثلة نحو 10 إلى 20 في المائة من الناخبين في بلدان أخرى. لقد ولت منظومة الدولة الفاسدة المطلوبة لتشكيل صورة صربيا الكبرى وما تستتبعه من إذعان شعبي لها، ويبقى انهيار يوغوسلافيا درسا للسياسيين، وتذكيرا بكيفية تغيير مسار السياسة وتحويلها إلى قوة شيطانية، أما ميلوسيفيتش نفسه فلم تعد لديه أهمية كقوة سياسية، ويتعين تذكر ضحاياه لفترة أطول من تذكره هو.

ليس من الغريب أن يطلب الأوروبيون وقتا للتفكير ما يفعلونه

الحفاظ على المسار

بدلا من انفصال مفاجئ، فالمشكلة الأكثر توقعا في غرب البلقان ستكون هي التآكل. لفهم هذه المشكلة سيكون من المفيد مراجعة العضوية وما يستتبعها من تطفل على الدول، وما لها من متطلبات فنية، وصعوبات سياسية. وكما ذكر سابقا، فإن جوهر عضوية الاتحاد هو الانصياع المشترك للقانون الأوروبي، الذي يغطي معظم جوانب السوق المشتركة من سياسات حقوق الإنسان إلى إعانات تقدمها الدولة إلى الإصلاح القضائي، وما إن تدعى دولة ما لأن تصبح مرشحة رسميا للعضوية، فإنها تشرع في مباحثات القبول Acquis.

مع ذلك، فـ «المباحثات» مصطلح مضلل في هذا المجال، لأن الاتحاد الأوروبي لا يغير من ثوابته لمصلحة أي بلد، والأمر سيان لبولندا، كما هو لجمهورية تشيكيا أو ألبانيا. وبالنسبة لغرب البلقان يعد هذا «الثابت» جذابا للغاية لأن كل دولة تخشى من حصول الدولة الأخرى على صفقات خاصة مثل إمكانية أن ينال تاريخها المميز فهما خاصا، أو أن تعطى دورا مميزا في المنطقة، أو مهمة سياسية: أو الخشية من تجنب الآخرين

القيام بخيارات مؤلمة للحصول على العضوية، وآمال أن تنال صفقة خاصة تسمح لها بتجنب الإصلاحات الصعبة. وإذا ما بدأت عملية عقد صفقات هنا ستكون النتيجة سباقا نحو الهاوية، حول تنازل لدولة ما، تقابله صفقات تجري مع أخرى. إن أسلوب الاتحاد الأوروبي في معالجة هذه القضية تمثل برفض كل طلبات المعاملة المميزة، وقام الاتحاد بذلك علنا بحيث لن تتمكن أي دولة من الادعاء أن دولة أخرى تتلقى معاملة خاصة أو تتوقع هي نفسها الحصول عليها، وقد أدى طلب للحصول على بعض الترتيبات الخاصة عند ضم البوسنة اعتمادا على طرح مطول لماضي البلاد، إلى إثارة حفيظة أحد موظفي المفوضية الأوروبية، ورد قائلا: «لا يهمنا ذلك في شيء، فهي 35 فصلا لكم، كما كانت 31 فصلا للجميع قبل ذلك، وستكون 35 للجميع الآن». بالطبع، لا يمكن تجاهل التاريخ، وبالذات كما قال ونستون تشرشل «حيث يوجد الكثير مما يمكن استيعابه منه». وطور ما قبل العضوية الذي تم ارتجاله، وجد كأسلوب تدريب، يأخذ ما لدى دول غرب البلقان من ضعف.

قبل أن تدعى أي دولة للاطلاع على مباحثات القبول، يجب عليها اجتياز علامات رئيسة محددة، والنقاط الأهم هي اتفاقات الاستقرار والارتباط (SAA)، التي تجري في منتصف المسافة، وهي معاهدات يقر فيها الاتحاد والدولة الطامحة أنه لايزال أمامهما بضع سنين، والقيام بتحسينات محددة، من جانب الدولة الطامحة تعد هذه المرحلة مفيدة بشكل هائل، فهي تحدد الأولويات وتأتي معها بوعد يتمثل في دعوة الدولة لأن تكون مرشحة للعضوية إذا استكملت تلك الأولويات، لكن يجب عليها أولا أن تتباحث حول خارطة طريق تقود إلى اتفاقات «استقرار وارتباط»، وهذه الخارطة توفر نقطة مراجعة مبكرة لما يجب القيام به. وبناء على التجربة من المحتمل أن تكون خارطة الطريق مهمة في حل الوضع النهائي لكوسوفو، ومن المحتمل أن تعلن نتيجة اتفاقات الاستقرار والارتباط لصربيا مع نهاية المباحثات. كجزء من صفقة استقلال كوسوفو ستصبح صربيا مرشحة رسميا لعضوية الاتحاد، لكن كوسوفو المستقلة حديثا ستحتل خطوة إلى الوراء خلف صربيا، وربما خلف الجبل الأسود، سواء استقلت في هذا الوقت أم لا، وبوجود دولة جديدة، وحكومة جديدة، وحضور دولي متبدل من المحتمل أن تقيِّم كوسوفو على أنها غير جاهزة بعد لتوقيع اتفاقات استقرار وارتباط، وعوضا عن ذلك ستدعى للبدء في تطبيق خارطة طريق كما فعلت دول غرب البلقان من قبلها، وأسلوب العبور على الأحجار هذا له مزايا سياسية في صربيا، فهو سيبدو أنه يسرع في عضويتها بمجرد تخلصها من عبء كوسوفو.

من جانب يبدو أن أسلوب خارطة الطريق مناسب للغاية، فهو سيرشد الدولة الكوسوفية الجديدة في سنواتها

الأولى، ويرسم أسبقيات الحضور الدولي في البلاد بالشكل الذي لم يحدث فيه في صربيا في العام 1995، وبالنسبة للكوسوفيين فاحتمال توقيع اتفاقية استقرار وارتباط، ربما في غضون عام أو اثنين من الاستقلال، سيوفر لهم الإرشاد والمساعدة والوعد بأن الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي ستعترف بدولتهم ما إن يحين وقت توقيع اتفاقات الاستقرار والارتباط. ومع ذلك ثمة أمر مزعج هنا، فإذا تأجل الاعتراف بكوسوفو كدولة إلى حين إتمام خارطة الطريق سيكون باستطاعة أي دولة عضو في الاتحاد إيقاف العمل باتفاقات الاستقرار والارتباط، وإيقاف عملية العضوية بالامتناع عن الاعتراف بدولة كوسوفو. المشكلة هي أن الاعتراف قرار سياسي متروك للدول الأعضاء يمنح أو يحجب دون ضغوط خارجية. في المقابل، فإن عملية العضوية تقوم على أساس الاستحقاق - قم بالعمل واحصل على العضوية - وإذا كان لدى الكوسوفيين أي سبب في الشك في أن أي دولة عضو في الاتحاد ستمتنع عن الاعتراف بهم، فإن التزامهم الخطوات المذكورة في خارطة الطريق سيقل، هنا يمكن أن تجد أوروبا نفسها في موقف مزعج: دولة ضعيفة يعترف بها عدد من جيرانها فقط، وغير راغبة في الإصلاح كما تريد أوروبا. الخلاصة أنه سيكون من الأفضل لأعضاء الاتحاد الأوروبي الاعتراف بكوسوفو بعد الاتفاق على استقلالها مباشرة كجزء من الصفقة، بدلا من التشويش على سير العضوية بهذا القرار السياسي.

تحديات بيروقراطية

هذه العملية الدقيقة لبناء المقدرة من خلال حوار بين المفوضية الأوروبية والحكومة الوطنية مهددة من جهة الذعر الأوروبي من التوسيع، والمشكلة ليست عند المواقف السياسية للمستوى السياسي الأول وإعلاناته. بدلا من ذلك فالتهديد يأتي لأن الإدارة البيروقراطية، التي ستشرف على عملية العضوية، هي إدارة معزولة وقابلة للضغوط السياسية التي قد تكون تدريجية، وقليلة، لا تكاد ترى ليتم التعامل معها.

تنشئ كل دولة أمانة خاصة للتعامل مع الاتحاد الأوروبي، وتتبع في العموم رئيس الحكومة مباشرة. في أفضل الأحوال يرأس هذه الأمانات موظفون نشطون معروفون بموهبتهم، وليس بمدى صلاتهم، ولكل منهم إدارة تتكون من 50 إلى 100 خبير، مسؤولين عن التنسيق مع نظرائهم في المفوضية الأوروبية، ومع الوزارات ذات العلاقة، وقد تحصل هذه الأمانات على دعم متعدد الجوانب، على سبيل المثال في كرواتيا، حيث دعمت كل الأحزاب السياسية هذه الأمانة وأعطتها صلاحية فاقت ما أعطته لها الحكومة. وتضع المفوضية الأوروبية أولويات ربما يتراوح عددها بين 100 و140 تغطي كامل نطاق القانون الأوروبي المشترك، كل أولوية منها تصبح موضوعا لخطة عمل

لها متطلبات وتوقيتات معينة ومحددة، أما الأولويات العامة، مثل الإصلاح القضائي، فيتم تجزئتها إلى خطوات متعددة تنسق مع الجهة المختصة في الحكومة.

بدأت دول غرب البلقان تواجه تحديات كبرى من الآن، فالعديد من الوزارات تحتاج إلى مساعدات لا بأس بها لاستكمال مهامها، وهذه الوزارات في الغالب لم يطلها الإصلاح، وينقصها التدريب والدعم المالي. قد يؤثر التغيير في المصالح الراسخة، كما أن الكثيرين في المنطقة قد يكونون «متعبين من التحول»، أما حاليا فالسؤال المطروح هو: إذا كان بمقدور فرق تكامل أوروبي صغيرة مساعدة الوزارات بشكل كاف، حتى يكون الدعم السياسي للتوسيع قويا، ونتيجة علمه بهذه المسألة أدخل الاتحاد الأوروبي مبدأ المساءلة في العملية، حيث للمفوضية الأوروبية مكتب في كل دولة طامحة بالعضوية، يقوم بالزيارات الشهرية، ويحتفظ بسجلات النتائج. في داخل تلك الدول يمكن لمنسق الاتحاد الأوروبي أن ينسق في الغالب مع رئيس الحكومة، ففي مقدونيا، على سبيل المثال، تبدأ جلسة الوزراء الأسبوعية بمراجعة مدى التقدم المحرز، حيث يمكن التعامل مع المشاكل الصغرى قبل أن تتحول إلى أزمات كبرى في طريق عملية العضوية، وقد أتى هذا التدبير بتغيير هائل في مستوى أداء الوزارات، فحسب قول أحد المشاركين من دولة طامحة: «كانت توقعاتنا عالية، وقد تخطينا التوقعات».

الاهتمام بالتفاصيل شرط مسبق للنجاح، لكنه قد يكون سببا في تعثر المنظومة. فيمكن لرئيس حكومة ما غير مهتم بالعضوية أو غير راغب في مجابهة عضو متردد في ائتلافه الحكومي أن يبطئ من سير العملية دون أن يبدو مهملا في ذلك. وبتخصيص وقت أقل للاجتماع مع المسؤولين عن التكامل، أو بذل جهد أقل لتطويع الوزارات المتلكئة، سيعمل على إبطاء الإصلاحات دون ترك بصمات، فتتعرض للشلل إدارات التكامل مع الاتحاد، وهي المنعزلة عن باقي إدارات الدولة. حتى لو اكتشفت المفوضية الأوروبية المشاكل وأعلنت عنها، سيكون الضرر قد وقع، وسيتلقف المشككون في التوسيع هذه المشاكل باعتبارها فشلا في الإدارة لدى الدولة الطامحة، ويغذون الشكوك حول إرادتها في الانضمام للاتحاد. سيشجع هذا المطالبة بالمزيد من التفاعل السياسي، وستتدخل الدول لمصلحة الدول المتعثرة، مقرين أنه رغم قابلية متطلبات العضوية للنقاش إلا أنه يمكن تعديل الجداول الزمنية ومن ثم تسييس العملية.

تقنين النقاش الأوروبي

يدفع هذا الأمر إلى عودة الجدل الأوروبي المزعج، لكن غير المستغرب، حول التوسيع. لقد كان نمو الاتحاد الأوروبي على مدى الـ 15 عاما الماضية مذهلا، لكنه كان مدفوعا من قبل النخبة، مع دعم فني من طرف البيروقراطية التي يزداد نفوذها في بروكسل. حدوث الإرهاق كان

محتوما، والقلق الشعبي حول توسيع أوروبا يعكس استجابة شعبية طبيعية للأحوال الاقتصادية غير المضمونة وللفروق الثقافية بين المرشحين الجدد للعضوية، وإحساس الأعضاء الحاليين بمكانتهم. إن الجدل الصريح حول طبيعة حدود أوروبا أمر صحي إذا أراد الاتحاد أن يعزز من مصداقية ديموقراطيته داخل حدوده.

في مواجهة قلق شعبي متواصل، لن تكون خبرة المفوضية الأوروبية والتفاصيل التي تضعها في قانون الاتحاد مقنعة بما يكفي، فهناك خطوات واضحة يجب القيام بها أثناء المضي قدما. أول هذه الخطوات هي تحديد وجود فضاء (إمكانية) لمراجعة إصلاحات الاتحاد الأوروبي، وتجديد الوعود المتعلقة بالتوسيع، وهذا ما قام به المنادون بالتوسيع على مر أشهر سابقة، مرددين أن الدول ستصير أعضاء في الاتحاد عندما تدلل على جهوزيتها، لكن الاتحاد الأوروبي سيضطر إلى حسبان مدى «مقدرة الاستيعاب» لديه. وقد أطلق وزراء خارجية أوروبا النغمة نفسها عند لقائهم قادة البلقان في 2 مارس 2006م.

ترى «مبادرة الاستقرار الأوروبية»، وهي مؤسسة أبحاث ذات نفوذ، أن الإشارة إلى مقدرة الاستيعاب ثغرة ستستخدم لمنع العضوية عن دول مرشحة تستحقها، وفي الحقيقة قد لا تكون مقدرة الاستيعاب إلا تعبيرا ملطفا سيقتل عملية التوسيع، لكن على النقيض من ذلك يمكنها أن تثير نضجا جديدا في النقاش الدائر. لابد أن يكون بمقدور المرء أن يمعن في فكرة أن التوسيع سيحدث، وأن الاتحاد الأوروبي يجب أن يشهد إصلاحات. في مارس 2006 طلب البرلمان الأوروبي من المفوضية الأوروبية تقريرا عن كيفية توافق التوسيع مع التحسينات لمبدأ قدرة الاستيعاب، وبطلبه التقرير يكون البرلمان قد رفض عرضا أكثر قوة، كان سيطالب بالعثور على بدائل العضوية لدول البلقان. وتطور المؤسسات الأوروبية تعبيرات بناءة للمناقشات المتزامنة حول مقدرة الاستيعاب، وإصلاح الاتحاد، والتوسيع.

الخطوة الثانية هي قيادة الجدل الدائر الآن، حيث يجب على القادة الأوروبيين في الحكومات أو خارجها أن يفضحوا الخرافات، وأن يراعوا المصالح الخاصة للشعوب الأوروبية. إن غرب البلقان هو من الصغر بحيث لا يمكنه الطغيان على أسواق العمل الأوروبية، لكن دوله ستوفر عمالة وأفكارا مطلوبة لدعم قوة العمل، التي بدأت تشيخ في الاتحاد الأوروبي، زيادة على ذلك فالمؤشرات الأولية تدل على أن أعدادا أقل من العمال ستنتقل من البلقان وتقطن في أماكن أخرى، وهو الأمر الذي يخشاه الأوروبيون. بالطبع، فجزء كبير من الخوف من غرب البلقان يتعلق بالخوف من تركيا، وربما حتى المغرب، يجب على أوروبا تدعيم سياساتها نحو الجيران لطمأنة سكانها بوجود بديل عن العضوية لدول شمال أفريقيا ووسط آسيا. وقد يدافع زعماء جسورون عن ضرورة عضوية تركيا، وهو ما يجب أن يتم، لكن الأقل جسارة منهم يجب أن

يلعنوا رأيا لا يخلو من العدل البديهي: إن التوسع نحو غرب البلقان يعزز من قضية انضمام تركيا، لكن هذه الدول الصغيرة لا يجب أن يحكم عليها من خلال هذا الأمر، أو من خلال روابطها التاريخية بالإمبراطورية العثمانية، فهذا يجعلها رهينة لماض ليست مسؤولة عنه.

في النهاية، سيحتاج قادة أوروبا إلى الشجاعة، فهذا الجدل لن يخمد في أشهر قليلة، والأصوات التي تعلو بنبرة رهاب الأجانب، والعنصرية، والمتحيزة ضد المسلمين لن تقبل بالاعتراف بسكان المناطق التي ظهرت من الإمبراطورية العثمانية كأوروبيين، وأن يكونوا جزءا من الاتحاد الأوروبي. ستكون هذه الأصوات التافهة عبارة عن مدفع صغير من الرفض والكراهية، ولن تسود طويلا، لكنها تستلزم ردا عليها. في غرب البلقان سيستغل سياسيون شعبيون وتحرريون الأصوات المرفوعة ضد التوسيع في الاتحاد الأوروبي كسبب لرفض الإصلاح، وسيصبحون هم أنفسهم ممثلين جيدين للأوروبيين المناهضين للتوسيع. يوجد في كل من الاتحاد الأوروبي والدول الطامحة في غرب البلقان جدل سياسي من القوة لتحمل ضغوط هذه الأصوات الآتية من الماضي، لكن على الزعامات أن ترفع صوتها عاليا، وإلا قد تنشأ حلقة ضارة تعوق الإصلاح.

من خلال هذه الإضاءة سيكون من المزعج سيطرة البرلمانات الوطنية والاستفتاءات على نداءات التوسيع، فهذه ليست إلا عملية خطف للقضية، لأنه من المستبعد أن تدعم الشعوب التوسيع دون وجود زعامات أكثر قوة، لكن إذا كان الزعماء يعرفون أن ليس عليهم اتخاذ القرار بمجرد أن تقول شعوبهم لا، فسيعني ذلك افتقارهم إلى خصائص الزعامة. ويمكن أن يؤدي البرلمان الأوروبي دورا أعظم هنا، وأن يأمن الصوت الشعبي، فالبرلمان مؤسسة دائما توصم بالضعف، وغالبا لأنه ليس في وضعية اتخاذ القرارات المهمة، ومع ذلك، إذا تم الالتزام بأن يؤدي البرلمان دورا مركزيا في قرارات التوسيع، فيمكن أن يكون هذا الأمر قضية مطروحة في الانتخابات البرلمانية المقبلة التي ستجري قبل أن تكون أغلب دول غرب البلقان مستعدة للعضوية، ويعني اتساع القلق وعمقه حيال التوسيع أن شعوب أوروبا بحاجة إلى صوت، لكن يجب أن يكون صوتا مسلحا بالمعلومة الكاملة، في شكل تتلاقى فيه الكثير من المصالح الوطنية، ويجب ألان يتشكل من أصوات تصيح في غرف مغلقة، حيث غالبا ما يوجه الغضب نحو الحكومات الوطنية وليس نحو التوسيع.

الدور الأمريكي القريب

توسيع الاتحاد الأوروبي قد يكون الموضوع الذي يجب أن تسكت عنه الولايات المتحدة، لكن هذا سيكون المعالجة الخاطئة للأمر، فتعامل الاتحاد الأوروبي مع غرب البلقان قد ينقلب إلى شيء كريه، إذا ما غابت الولايات المتحدة عن المشهد أو كان حضورها صاخبا، فأمريكا لها مصالح

قوية ومشروعة في رؤية هذه الدول تنضم إلى الاتحاد، كما أن لديها مصلحة في وجود أوروبا حرة وموحدة، وفي بعض مناطق البلقان يعد الصوت الأمريكي هو الأكثر نفوذا. ولأنه لا يمكن لواشنطن الهيمنة على جدل يتعلق أساسا بمعنى أن تكون أوروبيا، فيلزم أن تؤدي دورها بدقة محسوبة غالبا ما تفتقر إليها.

يبدأ دور الولايات المتحدة انطلاقا من الحقائق على الأرض، فالكثير من القضايا تفسد منطقة غرب البلقان، مثل العنصرية، والحكومات المنقسمة عرقيا، والسيطرة اللا مشروعة للقوى الأمنية، وكل هذا يقع خارج العملية الرسمية للاتحاد الأوروبي. ومن وقت إلى آخر، وجد الاتحاد طرقا لمعالجة مثل هذه القضايا ضمن عملية العضوية، وغالبا يكون ذلك عن طريق وضع شروط جديدة لتأخير أو إيقاف مباحثات العضوية. في هذا السياق، طلب الاتحاد من كرواتيا وصربيا التعاون الكامل مع المحكمة الدولية في لاهاي كشرط لبدء مباحثات العضوية. هذه الشروط، وبهذه الطريقة، ضرورية، وكان الاتحاد جادا في متابعة هذا الموضوع، لكن كأسلوب منتظم لتحسين أسلوب الحكم فإن الاعتماد على البرامج المؤقتة يماثل عشوائية شعاع البرق، لأن القضايا يتم اختيارها أو تجاهلها لأسباب غير مساهمتها المباشرة في مقدرة الدولة على الالتزام بمتطلبات عضوية الاتحاد الأوروبي، والبرامج الرمزية تترك الضعف الكامن في مقدرة الدول على الحكم من دون حلول. ففي صربيا، على سبيل المثال، ليس من الواضح المدى الذي قد يذهب إليه الزعماء المدنيون في توجيه القوى الأمنية للتعاون مع المحكمة الدولية، وقد اغتيل دجندتش، بسبب مثل هذا الصراع على السلطة، كما أن إصرار الاتحاد على الفعل الرمزي بالتعاون مع المحكمة لا يصحبه الدعم المؤسساتي المطلوب للقيام بتحسينات سياسية.

سيكون لمحتوى الجدل العام في أوروبا تأثير على غرب البلقان

لدى الولايات المتحدة دور مميز في هذا المجال، حيث يمكنها المساعدة في التأكيد على معالجة هذه القضايا المتعلقة بالإصلاح العسكري والأمني بشكل أحادي من خلال تجمعات دولية تؤدي فيها دورا رئيسا مثل حلف الناتو، ومنظمة الأمن والتعاون الأوروبي، وتجمعات مؤقتة مثل مجموعة الاتصال الخاصة بالبلقان، والأدرياتيكي - 3، وبصورة أعم هناك عدة قضايا تتطلب تعاونا أكثر عبر طرفي الأطلسي خلال العام المقبل. ففي يوغوسلافيا السابقة وحدها هناك جمهورية الجبل الأسود، وكوسوفو، الساعيتان لنيل استقلالهما، كما ستقوم البوسنة بتعديل دستورها، الذي حافظ على السلم لسنوات عشر، وهذا وحده قضية كبرى للمجتمع الدولي في هذه المنطقة، التي جرى تجاهلها بشكل كبير طوال خمس سنوات. ومع ذلك، يمكن معالجة هذه القضايا مع اعتبار كوسوفو أكثرها حساسية. وأن

يصار إلى إقرار استقلال كوسوفو والحصول عليه سريعا، فإن ذلك سيوفر أفضل أمل لاستقرار المنطقة، لكن وضع ما تبقى من صرب كوسوفو يظل أمرا يبعث على الأسى، وينظر ألبان كوسوفو إلى واشنطن لترشدهم في هذا الشأن. سيكون من السهل إقناع حلف الناتو بالبقاء في كوسوفو بعد الاستقلال، وربما إقناع روسيا بتقديم المساعدة، كضمان لصرب كوسوفو ولتجمعات غير ألبانية أخرى، لكن سيكون الجزء الأصعب هو التعرف على المنظمات الاستخباراتية المرتبطة بالأحزاب السياسية، وتجريدها من نفوذها ومصادر تمويلها. ومن المحتوم أن تكون أي حكومة كوسوفية جديدة مكتوفة الأيدي أمام هذه القوى، إلا إذا أجبر فعل أمريكي قوي إجراء الإصلاحات اللازمة، والاتحاد الأوروبي لا يملك القدرة على القيام بهذه المهمة، لكن يمكن لحلف الناتو أن يوفر غطاء متعدد القوى، مع ضرورة أن يكون حديثه بلهجة أمريكية.

يجب على الولايات المتحدة أيضا أن توفر الانضباط، فصربيا لن تصل إلى اتفاق مع الكوسوفيين خلال المباحثات، وليس هناك سياسي واحد من الطرفين يمكنه المحافظة على موقعه بالموافقة على أي طرح سيقبله الطرف الآخر، وما إن يعلن المندوب المعين من قبل الأمم المتحدة أن المباحثات قد وصلت إلى طريق مسدود حتى يتقاطر مندوبون دوليون إلى المنطقة للحث على القبول بصفقة قد تكون الاستقلال أو شيئا قريبا منه. سيكون هناك ميل لاقتراح شروط جديدة مسبقة للاستقلال، مما يزرع الاضطراب، والإحباط، واتهامات بالتجريم بين ألبان كوسوفو، وسيجب على الولايات المتحدة دفع المجتمع الدولي لاتخاذ قرار والضغط على ألبان كوسوفو للقيام بالتزاماتهم. ولن يكون هذا الأمر صعبا، لكنه سيتطلب اهتماما وإرادة في وجه الأزمة المرتقبة حول إيران. إن إدارة الفصل الأخير من مباحثات كوسوفو ستكون أشبه بلعبة كرة الغولف الأخيرة في الحفرة، ويجدر بالمحترفين القيام بها دون عناء.

تمثل البوسنة مثالا مختلفا، والنخبة السياسية فيها تستفيد من التكوين اللامركزي القائم فيها الآن، ويمكن تحقيق الإصلاحات المطلوبة لعضوية الاتحاد الأوروبي من خلال الدستور الذي وضع في دايتون، لكن سيكون من الأفضل إذا تمكن الزعماء السياسيون في البوسنة من تعديل الدستور، كعلامة على دعمهم للإصلاح. هذه الخطوة لن تكون على حساب مصالحهم الشخصية لأن تأثيرهم وسلطتهم يأتيان من اللامركزية التي ستظل قائمة. وفي أواخر مارس قدمت التعديلات الدستورية إلى البرلمان البوسني بدعم من الأحزاب الكبرى هناك، ولم يحدث هذا إلا بدعم قوي من الولايات المتحدة، لكن حتى هذه التعديلات لاتزال تمنح الأحزاب الوطنية نفوذا غير مستحق، وسيتطلب الأمر تدخلا أمريكيا متواصلا لتخفيف حدة الصوت القومي، وترك عملية عضوية

الاتحاد تشق طريقها خلال الإصلاحات التي تحتاجها البوسنة.

في الواقع، فإن هذا الدور الأمريكي ينبع من التوسع نحو وسط أوروبا، فالدول الطامحة للعضوية من شرق ووسط أوروبا سعت للعضوية في/ أو موافقة منظمات مثل الناتو، والمجلس الأوروبي، ومجلس الأمن والتعاون الأوروبي المعدل، حتى وهي تستعد وتقدم عضويتها إلى الاتحاد الأوروبي. لقد ساعدت هذه المنظمات تلك الدول على معالجة شكوك قائمة حيال ترشحها، فمثلا كان موضوع الأقليات، وأوضاع اجتماعية معينة، قضية ذات اهتمام خاص من قبل المجلس الأوروبي في الوقت الذي أثبت فيه حلف الناتو فائدته في تغيير السياسات الأمنية وحل قضايا الحدود الموروثة، مثل تلك القائمة بين المجر ورومانيا. وبتصديقه على المبادرات التي تطلقها مثل هذه التجمعات والمنظمات يعطي فاعلية للتفويض الممنوح له، ويستغل مقدرات هذه المنظمات الأخرى، وباستخدام الدور القيادي الأمريكي في حل هذه القضايا يمكن أن تعد المفوضية الأوروبية دول غرب البلقان لعضوية الاتحاد بصورة أفضل.

تحديد المسار الأوروبي بعد الاستفتاء

من المرجح في العقد المقبل أن تصبح دول البلقان بما فيها ألبانيا، وصربيا، وكرواتيا، ومقدونيا، وربما الدول المستقلة في الجبل الأسود وكوسوفو أعضاء الاتحاد الأوروبي، فخلال أقل من 20 عاما تحول هذا الاتحاد الأوروبي من ناد للدول المتماثلة إلى تحالف سياسي مقام على الكثير من التقاليد، والأديان، والأعراق. وفي ضوء التحول التاريخي حول ما يعنيه كون المرء أوروبيا، ليس من المستغرب أن يطلب الأوروبيون منحهم الوقت الكافي للتفكير في ما يقومون به. لقد صوت الفرنسيون والهولنديون مطالبين بمساحة لالتقاط أنفاسهم، لكن التوسيع لم يؤد إلا دورا بسيطا في النقاشات أو القرارات المتعلقة بالدستور، كما يجب ألا ينظر إلى التصويت نفسه باعتباره قرارا ضد عضوية دول غرب البلقان للاتحاد.

سيكون لمحتوى الجدل الأوروبي العام خلال السنوات المقبلة انعكاسات على غرب البلقان، وقد يعوق أي جدل على أسس قومية تلك المجتمعات التي تعمل على إحداث إصلاحات في تلك البلدان، وينتج عنه أن بعض الدول لن تكون مستعدة للعضوية، لكن إذا تعامل الزعماء الأوروبيون مع هذا الجدل بشكل بناء فيمكن أن يساعد ذلك في تقوية الديموقراطية الأوروبية، والالتزام تجاه اتحاد أوروبي أكثر تماسكا واتساعا. إن الاجماع ترف يتسم بالخطورة، خصوصا أن القارة تعيد تكوين نفسها، ومع ذلك يجب ألا يصبح فحص أوروبا الذاتي لمسارها عذرا لدول غرب البلقان لكي تبطئ من إصلاحاتها.

قصة العلاقة بين الاتحاد الأوروبي ودول غرب البلقان لافتة للنظر، فهذه الدول - الفقيرة منها والإسلامية والأرثوذكسية

والاشتراكية أخيرا - فصلت عن أوروبا منذ أن استقرت الإمبراطورية العثمانية إلى الجنوب من فيينا، والجهود المبذولة لجلب هذه الدول نحو اتحاد أوروبي مشترك يعمل على محو هذه الحدود الإمبريالية. التاريخ تجري كتابته هنا على مستوى عال، وهو من الضخامة بحيث إن كثيرا مما يشهدونه اليوم لن يتعرفوا إلى أهمية اللحظة، ويمكن لزعماء أوروبا أن يؤصلوا ديموقراطيتهم بمد أيديهم إلى هذه الديموقراطيات الناشئة.

أما الولايات المتحدة فعليها دور مهم في معالجة الأمن وقضايا غيره تقع خارج دائرة التفويض المحدود للمفوضية الأوروبية، وإذا ما اختير مسار غير واع أو شديد الوطأة فقد يقلل ذلك من فرص بلدان المنطقة في دخول الاتحاد الأوروبي، وعليه يجب أن تأخذ الولايات المتحدة زمام المبادرة في معالجة القضايا الأكثر تفجرا في البلقان، ومساعدة الاتحاد الأوروبي للقيام بما يجب هو أفضل من أي مبادرة في التاريخ: خلق فضاء مشترك قابل للاتساع يتكون من القيم، والسياسات، في قارة كانت منقسمة ليس خلال سنوات الحرب الباردة فحسب، لكن طوال قرون من حكم الإمبراطورية.



التطور التاريخي للمهاجرين العرب في أوروبا

بقلم: وانغ شين

ترجمة: د.عبدالعزيز حمدي عبدالعزيز

العنوان الأصلي للمقال: 透视阿拉伯移民在欧洲社会的历史嬗变

ونشر في مجلة: 阿拉伯世界研究 **Arab word Studies**

العدد 1 يناير - مارس 2007

في دول الاتحاد الأوروبي تحظى مشكلات المهاجرين باهتمام ومناقشة على نطاق واسع لم يسبق لهما مثيل داخل أروقة الدوائر السياسية والأوساط الأكاديمية. وتعد القارة الأوروبية منطقة يتبوأ فيها الدين المسيحي مركز السيادة دائما، ويرجع أبكر تاريخ لهجرة العرب إلى أوروبا إلى العام 710 ميلادية عندما غزوا الأندلس (أسبانيا حاليا)[1]. ويعد حركة ترجمة المؤلفات العربية التي أضاءت ظلام أوروبا في القرون الوسطي وقيام الحملات الصليبية الأوروبية بغزو الشرق ونهب ثرواته، وطئت أقدام العرب أوروبا رويدا رويدا وبدأوا الاستقرار والإقامة هناك. والدول العربية المطلة على البحر الأبيض المتوسط تتاخم القارة الأوروبية،

---

(1) شي تي: «تاريخ العرب العام» المطبعة التجارية - بكين، العام 1995. (بالصينية).

وكان تفوق العوامل الطبيعية والاقتصادية والبشرية وتطور المستعمرات يتطلب دائما اجتذاب كثرة كاثرة من العرب للتوجه إلى أوروبا بحثا عن أسباب الرزق، لكن أوروبا - في الواقع - لم تشهد ذروة المهاجرين العرب إلا في العصر الحديث. وتدفقت أعداد هائلة من المسلمين العرب القادمين من الدول التي كانت ترزح تحت نير الاستعمار إلى أوروبا مع تدشين خطط إعادة إعمار أوروبا بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، وشكلوا مع المسلمين الوافدين من سائر بقاع العالم الأخرى، وخاصة مع مسلمي باكستان، وتركيا، وبنغلاديش بصورة رئيسية، أكبر تجمع للأقلية العرقية في أوروبا في الوقت الحاضر. وانتهجت المجتمعات في أوروبا سياسة تعايش تعدد الثقافات منذ أمد بعيد، ولذا عاش المسيحيون الأوروبيون والمسلمون المهاجرون في وئام وانسجام دائما على الرغم من وجود الأشكال الأخرى للأنشطة الإرهابية (الإشارة هنا بصورة أساسية إلى «الجيش الجمهوري الأيرلندي» في إنجلترا، و«إيتا» في أسبانيا و«الألوية الحمراء» في إيطاليا وغيرها من المنظمات الإرهابية التي تضطلع بالأنشطة الإرهابية في أوروبا منذ عدة سنوات خلت) التي لا تمت بأي صلة للمسلمين. لكن أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 وما تلاها من حرب مناهضة الإرهاب أحدثت جفاء وتنافرا في العلاقة بين المهاجرين المسلمين والمواطنين والأوروبيين، ما جعلهم يتبادلون الشكوك والارتياب. وأثبتت القرائن أن سلسلة التفجيرات، التي شهدتها العاصمة الأسبانية مدريد في 11 مارس 2004، وتفجيرات مترو الأنفاق في العاصمة البريطانية لندن في 7 يونيو 2005 وغيرها من التفجيرات الأخرى - أثبتت أن منفذي تلك التفجيرات من المسلمين العرب، الذين يتمتعون بجنسية البلاد التي يقيمون فيها، ولذا أصبح مسلمو أوروبا لاسيما المسلمون العرب بمنزلة الموضوع الرئيس الأكثر استحواذا على اهتمام الرأي العام الأوروبي. وعندما صادق البرلمان الفرنسي على «مشروع قانون الحجاب» في فبراير 2004، شهدت البلاد في التو موجة عارمة من احتجاج المسلمين، كما أثار نشر صحيفة دانماركية «كاريكاتير يسخر من نبي الإسلام» في سبتمبر 2005 احتجاجات من المسلمين في أوروبا وفي العالم بأسره. وأدى موت صبي من المسلمين العرب في ضاحية باريس في أكتوبر 2005، بعد أن صعقه التيار الكهربائي جراء مطاردة البوليس له، إلى حدوث قلاقل واضطرابات في الشوارع استمرت زهاء أسبوعين. وانتشرت في أوروبا سلسلة من أعمال العنف على نطاق واسع ذات الصلة القوية بالمسلمين العرب والتي شكلت تهديدا خطيرا تواجهه جميع الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي في مجالات: الوظائف الاجتماعية، وسياسية الرفاه الاجتماعي، والأمن الاجتماعي، وسياسة الهجرة وسيادة الدولة، كما سببت عددا كبيرا من

المشكلات الاجتماعية.

فهل يمكن إيجاد حل مُرض لمشكلة المهاجرين؟ إن معالجة العلاقات بين المهاجرين العرب الوافدين والسكان المحليين بشكل أفضل قد أصبحت بمنزلة مشكلة مستعصية تواجهها حكومات تلك الدول.

أولا: أحوال المهاجرين العرب في أوروبا في العصر الحديث

شهدت هجرة العرب إلى أوروبا في العصر الحديث أربع مراحل رئيسة تمتد من أواخر القرن التاسع عشر حتى الوقت الحاضر، فالمرحلة الأولى كانت في الفترة من أواخر القرن التاسع عشر حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، وكان معظم المهاجرين في هذه المرحلة من عبيد المستعمرات بصورة أساسية؛ حيث أجبرت الدول التقليدية الأوروبية المتسلطة الاستعمارية الأقوياء والأشداء من الشباب العربي في مستعمراتها ما وراء البحار على الهجرة إليها بالقوة، وكان النفوذ البريطاني وقتئذ يتمركز بصورة رئيسة في مصر بشمال أفريقيا والسودان، والوجود الفرنسي يتمركز في دول الشمال الأفريقي: الجزائر، وتونس والمغرب، بينما ينتشر النفوذ الإيطالي في ليبيا. وكان عدد العبيد الذين هاجروا إلى أوروبا محدودا. وشهدت هذه المرحلة اندلاع حربين عالميتين، وكان الأوروبيون الذين يتجنبون كوارث الحرب قلما يدفعون العرب إلى الهجرة إلى أوروبا. وفي المرحلة الثانية التي امتدت من خمسينيات إلى ستينيات القرن العشرين، اتخذ شكل الهجرة إلى أوروبا تجنيد العمال واستقبال اللاجئين الفلسطينيين. وعرفت أوروبا مئات الأعمال التي نهضت دفعة واحدة بعد الحرب العالمية الثانية، وكانت إعادة بناء أوروبا بمنزلة المهمة الرئيسة. وبسبب الافتقار إلى القوة البشرية العاملة، قامت كل من إنجلترا وفرنسا وإيطاليا بتجنيد أعداد ضخمة من العمال في مستعمراتها في الأردن، وفلسطين، ولبنان، ومصر، والجزائر، والمغرب، وتونس، وليبيا وغيرها من الدول العربية، كما قامت ألمانيا، وسويسرا وغيرها من الدول الأخرى بتجنيد العمال الأتراك للعمل بمقتضى التعاقد الموسمي المؤقت. واندلعت حرب حامية الوطيس إبان تأسيس دولة إسرائيل في العام 1948، مما شرِّد السواد الأعظم من الشعب الفلسطيني من اللاجئين في جميع أصقاع العالم، وتدفق جزء منهم إلى أوروبا. ويمكن أن نعتبر كل هؤلاء المسلمين العرب منزلة الجيل الأول من المهاجرين، الذين ينحدرون من أصول عربية في أوروبا وعملوا في الخارج من أجل إعالة أسرهم وسد رمقهم، ولم يتمتعوا بحق اكتساب جنسية الدول التي هاجروا إليها، ولم يتقدموا بطلبات إلى سلطات تلك الدول للحصول على هذه الجنسية، ولم تظفر هويتهم الإسلامية بالاعتراف هناك، ولم يتمكنوا أيضا من ممارسة النشاطات الإسلامية علنا وجهارا. وشغلت المرحلة الثالثة حقبة

السبعينيات من القرن الفائت حتى ما قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001. وكان أغلب المهاجرين العرب إلى أوروبا في هذه المرحلة من العمال، والدارسين، والباحثين، واللاجئين السياسيين، وبلغت أعدادهم الذروة. وكانت الدول العربية تحررت آنذاك من الحكم الاستعماري الغربي وبدأت السير على درب الاستقلال، لكن كانت اقتصاداتها تعاني من الضعف والهزال، وتخضع لسيطرة الدول التقليدية الأوروبية المتسلطة، وتزامن ذلك مع دخول الاقتصادات الأوروبية مرحلة التنمية والتطوير، وباتت في حاجة ماسة إلى استيراد القوى العاملة لتلبية احتياجات صناعة البناء والصناعات الإنتاجية، وتدفق تيار جارف من عمال الدول العربية - التي تتمتع بتفوق العوامل الجغرافية والطبيعية والبشرية وتجمعها روابط اقتصادية تقليدية - إلى الدول المتسلطة التي استعمرت بلادهم في الماضي واستوطنوا فيها. وعلى الرغم من تطبيق الدول الأوروبية الغربية سياسة ترحيل القوى العاملة في ذلك الحين، لكن لم تنفذها بصورة صارمة، ولذلك استقر لفيف كبير من العمال العرب في أوروبا. وشرعت الدول الأوروبية تنظر بعين الاعتبار إلى حقوق الإنسان مع تنامي ثروتها، وأولت حقوق المهاجرين الأجانب نفس الرعاية والاهتمام، وهاجر عدد كبير من زوجات وأبناء العمال العرب الذين ينتمون إلى الجيل الأول إلى أوروبا. وفي الوقت نفسه، كان هناك الشباب العربي الذين سافروا إلى أوروبا للدراسة، ناهيك عن ثلة تباينت رؤاها السياسية مع القيادة في بلادهم ولاذت بالفرار إلى أوروبا طلبا للحماية، وكان معظمهم من المثقفين الذين يتمتعون بقدر وفير نسبيا من التعليم والثقافة. وشكل المهاجرون العرب في هذه المرحلة مع خلف الدفعة الأولى من نظرائهم الجيل الثاني من مهاجري أوروبا ذوي الأصول العربية الذين اتسموا بالازدواجية الثقافية جزاء التأثر بالثقافة العلمانية المسيحية في أوروبا والثقافة الإسلامية في بلادهم، وشرعوا في المطالبة بحقوقهم والاهتمام بتنظيم وإنشاء تجمعات المهاجرين، وممارسة الشعائر الدينية والأنشطة الثقافية بين المهاجرين المسلمين، والسعي الحثيث وراء مصالحهم وحقوقهم المعقولة مثل جعل الدين الإسلامي يتحلى بالشرعية في بلد المهجر، وتشييد المساجد، وتدشين الأنشطة الدينية، والاضطلاع بالتعليم الإسلامي وغيرها من النشاطات الأخرى، أما المرحلة الرابعة والأخيرة فتمتد من أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 حتى الوقت الحاضر، وشهدت تدفق المهاجرين العرب من أصحاب الكفاءات الفنية والمستثمرين. فقد أصدرت الولايات المتحدة الأمريكية العديد من القوانين لتعزيز الإجراءات الأمنية داخل البلاد بعد أن تعرضت للهجوم الإرهابي في 11 سبتمبر 2001، وفرضت قيودا صارمة على الحرية الشخصية للمهاجرين؛ ما دفع العرب من ذوي الكفاءات الفنية والعلمية الممتازة

إلى مغادرة الولايات المتحدة والتوجه إلى أوروبا، كما وقع اختيار الطبقة المتوسطة الثرية في منطقة الخليج على الهجرة إلى أوروبا بشكل أكبر حتى توفر للجيل القادم هناك المناخ التعليمي الجيد.

وتنتهج معظم الدول الأوروبية سياسة حرية الاعتقاد الديني، وتحتاج إلى تقصي حقائق المواطنين الذين يؤمنون بالأديان، ولم تتوافر لديها دائما إحصاءات سليمة من أعداد المسلمين العرب في أوروبا منذ زمن بعيد. وأصدرت وزارة الخارجية الأمريكية «تقرير حرية الديانات» في العام 2002، أشارت فيه إلى أن عدد السكان المسلمين في أوروبا، بما فيهم مسلمو باكستان، وتركيا وبنغلاديش، يناهز 23 مليونا بما يعادل 5 في المائة من إجمالي عدد السكان في أوروبا. وجاء ترتيب الدول التي تبوأت المراكز العشرة الأولى على النحو التالي: فرنسا 4 ملايين و500 ألف نسمة، ألمانيا 3 ملايين، إنجلترا مليون و400 ألف نسمة، بلغاريا مليون و100 ألف نسمة، وإيطاليا مليون نسمة، وهولندا 900 ألف نسمة، وأسبانيا 400 ألف نسمة، وبلجيكا 370 ألف نسمة، واليونان 370 ألف نسمة، وسويسرا 310 آلاف نسمة[2]. وعقدت مجموعة الخبراء التابعة للجنة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية للأمم المتحدة مؤتمرا دوليا بعنوان «الهجرة الدولية والتنمية في المنطقة العربية» في العاصمة اللبنانية بيروت في الفترة من 15-17 مايو 2006، وأظهر تقرير المؤتمر أنه في العام 2000 كان يعيش زهاء 4 ملايين و900 ألف نسمة من المسلمين العرب في دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD)[*] بما يمثل 11.8% من إجمالي عدد المهاجرين في دول (OECD)، ومقارنة ذلك بالمهاجرين في المناطق الأخرى، فإن المنطقة العربية تعد المصدر الرئيسي للمهاجرين في تلك الدول، ويمثل عدد المهاجرين القادمين من دول المغرب العربي (الجزائر، وتونس والمغرب) 70% من إجمالي عدد المهاجرين العرب، بما يعادل 3 ملايين و500 ألف نسمة تقريبا، وإذا أضفنا إليهم المهاجرين القادمين من لبنان، والعراق، ومصر، فإنهم جميعا يمثلون 90% من إجمالي مهاجري المنطقة العربية. ومن بين الدول الأعضاء في منظمة .(OECD) تأتي الدول الأوروبية في صدارة دول هذه المنظمة في استقبال المهاجرين العرب، وجاء ترتيبها على النحو التالي: فرنسا (مليونان و400 ألف نسمة، و48.1%)، وأسبانيا (355 ألف نسمة، 7.2%)، وإيطاليا (310 آلاف نسمة 6.3%)، وهولندا (220 ألف نسمة، 4.5%)، وإنجلترا (152 ألف نسمة، 3.1%)، وبلجيكا (150 ألف نسمة، 3%)، والسويد (122 ألف نسمة، 2.4%)، واليونان (52 ألف نسمة، 1%) وألمانيا (43 ألف نسمة، 0.83%)، والدنمارك (42 ألف نسمة، 0.81)، وسويسرا (37

(2) Buijs F J. Rath J. Muslims in Europe: The state of Research IMI. The Netherlands: University of Amsterdam press, 2002.

ألف نسمة، 0.71%) والنرويج (24 ألف نسمة، 0.46%)، والنمسا (20 ألف نسمة، 0.38%)[3].

وبالقاء نظرة شاملة على أوضاع انتشار المهاجرين المسلمين العرب في جميع الدول الأوروبية، وفي ضوء الجغرافيا الطبيعية، وعلاقات التبادل الاقتصادية التقليدية، فإن فرنسا هي الدولة التي يقصدها بصورة رئيسة مهاجرو الجزائر، وتونس والمغرب، بل إن حوالي 90% من مسلمي الجزائر يهاجرون إلى فرنسا، بينما يتمركز مسلمو ليبيا في إيطاليا، ويقطن معظم المهاجرين المصريين في اليونان وإنجلترا ويتوجه جزء آخر منهم إلى أستراليا وكندا. ويعتبر مسلمو لبنان الأكثر انتشارا في أوروبا؛ حيث ينتشرون في فرنسا، والسويد، وإنجلترا والدنمارك بشكل أكبر نسبيا. وتجدر الإشارة إلى أنه بعد أن أعاقت العقبات الكؤود مسيرة السلام في الشرق الأوسط، ومع استمرار تدهور الوضع الفلسطيني، وظهور الوضع الأمني المعقد في أعقاب حرب العراق 2003، استقبلت أوروبا كوكبة كبيرة من اللاجئين الفلسطينيين والعراقيين من أجل تقديم المعونة الإنسانية لهم حيث استقروا بشكل رئيس في فرنسا، وإنجلترا، والسويد، والنرويج، وفنلندا والدنمارك وغيرها من الدول الأخرى.

أما بخصوص أعمار المهاجرين، فيعد مهاجرو الدول الخليجية الأكثر شبابا مقارنة بمهاجري الدول العربية الأخرى، ويرجع ذلك إلى أن الذين تتجاوز أعمارهم أربعين عاما في الهيكل الديموغرافي للدول العربية الخليجية يمثلون أكثر من 50%، ولذا كان ثلاثة أرباع الذين هاجروا منهم إلى أوروبا تقل أعمارهم عن 35 عاما، وكان من بينهم أناس تزيد أعمارهم على 25 عاما، ويمثلون نصف هذا العدد[4]. ويمثل الطلاب الدارسون في الخارج أغلبية المهاجرين من الدول العربية الخليجية، ويكمن هدفهم في البحث عن الظروف الحياتية الأكثر تفوقا في مجالي الدراسة وفرص العمل، ومقارنة ذلك بأعمار المهاجرين من الدول العربية في شمال أفريقيا نجدهم أكبر سنا بصفة عامة. فعلى سبيل المثال 20% من مهاجري الجزائر، ومصر، وليبيا وتونس تتجاوز أعمارهم 65 عاما ويعتبرون أكثر من المهاجرين البالغين 55 عاما، ويمثلون نسبة تتراوح 30-40% من إجمالي المهاجرين في تلك الدول. وكان ذلك نتيجة اكتسابهم جنسية الدول التي هاجروا إليها بعد أن شاركوا ردحا طويلا في بناء أوروبا منذ حقبة ستينيات القرن العشرين. وقررت أوروبا تقصي حقائق المهاجرين إليها غداة منتصف تسعينيات ذلك القرن، وشجعت هجرة الفنيين الأكفاء، ولذا أظهرت أعمار المهاجرين القادمين من شمال أفريقيا الاتجاه نحو الشباب واليفاعة.

(3) Dumont J C. Immigrants from Arab Countries to the OECD: From the Past to the Future (R), UNDESA, 2006.
(4) United Nations Development Programme (UNDP) Arab Human Development Report, 2002 (R). UNDP,2002.

وفي غضون عشر سنوات من 1995 إلى 2004 تضاعف عدد المهاجرين المسلمين العرب في فرنسا وأسبانيا ثلاث مرات. وأشار أحد علماء الاجتماع إلى أن السنوات الأخيرة شهدت انخفاض معدل مواليد المسيحيين في أوروبا لدرجة أن بعض الدول أظهرت زيادة سلبية أو نقصا في هذا الشأن، بينما ارتفع معدل مواليد المسلمين بمن فيهم المهاجرون المسلمون غير العرب تدريجيا. وفي الوقت نفسه، أصبح المسيحيون طاعنين في السن، بينما يتزامن ذلك مع دخول الجيل الثاني أو الثالث من المسلمين مرحلة الشباب والحيوية، ويتجلى ذلك في أن 30% من المسلمين في فرنسا لم يبلغوا 20 عاما. ومع تقادم الزمن واستمرار الأوضاع على هذه الحال حتى العام 2020، فإن التقديرات تشير إلى أن عدد المسلمين في فرنسا سيقدر بربع العدد الإجمالي لسكانها، يزيد إلى النصف بحلول العام 2050[5]. وعلى الرغم من أن الزيادة المطردة في أعداد المسلمين قد ضخت دماء جديدة في شرايين أوروبا القابعة في الثقافة المسيحية التقليدية، بيد أنها جلبت عددا كبيرا من المشكلات الاجتماعية المعنية.

ثانيا: العلاقة بين المهاجرين العرب والتيارات الاجتماعية في أوروبا

مع التدفق المطرد للمهاجرين المسلمين من المنطقة العربية وسائر المناطق الإسلامية الأخرى إلى أوروبا، طرأ تغير في موقف التيارات الاجتماعية في أوروبا تجاه الإسلام والمسلمين من التسامح والترحيب إلى الحذر والحيطة وسوء التفاهم؛ بل حدثت صراعات ومجابهات بين الطرفين، وتجلى الحد الفاصل لهذا التحول في أحداث الحادي عشر من سبتمبر. ولم تفرض المجتمعات الأوروبية قيودا على الثقافات الأجنبية قبل تلك الأحداث، بل انتهجت سلسلة من الإجراءات، التي من شأنها دفع تطور تلك الثقافات إلى الأمام، لأن ذلك يتفق مع مبادئ الأحزاب اليسارية في أوروبا آنذاك، التي تسعى منذ أمد بعيد إلى إقامة مجتمع متعدد الثقافات، ومن ثم شهدت أوروبا إقامة تجمعات كبيرة تتحلى بالمكانة الاجتماعية المحددة بفضل الجهود المضنية المتواصلة للأجيال المتعاقبة من المهاجرين المسلمين الذين يعيشون في معية الحكومات الأوروبية، وظهر ذلك بصورة أساسية في المجالات التالية:

انتشار الإسلام يحظى بالمؤازرة

كان من أبرز مظاهر تأييد انتشار الإسلام الزيادة الهائلة في عدد المساجد، ففي العام 1961 بلغ عدد المساجد في أوروبا الغربية 382 مسجدا، من بينها، ولأسباب تاريخية، يوجد 350 مسجدا في اليونان (في منطقة ثريس Thrace الغربية وجزيرة روديس Rodos)، وعشرة مساجد في كل من ألمانيا الغربية (سابقا) وإنجلترا، وخمسة مساجد في هولندا،

(5) انظر مقال يين بن «مشكلة المسلمين في أوروبا» المنشور في مجلة «دراسة المشكلات الدولية» العدد رقم 1، العام 2006 (بالصينية).

وأربعة مساجد في فرنسا، ومسجد واحد في كل من إيطاليا، والسويد والنمسا، ولم تكن توجد مساجد في دول الاتحاد الأوروبي الأخرى. وبعد الزيادة الهائلة في أعداد المسلمين تدريجيا، أصبحت جميع الدول الأوروبية مطالبة بإظهار موقفها الإيجابي إزاء الحياة الدينية للمسلمين وزيادة الاعتمادات المالية المخصصة لتشييد المساجد، التي حققت أعدادها طفرة هائلة نتيجة ذلك. في العام 1971 بلغ عدد المساجد في أوروبا الغربية 607 مساجد، زاد هذا العدد ووصل إلى 2124 مسجدا في 1981، و4845 مسجدا في 1991، و6000 مسجد تقريبا في 1995. ومن تلك المساجد كان يوجد في الدول التي يتركز فيها المسلمون مثل فرنسا وألمانيا وإنجلترا 1500، و1000، و600 مسجد على التوالي في العام 1991؛ بينما يوجد في هولندا، واليونان، وبلجيكا 400، و400، و300 مسجد على التوالي[6]. وإمعان النظر في أحوال الدول التي يكثر فيها المهاجرون المسلمون، يظهر النسبة المباشرة بين عدد المساجد وأعداد المسلمين في كل دولة، وباتت المساجد تقف شامخة في المجتمعات الأوروبية من أجل هؤلاء المسلمين، وأصبح هناك المآذن السامقة والكنائس جنبا إلى جنب يسودها علاقة حسن الجوار والتعايش السلمي. وجسد ذلك أجواء الانفتاح ودمج الثقافات المتعددة في بوتقة واحدة في المجتمعات الأوروبية، كما أبرز للعيان أن الثقافة الإسلامية قد استطاعت أن تجد لها موطئ قدم هناك وتجذرت جذورها في تلك المجتمعات.

يتمتع المسلمون بالمكانة السياسية اللائقة

ظهرت قدرة المسلمين على الاندماج في المجتمعات المحلية في التمتع بالحقوق السياسية والمشاركة في الأنشطة السياسية، واستمدوا قوتهم ومقدرتهم على المشاركة في تلك النشاطات من إنشاء تجمعات المسلمين المتعددة. والفرق الجوهري بين الجيل الثاني من المهاجرين المسلمين العرب وأسلافهم يكمن في أن التحلي بخصائص ثقافية رفيعة إلى حد ما، ويدرك أهمية السعي الحثيث وراء الحصول على الحقوق والمصالح. وشارك الشباب المسلم الدارسون في أوروبا في أنشطة التجمعات الإسلامية واحدا تلو الآخر بغية الحفاظ على حقوقهم ومصالحهم. وتأسست فرنسا «جمعية الطلاب المسلمين الفرنسية» و«الجمعية الإسلامية» في العام 1963، وتأسست في أسبانيا في مدريد المنظمة الإسلامية وقوامها الطلاب المسلمون في 1971، وسرعان ما تأسست فروع تابعة لها في المدن الأسبانية الكبرى. وأسس الشباب المسلم في بلجيكا «المجلس الإسلامي العام» في 1963. وأصبحت المنظمات الإسلامية أكثر قوة وحيوية

(6) Kettani M A. Challenges to the Organization of Muslim Communities in Western (M). Netherlands: Kokpharos Publishing House, 1998.

بعد ثمانينيات القرن الفائت. وانتشر في جميع أصقاع الدول الأوروبية إنشاء التجمعات الإسلامية، ومن بينها الأجهزة الرسمية مثل: لجنة المسلمين في إنجلترا، واللجنة الإسلامية الأوروبية في فرنسا، كما توجد أيضا الأجهزة الشعبية مثل: الجمعيات الإسلامية في كل من هولندا، وبلجيكا والنمسا وغيرها من الدول الأوروبية. وساهم إنشاء تلك المنظمات الإسلامية بتوحيد صفوف المهاجرين المسلمين المحليين وزاد في فاعلية المشاركة السياسية للمسلمين، وفاز ناخبان عربيان بمقعدين في انتخابات التجديد النصفي للبرلمان الفرنسي في سبتمبر 2004. ويضم مجلس العموم البريطاني عضوين من المهاجرين المسلمين من بين أعضائه البالغ عددهم 659 عضوا، كما يوجد أربعة أعضاء مسلمين في مجلس اللوردات البريطاني، ويضطلع المسلمون في بلجيكا العاملون في الأجهزة التنفيذية الحكومية بمسؤولية نقل آراء المسلمين للحكومة ولذلك انسجم المهاجرون المسلمون مع المجتمع المحلي بشكل أكبر.

يتمتع المهاجرون المسلمون بالحقوق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية المناسبة

كانت أوروبا – قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر – تعترف بالنظم الاقتصادية القائمة على أساس المبادئ الإسلامية فقدمتم مثلا تدشين أول مصرف إسلامي بريطاني للأعمال المصرفية حسب القواعد الإسلامية وافتتاحه رسميا في مطلع العام 2001. كما لم تفرض العديد من الدول الأوروبية – قبل العام 2000 – قيودا خاصة على كل الأنشطة الاقتصادية التي يمارسها المسلمون داخل مؤسساتهم وشركاتهم وعقاراتهم، ومنحت معاملة أفضلية، وقررت الإعفاء الضريبي على جميع الحيوانات التي يذبحها المسلمون. وفي المجال الثقافي، خصصت كل من فرنسا، وإنجلترا، وألمانيا وبلجيكا وهولندا وغيرها من الدول اعتمادات مالية لمد يد العون والمساعدة للتجمعات الإسلامية من أجل إصدار مجلات أسبوعية، وتأسيس قنوات التلفزيون وتدشين الأنشطة الثقافية الترفيهية الخاصة بهم. وتعد النمسا مثالا نموذجيا في هذا الخصوص؛ فمنذ العام 1912 فصاعدا أقرت أن الدين الإسلامي يتمتع بحقوق المساواة مثل سائر الديانات الأخرى، ووافقت على تخصيص حصتين أسبوعيا في المدارس العامة لشرح المعارف الإسلامية. وتحتضن النمسا 40 ألف طالب مسلم يدرسون في 2700 مدرسة إعدادية وابتدائية في أنحاء البلاد، ويتقاضى 200 مدرس مسلم رواتبهم من لجنة التعليم الإسلامي التابعة للدولة، ويحمي الدستور حقوق أداء الشعائر والطقوس الدينية لمعتنقي الأديان، وتستطيع المرأة المسلمة ارتداء الحجاب في المدارس وفي دواوين العمل، كما يتمتع المواطنون المسلمون بالعطلات الدينية الخاصة بهم، بالإضافة إلى أن الحكومة خصصت قطعة أرض في

العاصمة فيينا تبلغ مساحتها 34 ألف متر مربع لبناء مقابر خاصة بالمسلمين[7].

إن أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 زلزلت أركان العالم بأسره ووجهت ضربة قاصمة وموجعة للقارة الأوروبية، وحدث جفاء وتنافر بين المسلمين العرب والمجتمعات المحلية رويدا رويدا بعد وقوع هذه الأحداث. وملأت «نظرية صدام الحضارات» الدنيا ضجيجا وعجيجا، وتحولت سعة الصدر تجاه المسلمين والاندماج معهم إلى حقد وسوء تفاهم. وبدأ بعض الذين يكنون العداد للمهاجرين المسلمين منذ أمد بعيد تتعالى صيحاتهم وصراخهم لـ «طرد المسلمين من أوروبا». والضجيج الإعلامي والمبالغة في وصف الأحداث من جانب وسائل الإعلام عمقا حقد وكراهية التيارات الاجتماعية في أوروبا تجاه تجمعات المسلمين ولاسيما المهاجرون العرب. وحدثت انشقاقات بين صفوف المهاجرين المسلمين بصورة مطردة؛ حيث التزم لفيف منهم الشريعة الإسلامية باعتبارها مقياسا للسلوك والأفعال، وانزووا داخل حظيرة المسلمين بشكل أكبر وقللوا اتصالاتهم واحتكاكهم بالخارج، بينما اتسم سلوك ثلة أخرى منهم بالانصياع والامتثال لقوانين الدولة التي يقيمون فيها بقدر المستطاع، ولم يألوا جهدا في الاندماج في حياة المجتمعات التي يعيشون فيها، ومدوا جسور العلاقة والتواصل مع الأجيال السابقة والعالم الإسلامي، وتفاقمت حدة التوتر في العلاقات بين المهاجرين المسلمين في أوروبا والتيارات الاجتماعية في الدول التي يقطنون فيها، وظهر ذلك في المجالين التاليين بصورة رئيسة:

تفشي ظاهرة كراهية التيارات الاجتماعية للمسلمين

نجاح الثورة الإسلامية في إيران العام 1979 جعل العالم العربي، الذي ذاق مرارة الإخفاق في الحروب مرة تلو الأخرى، يشعر ببصيص من الأمل، كما أن تدشين حركة البعث الإسلامي أثر في الجيل الثاني من المهاجرين العرب في أوروبا. وسارت التنمية الاقتصادية في أوروبا بخطوات وئيدة في أعقاب ثمانينيات القرن الفائت، وأصبح الحصول على وظيفة أمرا صعبا وشاقا، وأصبحت قوة منافسة المهاجرين المسلمين للأوروبيين جلية أكثر فأكثر، وبدأت مشاعر معاداة الأجانب تتأجج داخل نفوس الأوروبيين. وبحلول القرن الواحد والعشرين، شهدت مدينتان كبيرتان في أوروبا هجمات إرهابية بصورة متتالية (شهدت أوروبا هجمات إرهابية ومنها حادث تفجير مترو الأنفاق في لندن في 7 يونيو 2005)، وكان منفذو تلك التفجيرات ينتمون إلى الجيل الجديد من المهاجرين المسلمين ويتمتعون بجنسية الدول التي يقيمون فيها، واختلطت مشاعر دهشة وذهول المجتمعات الأوروبية بنداءات السياسة المناوئة للمهاجرين التي

(7) «تقرير الدراسات الاستراتيجية العربية 2004-2005» - مركز الدراسات الاستراتيجية - صحيفة الأهرام - القاهرة، مصر.

ملأت الآفاق، وظهرت موجة استنكار وشجب، ومقت وكراهية ضد المسلمين، الذين قاموا بأعمال التخريب والتدمير، وانحرفت تلك المجتمعات كلها تجاه سياسة اليمين. وعجزت بعض الأحزاب والتحالفات اليمينية عن تمييز العلاقة بين الإرهاب والإسلام وارتأت أن المساجد تعد مرتعا خصبا لإعداد العناصر الإرهابية، وشجعت الشعوب الأوروبية على معاداة الثقافة الإسلامية. ففي فرنسا زادت إجراءات مناهضة المسلمين بصورة أكبر، حيث قامت بعض وسائل الإعلام بمهاجمة المسلمين انطلاقا من نواياها السيئة، ناهيك عن تشويه صورة المسلمين في الصحف وبرامج التلفاز. وبعد وقوع تفجيرات مدريد المذكورة أعلاه، وإثبات القرائن أن المحرضين عليها هم من المسلمين المغاربة الذين ينتمون إلى تنظيم القاعدة، بدأت قوة اليمين في أسبانيا البطش والثأر من المسلمين وتدمير عدد من المساجد، وتجنب عامة الشعب الاحتكاك بالمسلمين. وفي إنجلترا، أعلنت جمعية المسلمين أن «مجتمع المسلمين بأسره أصبح هدفا للشرطة»، وأن الذين خضعوا للتحريات وتقصي الحقائق كانت نسبة المسلمين منهم تتراوح بين [8]98% - 95، أما في هولندا فكان سبب اغتيال مخرج سينمائي هولندي في أغسطس 2004 هو فيلمه الذي شوه صورة امرأة مسلمة تعرضت للظلم وقتلها شاب مغربي. وأثار هذا الحادث مشاعر تؤيد طرد العرب من هولندا ومن أوروبا كلها أيضا. وشهدت العديد من المدن الهولندية الكبرى إشعال النيران عمدا في المساجد وتدميرها، وأصدرت الحكومة الهولندية جهرا العديد من القوانين بغية تعزيز السيطرة على المهاجرين المسلمين مثل إحكام السيطرة على المساجد بشكل أكبر باعتبارها المركز الرئيس لنشاطات المسلمين، وفرضت قيودا صارمة على منح تأشيرات للدعاة من الدول الإسلامية، الذين يعتزمون السفر إلى هولندا، بل حتى الكثير من الكتل البرلمانية أيد حظر إرسال أئمة إلى البلاد بدءا من العام 2008، وبات الأئمة العاملون في المساجد بحث جون إلى اجتياز امتحان قدرات تعترف به الدولة، وجمدت الاعتمادات المالية المخصصة لبناء مساجد جديدة. وفي الدنمارك نشرت صحيفة كاريكاتيرا سياسيا يتألف من اثنتي عشرة صورة تسخر من الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وأيدت وسائل الإعلام في بعض الدول الأوروبية «حرية التعبير»، وتناقلت هذه الرسوم الكاريكاتيرية بمقتضى هذه الحرية، ولذا أثارت موجة عارمة من احتجاجات المسلمين في أوروبا وفي بقاع العالم كله، ورفض رئيس وزراء الدنمارك الاعتذار واتخذ موقفا متشددا ومتصلبا انطلاقا من قوة الثقافة المسيحية التي تؤازره. ولم يحدث ذلك فقط في الدنمارك، بل وفي

(8) جيانغ جيان قوى «مجادلات عنيفة مستمرة في مجتمعات أوروبا الغربية» - صحيفة «الشعب اليومية» الصادرة في 2005/1/28 (بالصينية).

العديد من الدول الأوروبية أيضا، فألمانيا طلبت من أئمة المساجد شرح المعارف الإسلامية باللغة الألمانية، ولم يحظ الدين الإسلامي بالاعتراف الرسمي في إيطاليا حتى يومنا هذا، وأصبحت المراقبة والسيطرة على المسلمين المحليين أكثر تشددا وصرامة[9].

شعور عدم الاعتراف بالتيارات الاجتماعية لدى المسلمين العرب في أوروبا

شهدت أوروبا تطور ثلاثة أجيال من المسلمين العرب. ومع ذلك تضطلع العديد من تجمعات المسلمين بالأعمال التي يعزف عنها المحليون الأوروبيون، كما أن مكانة المسلمين الاجتماعية متدنية بوجه عام. وذكر أحد الباحثين في مقال بعنوان: «المسلمون الغاضبون في أوروبا» أن «الأجيال الجديدة لهؤلاء المسلمين تعيش في عزلة، والأوروبيون هم الأسياد، وأن أبناء هذه الأجيال هم مواطنون أوروبيون اسما، بيد أنهم مازالوا يتعرضون للعزل والإقصاء ثقافيا واجتماعيا»[10]. وتربى الجيل الثاني من المسلمين في المناخ الثقافي الأوروبي وتميل أفكاره إلى التشابه مع الغرب رويدا رويدا، وأصبحت المطالبة بالمساواة أملا يداعب تجمعات الشباب المسلم، لكنهم اكتشفوا أن الفرص التي يقدمها المجتمع لتطوير المسلمين محدودة جدا. وتبددت آمالهم في خضم مجابهة الحقائق الاجتماعية القاسية، واتجهوا إلى الدين بحثا عن السلوى والطمأنينة ويحاولون البحث عن الذات من خلال الدين أيضا، بالإضافة إلى أن بعض الأئمة أعلنوا أنه «لا داعي لإقامة علاقة وصداقة مع الوثنيين الكافرين» و«رفض التعذيب»، ولذا بدأ بعض الشباب المسلم الابتعاد عن التيارات الاجتماعية الأوروبية وعدم الاعتراف بهوية الدولة التي يقيمون فيها.

وأظهر مسح للرأي العام حول الاعتراف بالهوية الوطنية أن 81% من مسلمي بريطانيا الذين شملهم المسح يعتقدون - في المقام الأول - أنهم مسلمون، وبريطانيون في المقام الثاني، وبلغت هذه النسبة 69% في أسبانيا، و66% في ألمانيا، و46% في فرنسا، التي تضم أكبر عدد من المهاجرين المسلمين. بينما بلغت نسبة المسيحيين في الدول المذكورة آنفا الذين يقرون بهويتهم الدينية أولا 24% في إنجلترا، و14% في أسبانيا، و33% في ألمانيا، و14% في فرنسا[11]. ويبرز ذلك للعيان أن شعور الاعتراف بهوية الدولة لدى المواطنين المسلمين في الدول الأوروبية يتضاءل كثيرا عن نظيره لدى المسيحيين. وتضاءلت مجالات الحياة أمام المسلمين الأوروبيين بعد أحداث 11 سبتمبر، ولم تعد تتميز بالوفرة والسعة كما كانت في

---

(9) الصور الكاريكاتيرية تؤجج غضب المسلمين ويتعين على الثقافة الغربية إعادة النظر في غطرستها [10-02-2006] (EB/OI).

(10) دينغ قانج «الامتزاج الثقافي يؤثر في سياسة العولمة» صحيفة «العولمة» الصادرة في 2005/8/3 (بالصينية).

(11) The Pew Global Attitudes Project. Muslim in Europe: Economic Worries Top Concerns About Religious and Cultural Identity [EB/OL], [2006-07-06]. http://Pewglobal. org/reports/display/php? report ID=254.

الماضي. وانتابت الشباب المسلم مشاعر الشك والارتياب تجاه معايير الأخلاق ووجهة النظر إلى القيم في المجتمعات الأوروبية، وأدى ذلك إلى تولد مشاعر عدم الانسجام بشكل أكبر بين المهاجرين المسلمين والمواطنين المحليين، بينما أدى تغلغل قوة التطرف الإسلامي الخارجية في أوروبا بصورة مطردة إلى تعزيز إمكانية حدوث مجابهة بصورة تدريجية بين هؤلاء الشباب والمجتمعات التي يستقرون فيها.

وأصبحت مشكلة دمج المهاجرين أكثر المشكلات عرضة للانفجار في فرنسا، التي تنتهج سياسة التسامح إزاء الثقافات الأجنبية. وأقيمت مباراة لكرة القدم بين الجزائر والفريق القومي الفرنسي، وأثناء عزف النشيد الوطني الفرنسي صدرت من المهاجرين الجزائريين، الذين ينتمون إلى الجيلين الثاني والثالث وأصبحوا من المواطنين الفرنسيين، أصواتا تنم عن عدم الاحترام، مما أصاب الرأي العام الفرنسي بالدهشة والذهول. إن الأجيال الجديدة لهؤلاء المهاجرين لا تعترف بفرنسا، بل تعترف بوطن أجدادهم وأسلافهم. والأيدي الآثمة التي اغتالت المخرج السينمائي الهولندي تنتمي إلى حلف المهاجرين المغاربة، الذين على الرغم من أنهم ولدوا في هولندا، ويتحدثون اللغة الهولندية بطلاقة ونالوا قسطا وفيرا من التعليم، لكنهم لا يقبلون «حرية التعبير» التي تمثل جوهر وجهة النظر الأساسية للقيم في الغرب فساروا على درب العنف في نهاية المطاف. وعدد لا يحصى من الأتراك الذين ولدوا في ألمانيا والطلاب العرب في المدارس الإعدادية والابتدائية، وخاصة الطالبات، يتخذون من الشرائع الإسلامية سببا لعدم حضور دروس التربية الرياضية، وعدم المشاركة في الأنشطة السياحية الخارجية التي تنظمها المدارس، ناهيك عن عدم حضور دروس التربية الجنسية أيضا. وفي الواقع، إنهم يصنعون تحديات أمام قوانين ولوائح نظام التعليم الإجباري، ولذا يعتقد الرأي العام في أوروبا الغربية بصفة عامة أن سياسة الامتزاج، التي اضطلعت بها الحكومة في جميع الدول منيت بالفشل إلى الآن، ولم ينصهر المهاجرون المسلمون في بوتقة المجتمعات في غرب أوروبا، بل كون مهاجرو كل بلد إسلامي «مجتمعا خاصا بهم» معزولا عن السكان المحليين وتحكمه في الداخل مجموعة من القوانين الخاصة بهم أيضا، وأشار بروفيسور في إحدى جامعات روما إلى أن تفجيرات لندن يجب أن تدفع الأوروبيين إلى التفكير العميق، وعلى الرغم من أنهم أظهروا إلى حد ما التسامح تجاه الدين الإسلامي والمسلمين، لكن كان كل ما فعله المسلمون نحو الديانات أو الثقافات المتعددة هو سياسة «التغاضي وعدم الاكتراث»، التي تتصف بالحدود الثابتة، وأن الطريق إلى «الاحترام الحقيقي» مازال بعيدا»[12].

(12) تفجيرات لندن جعلت «الحلم الأوروبي» لدى المهاجرين المسلمين صعب المنال (بالصينية).
[EB/OI] [2005-07-18] http://news.sin.com.cn/w/2005-07-18/11157253783.shtml.

ثالثا: اصطدام سياسة المهاجرين الجدد بمشكلة المهاجرين المسلمين

إن مشكلة المهاجرين في أوروبا مزمنة، وقد أصبحت مشكلة المهاجرين المسلمين، الذين أغلبهم من المهاجرين العرب تحتاج إلى المعالجة الحقيقية من جانب العديد من حكومات الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي. وإلقاء نظرة فاحصة وثاقبة على سياسة المهاجرين في أوروبا من خلال الـ 50 سنة الماضية تكشف لنا أن موقف أوروبا تجاه المهاجرين المسلمين اتسم بـ «المرونة أولا ثم بالتوتر». وعندما كانت أعدادهم قليلة نسبيا، استطاعت المجتمعات الأوروبية أن تتبنى أسلوب التسامح والود في التعامل مع الأقليات العرقية. ولكن مع تدفق المهاجرين المسلمين إلى أوروبا أكثر فأكثر، لا سيما بعد أن شغلوا العديد من الوظائف في المجتمع المحلي، أدى ذلك إلى ظهور بعض المشاكل الاجتماعية التي لا يمكن تجنبها، ويرجع المجتمع المحلي أسباب تلك المشاكل إلى المسلمين. ومن ثم تولدت الأفكار والأفعال التي تقوم بالتمييز العنصري ضد المسلمين. وبدأت سياسة أوروبا تجاه المهاجرين تميل إلى الحزم والصرامة في أعقاب أحداث 11 سبتمبر، وتضطلع كل دولة حاليا بتعديل قانون الهجرة مثل تطبيق شروط أكثر تشددا وصرامة تجاه الأسر التي اجتمع شملها، فالمتقدمون للحصول على الجنسية يتعين عليهم إتقان لغة الدولة التي يطلبون جنسيتها، والتعجيل بإنهاء إجراءات طلبات اللاجئين السياسيين، وإلغاء العلاوة المعيشية أثناء انتظارهم البت في تلك الطلبات، ورفض طلبات الذين تم طردهم وإبعادهم ونفيهم من البلاد في أسرع وقت ممكن والضرب بيد من حديد على رؤوس كبار المهربين. وأقرت إيطاليا اللوائح الجديدة لقانون الهجرة في يونيو من العام 2002 والتي اقتصرت حقوق التمتع بالأسرة التي اجتمع شملها على الأبناء القصر والمعاقين البالغين، وإذا دخل البلاد مهاجر غير شرعي يتم طرده، لأن ذلك يعد عملا إجراميا ومخالفا للقانون ويحكم عليه بالسجن لمدة تتراوح من 1-4 سنوات، والذي يساعد على دخول المهاجرين غير الشرعيين يحكم عليه بالسجن أيضا لمدة تتراوح من 4-21 سنة وغرامة مالية قدرها 15 ألف يورو، كما دخل قانون الهجرة الجديد في الدنمارك حيز التنفيذ في أول يوليو من العام نفسه، الذي ينص على أن حق الحصول على الإقامة الدائمة يجب أن يمنح للذين يقيمون في الدنمارك لمدة سبع سنوات بدلا من ثلاث سنوات، ويتعين عليهم توفير أسباب الحياة لأنفسهم وإجراء تخفيض كبير على التكافل الاجتماعي الذي يتمتع به المهاجرون، ولايجوز للاجئين السياسيين الذين تقدموا بطلبات الانزواء والاختفاء وإلا سترفض الحكومة طلباتهم، أما قانون الهجرة الجديد في هولندا فينص على أن الدخل السنوي للمهاجر الجديد يجب أن يكون أعلى بنسبة 30% من أقل

راتب وقدره 14 ألفا و500 يورو حتى يمكن قبول زوجته[13].

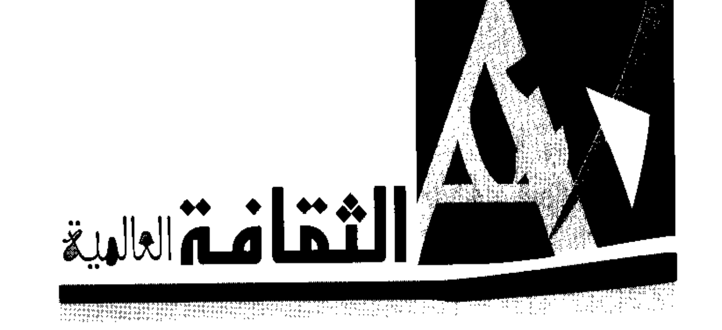
وعلى الرغم من تشديد وتغليظ شروط الهجرة عن ذي قبل، إلا أن أعدادا غفيرة من جماهير الشعوب الأوروبية تتخذ موقفا إيجابيا من المهاجرين المسلمين القادمين من المنطقة العربية. وأظهر مسح شعبي (لم يشتمل على المهاجرين المسلمين) أن 58% من عامة الشعب في فرنسا، و57% في إنجلترا و62% في أسبانيا يعتقدون أن مهاجري الدول العربية يحظون بالترحيب في بلادهم، وأعربت المهاجرات العربيات اللائي خضعن للمسح عن ارتياحهن تجاه الحياة في الوقت الحاضر ويقدر عددهن بـ 62% في فرنسا، و58% في إنجلترا و46 في أسبانيا، ويظهر ذلك أن الضربة التي تلقتها أوروبا غداة أحداث 11 سبتمبر كانت محدودة. وتعترف الجماهير الشعبية في أوروبا بأن المهاجرين المسلمين جلبوا الثروة والازدهار للمجتمعات الأوروبية، التي بدورها منحتهم الحكمة والثقافة الحديثة. وفي ضوء ذلك، فقد أدركت البرلمانات والتكتلات الشعبية في دول الاتحاد الأوروبي والمنظمات الإسلامية وجزء كبير من المسلمين أهمية الاحترام المتبادل وسعة الصدر التي تجمعهم سويا، ولا يوجد سوى التعايش في وفاق الذي يستطيع أن يدفع التنمية السليمة في المجتمعات الأوروبية كلها إلى الأمام. وتشهد تلك المجتمعات الثقافات المتعددة والتنمية المشتركة منذ ردح طويل، ووجود المسلمين أصبح حقيقة موضوعية ولا تربطهم بالإرهاب علاقة مؤكدة. وكان «طرد المسلمين من أوروبا» من أفكار القوميين المتعصبين أصحاب النظرة الضيقة، ويجب على كل دولة أن تبحث بصورة إيجابية عن أفضل السبل لتحقيق دمج العديد من القوميات حسب خصائصها وسماتها، مثل القانون الفرنسي الذي يسمح للمرأة المسلمة التي تعمل في الشرطة بارتداء البزة الرسمية والحجاب أثناء تأدية عملها، وحثت لجنة الاتحاد الأوروبي الدولي الأعضاء البالغ عددهم 25 دولة على توجيه ضربة قوية للذين يمارسون كل أنواع التميز العنصري على اختلافها في إطار القوانين الموحدة بينها. وذكرت افتتاحية جريدة «فرانكفورت» الألمانية أنه يتعين على المهاجرين الاعتراف وقبول الثقافة المسيطرة والمهيمنة على أوروبا، ولا يعني ذلك ألبتة أنه يجب إخضاعهم لعملية «إضفاء الطابع الألماني» قلبا وقالبا، لكن يجب عليهم إتقان لغة الدولة التي يقيمون فيها والامتثال للقوانين والعادات التي تأسست في أوروبا عبر أجيال متعددة؛ ويعد ذلك بمنزلة السبيل الوحيد الذي يوفر الحماية للتعدد والتنوع الثقافي. وأشارت صحيفة «برلين» اليومية في افتتاحيتها إلى أنه يجب على المجتمع أن يقدم دوافع تبث الأمل في نفوس المهاجرين وقدرتهم

(13) في أي اتجاه تشير سياسة الهاجرين في أوروبا (بالصينية) [EB/OL] (2002-08-29)
- http://past.people.com.cn/GB/guandain/183/6103/7942/20020829/810884.html

على إحراز نجاحات. وإذا استطاعت دولة ما أن تمنح فرصة حقيقية للمهاجرين للارتقاء بمكانتهم، فإنهم سيبذلون جهودا مضنية مضاعفة للامتزاج والاندماج في مسقط رأسهم الجديد[14].

لقد أصبحت الأقليات العرقية المسلمة جزءاً لا يتجزأ من المجتمعات الأوروبية. وفي الوقت الحاضر تحل الأقليات ذات الثقافات المتعددة والقوميات المتعددة محل تلك المجتمعات ذات التقاليد الأحادية. ولذا فإن تحسين العلاقات مع تجمعات الأقليات، والاحترام المتبادل الحقيقي وبذل الجهود الدؤوبة للاندماج وتحقيق التكامل يمكن أن يساعد على إيجاد حل - في نهاية المطاف - لكل أنواع المشكلات الناجمة عن الانقسامات الاجتماعية ويسهم في دفع خطوات التكامل الأوروبي الحقيقي إلى الأمام.

(14) لي وي جيان «المسلمون الأوروبيون: التاريخ والأوضاع الراهنة» - مجلة «عالم المعرفة» مايو 2003 (بالصينية).



الكتب النادرة ورجال الثورة

بقلم: أندرو بيتغري*

ترجمة: د.إيهاب عبدالرحيم محمد

العنوان الأصلي للمقال: Rare Books and Revolutionaries

ونشر في مجلة History Today عدد يونيو 2007

لماذا تحتوي العديد من المدن الفرنسية الصغيرة على مكتبات رائعة من الكتب النادرة؟ هذا ما يجيب عنه هذا التقرير...

طوال عشر سنوات، ظلت مجموعة من الباحثين في جامعة سانت أندروز منهمكة في دراسة كبرى حول جميع الكتب التي طبعت باللغة الفرنسية قبل العام 1601.، وأدى هذا لقيام فريقنا بزيارات لجميع أنحاء العالم، لكن من بين أكبر المباهج التي صادفناها كانت فرصة استكشاف الثروات الاستثنائية التي تضمها المكتبات البلدية الفرنسية بين جنباتها.

* أستاذ التاريخ في جامعة سانت أندروز.

تمثل «المكتبات البلدية» Bibliothéques Municipales واحدة من أعظم الكنوز المجهولة في عالم المكتبات، وإذا تم تجميع محتوياتها معا، بدلا من كونها متناثرة عبر أرجاء فرنسا، فلابد وأنها سترقى لأن تصبح تراثا عالميا يجب الحفاظ عليه: فبشكل إجمالي، تمثل هذه المكتبات واحدة من أعظم مستودعات ثقافة عصري النهضة والتنوير الأوروبيين في العالم. ومع ذلك، فلا يزال هذا المصدر الرائع للمعلومات مجهولا إلى حد كبير، فحتى في الأوساط الثقافية الفرنسية، فإن المجموعات النادرة من الكتب المحفوظة في المكتبات البلدية تبقى قليلة الاستعمال، فلا يستفيد منها سوى المؤرخين المحليين والجمعيات الإقليمية.

يعود سبب هذا جزئيا إلى التفرد التام للتجربة الفرنسية في تشكيل المكتبات، ففي كل ما سواها من أجزاء العالم الغربي، نجد أن الجامعات أو المكتبات الوطنية الكبرى هي التي تحتفظ بأكبر مجموعات من الكتب النادرة.

وعلى العكس من ذلك، فإن الجامعات الفرنسية - بصورة إجمالية - لا تحتوي على مجموعات قيمة على وجه الخصوص من الكتب؛ لكن مكتبات المدن والبلدات هي التي تضم بين جنباتها أفضل المجموعات، وبعضها صغير الحجم، في حين أن البعض الآخر يبلغ حجما هائلا. وتتضمن هذه المكتبات العديد من الكتب الفريدة، وكثيراً جداً من الكتب الأخرى التي لا يمكن العثور عليها في أي مجموعة باريسية من الكتب - حتى في المكتبة الوطنية الفرنسية.

إذا سأل المرء عن سبب احتواء بلدات تقارب في حجمها مدن ريدنغ، أو ديدكوت، أو بلاكبيرن على مثل هذه الكنوز، فعليه - لكي يحصل على الإجابة - أن يتتبع بداية القصة التي تعود إلى الثورة الفرنسية. بيد أن هذا لا يخلو من مسحة من السخرية، لأن الصراعات الأيديولوجية المريرة، التي دارت في تلك السنوات بدا عند نقطة ما أنها قد تؤدي على الأرجح إلى تدمير جماعي للكنوز الثقافية الفرنسية، ومن بينها الكتب التي ضمتها مكتبات الأديرة، والقصور الأرستقراطية، والباحثين الأكاديميين. كانت هذه لتكون مأساة ثقافية يتعذر معرفة مداها، لأنه خلال القرنين السابقين للثورة، أدت فرنسا دورا متميزا في تطور المكتبات العامة، وكما هو الحال في المناطق الأخرى من أوروبا، تجمعت بعض أكثر مجموعات الكتب تميزا لدى المؤسسات الدينية. وخلال القرن الثامن عشر، كان عدد كبير من مكتبات الأديرة تلك تفتح أبوابها للجمهور؛ وكانت بعض هذه المجموعات كبيرة للغاية - ففي العام 1789، كان دير سان جينيفييف في باريس يحتوي على 60 ألف مجلد؛ في حين أن دير سان جرمان دو بري، الذي فتح أبوابه للجمهور منذ العام 1745، كان يضم 50 ألف مجلد، كانت كلها عبارة عن هدايا خاصة أرسلت إلى الدير. وفي مدينة تروي، ترك جاك هينينكوان كتبه في عهدة الدير الفرنسيسكاني المحلي - في العام 1651 - شريطة أن تكون متاحة لإطلاع الجمهور عليها. وفي العام 1745، قام م. دو إنغيمبير، أسقف كاربنتراس، بإنشاء مكتبة في البلدة، التي تضم الآن - وقد أعيد

DÉCRET

DE LA

CONVENTION NATIONALE.

Relatif à l'Établissement de Bibliothèques publiques dans les Districts.

مرسوم ثوري فرنسي صادر في العام 1794
ويقضي بإنشاء المكتبات العامة

تسميتها المكتبة البلدية - واحدة من أروع مجموعات الكتب في المقاطعات الفرنسية بأسرها. وفي العام 1768، ورثت مدينة أيكس - أن - بروفانس مجموعة من الكتب الشهيرة التي قام بتجميعها المركيز دو ميجان.

استقطبت الثروات الاستثنائية للمكتبات الفرنسية، خصوصا مجموعات الكتب المحفوظة في دور العبادة، الكثير من تعليقات المديح من المعاصرين، لكن للسبب نفسه، لم يكن من المحتمل أن تنجو من ملاحظة من استولوا على السلطة في العام 1789، الذين عقدوا العزم على محو كل ما من شأنه أن يشير إلى «النظام القديم». وفي الثاني من نوفمبر 1789، افترضت الجمعية التأسيسية للثورة ملكية جميع دور العبادة في فرنسا. كان هذا أكثر من مجرد مرسوم انتقامي؛ فخلال السنوات التالية، اهتمت الأنظمة الثورية المتعاقبة بصورة استثنائية بإعادة صياغة الإرث الثقافي لفرنسا ما قبل الثورة؛ وأدت الكتب دورا محوريا في مسعاها هذا.

كان التصميم على بناء مواطنين عقلانيين متنورين قريبا من القلب الأيديولوجي للمبادئ الثورية. منذ البداية، كانت المجلدات المصادرة من دور العبادة - التي تلتها مصادرة مكتبات النازحين والكتب التي كانت تقتنيها دوائر المثقفين - مخصصة للبناء المحتمل لشبكة من المكتبات في البلدات الفرنسية. لكن كان هناك قدر أقل بكثير من الوضوح في ما يتعلق بكيفية تنفيذ هذا المشروع على أرض الواقع. أشارت التقديرات المبكرة إلى أن الكتب المصادرة ربما بلغت 12 مليون مجلد، يجب تخزينها، وتبويبها وفهرستها قبل أن تُنقل إلى مقارها الجديدة.

أما مهمة تنسيق هذا المشروع الاستثنائي فقد تمت إدارتها من باريس من قبل سلسلة من اللجان الثورية، التي عمدت إلى استشارة العديد من الأكاديميين ومحبي الكتب البارزين، بيد أن عبء تحويل هذه الخطط الطموح إلى واقع ملموس كان في الحقيقة من نصيب السلطات المحلية في المقاطعات، حيث كان هناك قدر أقل بكثير من الحماسة للمشروع، وكان هذا راجعا في جزء منه إلى أن هذه السلطات لم تستطع ببساطة تحويل الموارد اللازمة لتأمين وفهرسة تلك المجموعات

الضخمة من الكتب، التي أصبحت الآن ملكا للدولة، كما كانت هناك أيضا شكوك حول العواقب المدمرة المحتملة لتطبيق المبادئ الثورية، لأنه تم التوضيح بسرعة أنه ليس مسموحا بوضع جميع الكتب المتضمنة في مكتبات الأديرة السابقة في المكتبات العامة الجديدة. كانت هناك مجموعات مفيدة ومثقِّفة من الكتب، أما الكتب «السامة» - أي كتب اللاهوت، والتصوف، أو تلك التي تدعم مؤسسات النظام الملكي (بما فيها النصوص القانونية) - فكان من اللازم استبعادها.

لا بد أن تطبيق مثل هذا المبدأ كان يعني تدمير قسم كبير للغاية من المقتنيات السابقة للأديرة أو التخلص منه، ومنها على وجه الخصوص تلك المقتنيات الثرية المتعلقة بالنصوص القانونية والدينية. وبالفعل فقد تم إحراق بعض الكتب أو إرسالها إلى مصانع «الخراطيش» بحيث يمكن إعادة تشكيلها في صورة ذخائر تستخدم في الحرب، فيما أرسل البعض الآخر إلى البيع بالوزن كأوراق مهملة. لكن تطبيق هذه المبادئ المتطرفة كان في معظمه جزئيا فحسب، إذ بقيت أعداد هائلة من كتب اللاهوت. وهناك العديد من الأمثلة على كتب لم تبق منها سوى نسخة واحدة، والتي أتت من مجموعات الكتب التي ضمتها دور العبادة السابقة. وتتضمن هذه الكثير من الكتب البروتستانية الفريدة، التي حافظ عليها بعناية أصحابها من رواد تلك الأديرة. وفي كثير من الأحيان، كان ينقش على صفحة العناوين لهذه الكتب «كتاب هيغونوني (بروتستانتي فرنسي) محظور» كتحذير للقارئ الغافل عن محتواه.

وبموجب مرسوم صدر في السابع والعشرين من يناير 1794، صار من مسؤولية المقاطعات المحلية توفير مبنى ملائم يصلح كمكتبة عامة محلية. وفي كثير من الأحيان، كان يمر وقت طويل للغاية قبل أن يتم إيجاد هذا المبنى وتجهيزه، وفي الوقت نفسه، كانت الكتب المصادرة تظل ملقاة في مستودعات كانت في كثير من الأحيان - ويا للغرابة - مقامة في دور العبادة السابقة نفسها.

ومع ذلك، فعندما تراكم الغبار على الحقبة الثورية، برمتها، كانت جهود حثيثة قد بذلت لإنشاء شبكة من المكتبات العامة عبر فرنسا. وعلى الرغم من أن جميع البدايات الخاطئة والطموحات التي لم تتحقق للسياسات الثورية، إلا أن العديد من البلدات في جميع أنحاء فرنسا صار يمتلك مكتبة للمرة الأولى في تاريخه، في حين ازدادت مقتنيات البعض الآخر بصورة هائلة بفعل المصادرات الثورية. وفي العام 1828، أرسل الموظف العمومي ج.ل.أ. بايلي لإجراء أول الدراسات المسحية الوطنية العديدة حول المصادر الفرنسية من المكتبات، وقد سجلت تقريره المنشور شبكة مؤلفة من 189 مكتبة بلدية تقع كلها خارج العاصمة باريس.

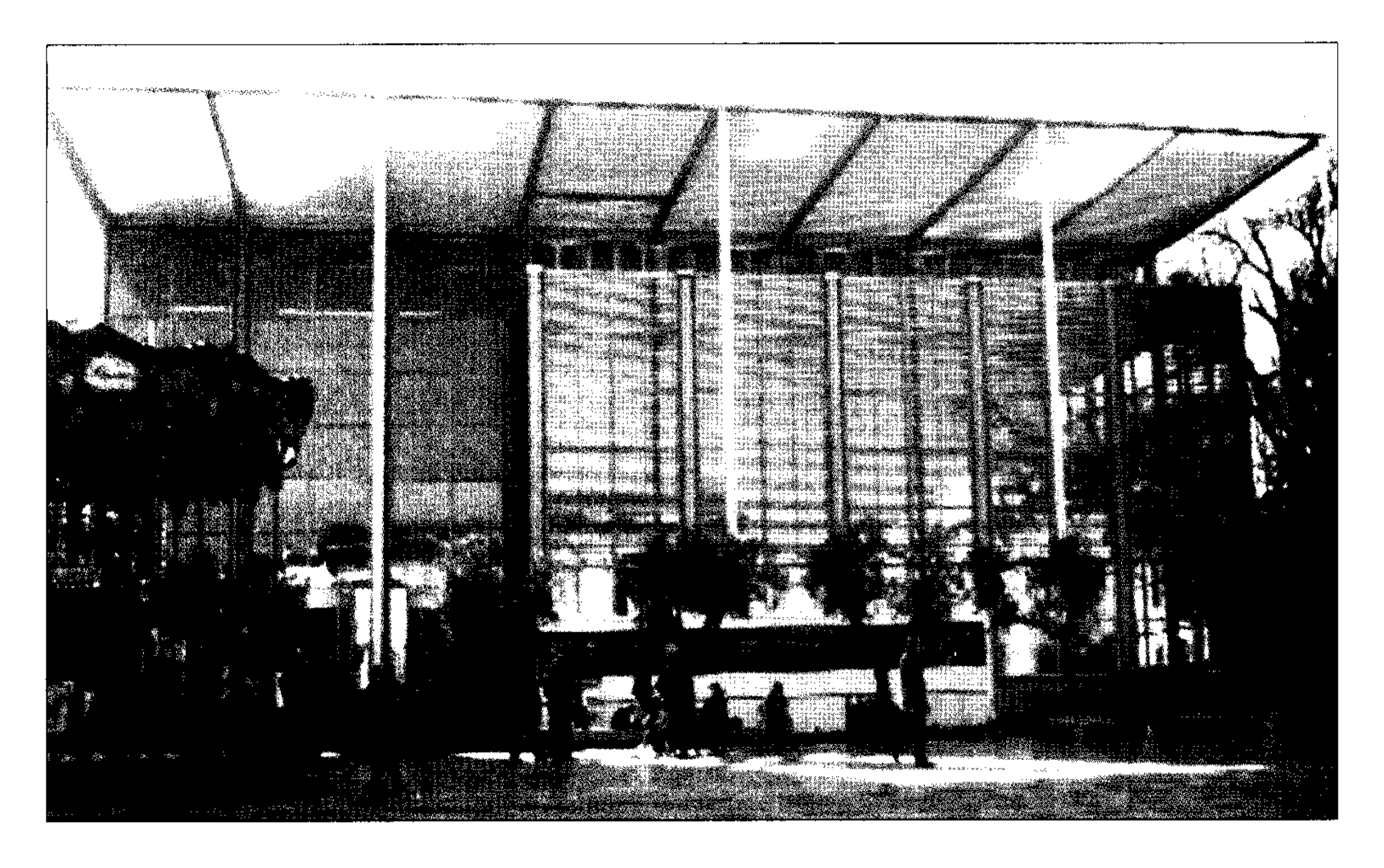
وعلى الرغم من هذا، فإنه، مع مرور سنوات القرن التاسع عشر، بات واضحا أن الإرث الثوري، مهما كان ثريا واستثنائيا بمعايير عالم الكتب، أصبح يمثل عبئا من أوجه متعددة، فبعد أن كانت تمثل مركزا مبكرا لثقافة المكتبات في القرن الثامن عشر تخلفت فرنسا عن التطورات التي كانت سائدة في جميع أرجاء أوروبا؛ فالتوجه إلى

الثقافة الجماهيرية والتعليم الواسع النطاق استلزم نوعا آخر من المكتبات، وبالتالي، فعوضا عن ذلك، أدى فشل المكتبات البلدية في تلبية هذه الاحتياجات إلى إنشاء طائفة منفصلة من المكتبات تهتم باقتناء النصوص الأكثر رواجا. تحولت مكتبات البلدات في معظمها إلى مكتبات مرجعية، يكثر التردد عليها من قبل الباحثين الأكاديميين، وكانت تفتقر إلى التمويل في كثير من الأحيان، كما باتت مقيدة بفعل تقليدها المتمثل في اقتناء الكتب والمحافظة عليها، وأسلوب عرضها الشبيه بمتاحف الكتب، كما أن ذلك لم يتغير خلال الثلث الأخير من ذلك القرن، وهي فترة بالغة الأهمية في نشوء جمهور عريض للثقافة الجديدة. ما بين العامين 1871 و1914، كانت الجمهورية الفرنسية الثالثة مشغولة في الغالب بمشكلة التعليم العالي وتطوير مكتبات الجامعات، وبالتالي لم تكرس سوى القليل من الاهتمام للمكتبات البلدية.

واستمر هذا الفشل في التعاطي مع التغيرات الديناميكية في المجتمع المعاصر. في الوصف التاريخي النمطي للمكتبات الفرنسية نجد أن الفترة ما بين العامين 1914 و1945 تلقب باسم «التخلف الفرنسي»؛ وتخلص إلى ملاحظة واحدة مفادها «السبات العميق للمكتبات البلدية». وإحقاقا للحق، يجب الإشارة إلى أن المشكلات الثقافية الموروثة من القرن التاسع عشر قد تضاعفت بفعل النزاعات شديدة التدمير خلال الحربين العالميتين. ففي الحرب العالمية الأولى، التي دارت رحاها ما بين العامين 1914 و1918، تم تدمير المكتبات البلدية في قسم كبير من شمال فرنسا؛ في سان كانتان، سواسونز، كومبيغ، ريتال، نويون وبوناموسون؛ كما تعرضت المجموعات المهمة في كل من آراس وفيردون لتلف شديد، أما الغزو الألماني واحتلاله فرنسا ما بين العامين 1940 و1944، فقد جلب معه مزيدا من الخراب؛ حيث تعرضت مكتبة بوفيه للتدمير الشامل بفعل القصف الألماني، وكذلك تم تدمير المكتبة البلدية في تور، والتي كانت تضم مجموعة مؤلفة من 200 ألف مجلد منها 400 كتاب ترجع إلى القرن الخامس عشر. وكان لحملة تحرير فرنسا بدورها أثر مدمر، فقد تم تدمير مكتبة شارتر البالغة الأهمية، التي كانت تضم 1350 ألف مجلد بفعل القصف الأمريكي في يونيو من العام 1944؛ في حين تعرضت المكتبة البلدية في ديي للتدمير من قبل القوات الألمانية المنسحبة قبل يوم واحد من تحرير تلك البلدة في الثلاثين من أغسطس 1944. وبصورة إجمالية، تعرض نحو 59 مبنى لدمار شديد، في حين تمت تسوية 29 مبنى آخر الأرض.

وكذلك ففي الفترة التالية للحرب، عانت المكتبات الفرنسية من مشكلة المحافظة على ذلك التراث الثقافي الفريد، الذي ظل في معظمه غير ذي أهمية بالنسبة للسواد الأعظم من روادها، في الوقت الذي باشرت فيه بالمهمة الهائلة المتمثلة في إصلاح هذه الكتب وترميمها. كان التعافي بطيئا، وفي يوليو من العام 1967، نشرت صحيفة «لوموند» سلسلة من المقالات عن «مكتبات بلا قراء».

وعلى أي حال، كان ذلك مبالغة في وصف الوضع؛ فقد شهدت العقود الثلاثة التالية



المكتبة البلدية في نيم، التي صممها السير نورمان فوستر (1993)، تمثل واحدة من الجيل الجديد من «مكتبات الوسائط» الفرنسية

لعام 1945، في الحقيقة، فترة من التغيرات العميقة، على رغم كونها غير مميزة، في مهمة المكتبات البلدية، فخلال تلك الحقبة، تبنت هذه المكتبات وسائل الإعلام الحديثة، وقدمت خدمات جديدة، ووجدت جمهورا جديدا. فقد بدأت، على سبيل المثال، تهتم بكتب الأطفال للمرة الأولى. وخلال خمس عشرة سنة (1989 - 1974) تضاعف عدد المكتبات البلدية في فرنسا تقريبا، فبلغ 1.581 مكتبة بعد أن كان 804. كان العديد من هذه المكتبات الجديدة بمنزلة فروع في الضواحي تابعة للمكتبة الرئيسة في البلدة، لكنّ كثيرا من المدن شرعت بدورها في تنفيذ خطط طموح لإقامة مبان جديدة أكثر ملاءمة لذلك الطيف من الخدمات الجديدة التي تقدمها المكتبة. وقد قادت مدينة ليون هذا الاتجاه، مع افتتاح مكتبتها الجديدة كليا في العام 1972؛ أما المبنى الجديد لمكتبة مدينة ميتز، الذي افتتح في العام 1977، فكان أول مبنى يطلق عليه اسم «مكتبة الوسائط» Médiathéque، مما يعكس الطبيعة المتغيرة لوظائفها والمصادر التي تقدمها لروادها. وقد تم افتتاح المزيد من مكتبات الوسائط في مدن نانت (1985)، ولو مان (1988)، وبوردو (1991)؛ أما في أيكس - أن - بروفانس، فقد تم تحويل مكتبة ميغان في العام 1989 إلى «مدينة الكتب» الجديدة، وهي مشروع تخيلي أقيم في موقع كان يشغله في السابق مصنع لأعواد الثقاب. بالنسبة لأولئك الذين لا يرون سوى المعارك المتواصلة في بريطانيا بين السلطات البلدية والمواطنين الغاضبين من أجل الحيلولة دون إغلاق المكتبات، فإن المبالغ التي أنفقت على هذه المشروعات تحبس الأنفاس، لكن العديد من المدن الفرنسية تتخيل مكتباتها الجديدة باعتبارها مركزا للفخر والمكانة المحليين. ففي مدينة نيم Nimes، نجد أن مكتبة الوسائط

الجديدة التي صممها «مكتب فوستر وشركاه» في العام 1993، تمثل قطعة تنطوي على رؤية من الهندسة المعمارية الحديثة، وهي تتناغم تماما مع الآثار الرومانية المحيطة بها.

ويستمر هذا التجديد في مباني المكتبات، حيث تم افتتاح مكتبات جديدة في مدن تروي Troyes، ورين Rennes، ومونبلييه Montpel-lier خلال السنوات الخمس الأخيرة، لكن التحولات التي طرأت على المكتبات الفرنسية داخلية أيضا، فحتى المكتبات، التي ظلت محتفظة بمبانيها القديمة، قامت بإجراء تغييرات شاملة على مساحتها الداخلية. وبحلول العام 1989، كان نحو 500 من المكتبات البلدية الفرنسية قد افتتح صالة للرقص Discothéque، تضم مكتبة للتسجيلات، حلت محلها الآن الأقراص المدمجة CDs وأقراص الفيديو الرقمية DVDs، ومعظمها يوفر الآن وصولا إلى شبكة الإنترنت أيضا.

نجحت المكتبات البلدية في استعادة مكانتها في الحياة اليومية الثقافية، لكن الاستخدامات الإضافية لتسهيلات المكتبة، على الرغم من أنها مرضية في حد ذاتها، كانت لها تأثيرات حتمية على مستخدمي مجموعات الكتب النادرة، فتماما كما حُكم في السابق على المكتبات البلدية باعتبارها غير ذات صلة بالحياة الثقافية للسكان المحليين، ينطبق الوضع نفسه على مجموعات الكتب القديمة - التي يتوجب المحافظة عليها وترميمها - التي لم تعد محورية بالنسبة لمهمة مكتبات الوسائط الجديدة. وفي جميع أرجاء فرنسا، تكيفت المكتبات على هذه المعضلة بطرق متباينة تماما: فقد اختار معظمها تخصيص غرف خاصة لمطالعة الكتب النادرة، أو غرف التراث Patrimoine، والتي حققت نتائج باهرة في كثير من الأحيان. لا يمكن لأي شخص أن يعمل في غرفة التراث بمكتبة الوسائط في لاروشيل، بإطلالتها الرائعة المطلة على الميناء القديم، من دون أن يتشرب ببعض الاعتزاز، الذي يشعر به سكان المدينة تجاه تراثهم الثقافي.

وفي الوقت نفسه، تفتقر العديد من البلدات الأصغر لغرف منفصلة للاطلاع على الكتب النادرة، على الرغم من أنها قد لا تزال تحتوي على مجموعات معتبرة من الكتب القديمة؛ وفي هذه الحالات، تنقل الكتب النادرة إلى غرف المطالعة العادية، حيث يتنافس الباحثون على مكان القراءة مع المستخدمين العاديين، ومع أصحاب المعاشات والمحاربين القدامى الموجودين هناك باستمرار. بمجرد أن يقهر المرء هواجسه المتعلقة بالمحافظة على الكتب، وهي خبرة عملية تكتسب سحرا خاصاً بها، خصوصا عندما يتوقف القراء العاديون لتفحص ذلك التطفل الغريب على روتينهم المعتاد للقراءة. كثيرا ما عمل فريق سانت أندروز في زوايا صغيرة، منحشرين بين مكتبة الأطفال والمرقص، وهم يطالعون كتبا ذات قيمة عظيمة وأهمية محلية معتبرة. في إحدى المكتبات الصغيرة، تم توجيهي لصعود درج حلزوني وصولا إلى العلية atic، حيث تم تخزين الكتب القديمة. في حين كان أبنائي يلعبون في ركن الأطفال بالأسفل، كنت أتفحص الكتب المتراصة فوق الرفوف. لم أجد سوى أربعة كتب من القرن السادس عشر، لكن أحدها كان طبعة غير معروفة من

قبل لأحد كتب بلوتارخ (Plutarch: كاتب سير إغريقي).

كان الوقوع المرتفع للكتب النادرة، والفريدة في كثير من الأحيان، ضمن هذه المجموعات الصغيرة من الملامح المميزة لعمليات البحث التي قمنا بها، وربما كان الأمر أقل إثارة للدهشة مما يبدو للوهلة الأولى، ففي حين أن الكتب المتبقية من القرن السادس عشر كانت شائعة للغاية - إذ أحصينا وجود ما يصل إلى مائة نسخة متبقية من بعضها - فأكثر من نصف الكتب البالغ عددها 52 ألفاً، والمتميزة ببليوغرافيا، والمدرجة في قائمتنا البيليوغرافية المسماة «الكتب العامية الفرنسية» لم يبق من كل منها سوى أقل من أربع نسخ؛ في حين لم يتبق من أكثر من 150 ألف عنوان سوى نسخة واحدة: ومما لا شك فيه أن كثيرا من الكتب قد فُقد كلية. وحتى المجموعات، التي تتألف في معظمها من المكونات الثابتة من هذه المجموعات البلدية، أي كتب التاريخ والنصوص القانونية، وتجميعات القوانين المحلية، تزودنا بمعلومات ساحرة عن أصحابها الأصليين، وعن الأغراض التي تم من أجلها تأليف هذه الكتب في المجتمع الحضري للقرن السادس عشر. تضم المكتبة البلدية في سان Sens، ضمن مجموعة تضم 100 كتاب من القرن السادس عشر فحسب، ما لا يقل عن ثلاث نسخ من كتاب العادات المحلية، وأحدها عبارة عن نسخة عرض جميلة منسوخة على رق الغزال ومزدانة بزخارف يدوية من أجل الملك هنري الثاني، وهناك نسختان للقراءة، إحداهما مليئة بالأوراق التي تحتوي صفحاتها على عدد كبير من الحواشي التي دونت فيها قرارات السلطات البلدية المحلية.

ورغم الأعباء الخاصة، التي ترهق كاهل الميزانيات المحلية من أجل المحافظة على هذا الإرث الثقافي، سعى عدد قليل من البلديات لنقل عبء المحافظة على تلك الكتب إلى أرشيف حكومي وطني أو إلى مكتبة إحدى الكليات. وبعيدا عن السماح بتضاؤل أو تفرق مجموعاتها من الكتب النادرة، تم تعزيز العديد من هذه المجموعات بصورة كبيرة في السنوات الأخيرة، سواء بإضافة المجموعات الكبيرة التي تم التبرع بها، أو عن طريق الشراء. وبفضل عمليات الشراء هذه، والمحافظة الحريصة على الإرث الثقافي المحلي، تعد المكتبات البلدية أكبر مستودعات الأمثلة على المطبوعات الإقليمية الفرنسية التي تعود إلى القرن السادس عشر.

ومن جانبهم، يتوق العاملون في المكتبات البلدية المحلية إلى رؤية مقتنياتهم وهي تستخدم على نطاق أوسع. مما لا شك فيه أن الإهمال الذي تتعرض له مجموعاتهم يعود في جزء منه إلى غياب فهرس مركب موثوق به، الذي يسمح بالتعرف السريع على كتاب بعينه. إن نشر أول قائمة متكاملة للكتب العامية الفرنسية من القرن السادس عشر، والذي تم في العام 2007، يعد محاولة جادة لإصلاح هذا النقص، ويؤمل أيضا أن تتمثل إحدى نتائجه في زيادة وعي الجمهور بالمكتبات البلدية الفرنسية؛ وهي جزء فريد من التراث الثقافي للعالم، بالإضافة إلى كونها تجربة عمل استثنائية تماما بالنسبة للباحثين المهتمين.

مدينة بلا انبعاثات ضارة في الصحراء

تقوم أبوظبي، الغنية بالنفط، ببناء مدينة خضراء
فهل ينبغي أن يبدي باقي العالم اهتمامه بذلك؟

بقلم: كيفين بوليس

ترجمة: معاذ فوزي قشوع

العنوان الأصلي للمقال: A Zero - Emissions city in the Desert

ونشر في مجلة Technology Review عدد مارس - أبريل 2009

مشروع أصبحت ملامحه الأولى واضحة للعيان، فجدار أبيض يمتد عبر الصحراء مثل خط من الطباشير على ملعب رملي، وحافلة بشبابيك معتمة تثير غيمة منخفضة من الغبار، تنقل العمال متجاوزة مجموعة من الرافعات الفولاذية، وآلتا حفر محمولتان، وموقع لأعمدة إسمنتية تنفذ من أعلاها قضبان فولاذية بلون الصدأ، وسياج مرتفع من الأسلاك يحمي صفوفا من ألواح شمسية solar panels مثبتة على منصات إسمنتية.

المنشأة عبارة عن بداية لتجربة ضخمة، ومحاولة لإنشاء أول مدينة في العالم خالية تماما من المركبات، ومن انبعاثات غاز ثاني أكسيد الكربون، ومن النفايات، ويتوقع الانتهاء منها في العام 2016، وتعد هذه المدينة واسطة العقد لمبادرة مصدر[1]، وهي استثمار يبلغ 15 مليار دولار من قبل حكومة أبوظبي، التي تشكل جزءا من الإمارات العربية المتحدة. سيعمل التوسع الجديد، الذي يبنى على أطراف مدينة أبوظبي، بشكل كلي تقريبا على الطاقة الشمسية وسيستعمل 20 في المائة فقط من الكهرباء التي تستعمل في مدينة تقليدية بالحجم نفسه. وسيتم تصنيف النفايات ويعاد تدويرها أو استخدامها كسماد عضوي، أما مياه الصرف الصحي فستتم معالجتها لتحويلها إلى وقود. وسترفع الأعمدة الإسمنتية المدينة سبعة أمتار فوق سطح الأرض، مما يخلق فراغا تحتها من أجل شبكة النقل الكهربائي الأوتوماتيكي التي ستحل محل السيارات. ويتنبأ المخططون أن يجتذب المشروع 1500 من الأعمال التجارية ذات التقنية النظيفة، تتراوح ما بين شركات دولية ضخمة إلى شركات مبتدئة - وفي آخر الأمر - حوالي 50 ألف ساكن.

ستكون المدينة واحة من الطاقة المتجددة في دولة يبلغ تعداد سكانها خمسة ملايين نسمة، جعلها النفط بلدا تتمتع بالثراء، ويستهلك الفرد الواحد فيها أعلى نسبة من المصادر الطبيعية في العالم. وبطريقة ما أو بأخرى، ينظر إلى المشروع على أنه أحدث المشاريع الداعية للفخر في دولة كانت قد عرفت بمثل هذه المشاريع. في الواقع، إن الإمارات العربية المتحدة هي بالفعل موطن لأعلى مبنى في العالم ولمنشأة هائلة للتزلج الداخلي تتميز بمنحدر يبلغ طوله 200 متر على شكل معين أسود. لقد رفع القائمون على التطوير العقاري المرجان والرمل من قاع البحر، وكدسوه في الخليج العربي لإنشاء جزر على شكل شجرة النخل وخارطة العالم.

وعلى الرغم من كل شيء، فإن العديد من الخبراء متفائلون بأن المدينة قد تصبح حقل تجارب لمقاربات جديدة للمشاكل الهندسية والمعمارية المتعلقة بإنشاء مدن مستدامة بيئيا. على الرغم من أن المهندسين المعماريين كانوا قد صمموا بالفعل، والبناؤون أنشأوا العديد من المساكن والمباني التجارية الصغيرة الخالية من أي انبعاثات، إلا أن المشاريع التي تشمل مباني تجارية كبيرة متعددة الأغراض كانت دون التوقعات، إما لأنها تستعمل الكثير من الطاقة أو لأنها تخفق في توليد ما يكفي منها. يكمن جزء من المشكلة في التعقيد المتزايد الذي يأتي مع الحجم، هذا ما يقوله جي. مايكل ماكويد J. Michael McQuade، النائب الأول لرئيس العلوم والتكنولوجيا في شركة «يونايتد تكنولوجيز» بمدينة هارتفورد في ولاية كونيتيكت، إذ لم تكن برمجيات التصميم لهذه الأيام قادرة على التعامل معها بنجاح. لكن مدينة مصدر نفسها، التي تم تطويرها بمساعدة من صياغة نماذج شاملة، ستكون

(1) مبادرة مصدر: هو الاسم الذي أطلق على مشروع المدينة.

مجهزة منذ البداية لجمع المعلومات، التي قد يثبت أنها ذات قيمة لتطوير نماذج أفضل، تلك المعلومات قد تجعل المدن المستقبلية التي تخلو من الانبعاثات أرخص تكلفة وأسهل إنشاء.

المقصود من هذه التوسعة المتطورة أن تدر مالا، وليس مجرد إدخال تكنولوجيا جديدة. «نريد مدينة مصدر أن تكون مربحة، ولا نريدها مجرد تكاليف ضائعة»، هذا ما قاله مدير المشروع لتنمية الملكية العقارية خالد عوض في معرض عقاري ضخم في دبي خلال الخريف الماضي. «إذا لم تكن مربحة كتطوير عقاري، فهي غير قابلة للاستدامة»، لكن إذا كانت مربحة، فقد يتم تكرار بناء نسخ منها.

يقول ماثيو كان Matthew Kahn، وهو أستاذ في علم الاقتصاد بجامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس: «إذا أصبح مهندسو البيئة، نظرا لاكتسابهم الخبرات من إنشاء هذه المدينة الجامحة، أكثر إنتاجية في إنشاء المدينة التالية، فإن الأمر سيبدأ بالتحول من كونه خيالا علميا إلى شيء يمكن أن تتبناه مدينة هيوستن». ويتفق معه على ذلك جيل فرند Gil Friend، المدير التنفيذي لشركة «ناتشيرال لوجيك» Natural Logic، وهي شركة للتصميم المستدام ومركزها مدينة بيركلي، كاليفورنيا، فيقول: «إنني أنظر إلى مدينة مصدر من ناحية أولى على أنها ساحة ألعاب للأغنياء، وعلى أنها من ناحية ثانية، فرصة للبحث والتطوير من أجل نشر وتجربة تكنولوجيا ستظهر في مدن أخرى إذا مضى كل شيء على النحو السليم».

من دون ريب، إن الكثير مما تعلمناه من مدينة مصدر لن ينطبق على أي مكان خارج شاطئ الخليج العربي المشمس والشديد الحرارة. لن يستطيع موقع في ألمانيا، لا يحصل على الكمية نفسها من ضوء الشمس، الاعتماد بقوة على الطاقة الشمسية. وقد لا يحتاج موقع في سان فرانسيسكو إلى تكييف الهواء، ما يجعل المعلومات حول أنظمة التبريد المتقدمة أقل صلة بالموضوع، لكن إذا حقق المشروع أهدافه البيئية، فهو سيثبت على الأقل أنه من الممكن إنشاء هكذا مدن. «يقول الناس بدهشة: سيكون ذلك عظيما. ستكون فكرة جيدة، لكن من الواضح أن ذلك ليس ممكنا»، هذا ما يقوله فرند «في اللحظة التي تتمكن فيها من الإشارة إلى شيء مادي، فإن ذلك سيبطل الكثير من تلك الحجج».

بداية جديدة

مبادرة مدينة مصدر جزء من خطة طموح لتحويل اقتصاد يقوم على مصدر طبيعي واحد - ثالث أكبر مصدّر للنفط في العالم - إلى اقتصاد يقوم على المعرفة والمهارة. الاسم «مصدر» كلمة عربية تعني source بالإنجليزية، والخطة أن تصبح أبوظبي وادي سيليكون[2] (Silicon Valley) للطاقة البديلة: مصدرا للمواهب، وبراءات

(2) وادي السيليكون Silicon Valley: هي المنطقة الجنوبية من منطقة خليج سان فرانسيسكو في كاليفورنيا، الولايات المتحدة الأمريكية. هذه المنطقة أصبحت مشهورة بسبب وجود العدد الكبير من مطوري ومنتجي شرائح السيليكون/ أو الدوائر التكاملية، وتضم حاليا جميع أعمال التقنية العالية في المنطقة، حيث أصبح اسم المنطقة مرادفا لمصطلح التقنية العالية - المترجم.

الاختراع، والشركات الناشئة في الصناعة ذاتها، التي يمكن أن تشكل تحديا في يوم من الأيام لسيادة النفط. إنه تحد رهيب على أقل تقدير، خاصة بالنسبة لمنطقة، وفقا لما قاله عوض، «لم تكن معروفة بالإبداع لألف سنة خلت».

الانطباع السائد عن المدينة هو أنها منطقة معفاة من الضرائب بقصد اجتذاب شركات التكنولوجيا النظيفة من بلدان أخرى على الأغلب. (كان المستأجر الأول هو شركة «جنرال إليكتريك»، التي تخطط لبناء منشأة بمساحة تبلغ 4000 متر مربع). أما معهد مدينة مصدر Masdar Institute، وهو أول جزء سيتم بناؤه في المدينة، فقد قصِد منه أن يمثل ما تمثله جامعة ستانفورد لوادي السيليكون. وقد تم تطويره بالتعاون مع معهد ماساتشوسيتس للتكنولوجيا MIT، الذي وضع المنهاج الدراسي ويساعد في اختيار وتدريب هيئة التدريس والإدارة، وسيكون المعهد عبارة عن مدرسة أبحاث للدراسات العليا، يمنح درجة الماجستير، وفي نهاية المطاف درجة الدكتوراه، وسيبدأ بتدريس أول فصوله التعليمية، الذي يتألف من 100 طالب، في الخريف المقبل. وإذا ما طور الخريجون أفكارا واعدة وابتدعوا شركات خاصة بهم، فبإمكانهم التطلع إلى مبادرة الـ «مصدر» من أجل الحصول على التمويل. من بين الخمسة عشر مليار دولار، التي خصصتها الحكومة للمبادرة لغاية الآن، خصّص حوالي 4 مليارات فقط كنواة لإنشاء البنية التحتية للمدينة. (ويتوقع أن تبلغ تكاليف المدينة ما مجموعه 22 مليار دولار، سيأتي الباقي من مستثمرين من الخارج) أما الأحد عشر مليار دولار المتبقية فهي مخصصة لسلسلة من الاستثمارات، ومن بين ما تشمله المشاريع لغاية الآن: مصنع للخلايا الشمسية في ألمانيا، وحقل لتوليد الطاقة بواسطة الرياح[3] (wind farm) بعيدا عن الشاطئ في المملكة المتحدة، وجهود لتخفيض انبعاثات الكربون في نيجيريا.

ومع ذلك، فالمدينة هي أكثر أجزاء المبادرة وضوحا، إنها تمثل إلى حد كبير أكبر مشروع في العالم خال من الانبعاثات والنفايات، وفقا للعديد من الخبراء. (هنالك تطوير لـ «مدينة بيئية» أكبر بقرب شنغهاي لكنها لا تطمح إلى وصول درجة الصفر من الانبعاثات)، أما الجهود في أماكن أخرى فقد كانت حتى الآن محدودة بأبنية صغيرة إلى متوسطة الحجم ومجموعات سكانية صغيرة، مثل سلسلة من صفوف البيوت التي تتسع لمائتين وخمسين شخصا في ولينغتون Wallington، جنوب لندن. أحد أكثر الأبنية الخالية من الانبعاثات طموحا لغاية هذا التاريخ هو مركز لويس Lewis Center في كلية أوبرلين Oberlin College بولاية أوهايو، تبلغ مساحته 1263 مترا مربعا. ستغطي مدينة مصدر ستة كيلومترات مربعة. سيحتل مركز المدينة الرئيسي وحده، الذي سيشمل مكاتب إلى جانب مساحة لبيع التجزئة وللثقافة، مبنى تبلغ مساحته 89.500 مترا مربعا.

(3) wind farm: مجموعة من التوربينات العاملة بواسطة الرياح في موقع واحد من أجل توليد الطاقة الكهربائية - المترجم.

لقد أنجز المخطط الرئيسي التفصيلي للمدينة، كما تم إنجاز المخططات للمبنى الأول: معهد المصدر والمركز الرئيسي. المدينة - التي ستحتوي على شقق سكنية ومختبرات، وستحتوي أيضا على مصانع، ومسارح للأفلام السينمائية، والمقاهي، والمدارس، ومحطات لإطفاء الحرائق، وما إلى ذلك - مجهزة لتوليد ما تستعمله من الكهرباء. وستعاد معالجة مائها لتوفير تكاليف الطاقة المستعملة لتحلية المياه. وستقوم أنابيب مفرغة تحت المدينة بنقل النفايات إلى موقع مركزي، حيث سيتم فرزها، حيث تعاد معالجتها قدر المستطاع، أما النفايات التي لا يمكن إعادة معالجتها فسيتم تحويلها إلى طاقة من خلال تحويلها لغاز (gasification)، وسيتم دمج ما تبقى منها في مواد البناء. ستتم معاملة مياه الصرف الصحي والبعض منها سيحول إلى وقود صلب متجدد لتوليد الكهرباء. وستشتمل وسائط النقل على خط سكة حديد خفيفة تصل مكان الإنشاءات بوسط مدينة أبوظبي وبالمطار، إضافة إلى منظومة نقل شخصي سريع personal rapid-transit (PRT) مع محطات في جميع أنحاء المدينة. منظومة النقل الشخصي السريع، هي منظومة من المركبات الكهربائية المؤتمتة، التي ستربط الناس بخط السكة الحديدية أو أنها ستوصلهم إلى مواقف السيارات خارج المدينة.

كما هو الوضع الطبيعي في المشاريع الخالية من الانبعاثات حتى تاريخه، على المدينة أن تعتمد جزئيا على الوقود الأحفوري - سواء أثناء الإنشاء أو من أجل توليد الكهرباء في الليل، حينما لا تكون ألواحها الشمسية قادرة على توليد الكهرباء. إن أفضل وصف للهدف في واقع الأمر هو أن صافي انبعاث غازات ثاني أكسيد الكربون يعادل صفرا: من أجل الوصول إلى هدف الخلو من الانبعاثات، سيلجأ المطورون إلى نظام «أرصدة» الكربون carbon credits. في الوقت الذي يتم فيه بناء المدينة، ستقوم مجموعة مرتبة من الخلايا الشمسية التي تبلغ قوتها 10 ميغاواط بإيصال الكهرباء لمدينة أبوظبي المجاورة، مما يخفض الطلب، خلال النهار، على الكهرباء من محطات التوليد المحلية التي تعمل بالغاز الطبيعي. ستعوض الانبعاثات، التي يتم توفيرها عن الانبعاثات التي تنتج في الليل، عندما تسحب مدينة الـ «مصدر» الكهرباء من تلك المحطات نفسها التي تعمل بالغاز الطبيعي. هذا النسق الشمسي والخلايا الشمسية الإضافية التي سيتم تركيبها مع استمرارية البناء وازدياد الطلب على الكهرباء، سيتعادل أيضا مع الانبعاثات من أجهزة الإنشاءات، ومن العمليات المستخدمة لإنتاج مواد البناء مثل الإسمنت، وحتى من رحلات المستشارين الجوية إلى أبوظبي من مدن حول العالم.

حتى الآن، يقوم المطورون باحتساب «كل شيء تقريبا»، هذا ما يقوله بوران ديساي Pooran Desai، الشريك المؤسس لشركة «بيوريجيونال» (BioRegional)، الشركة البريطانية التي شاركت في تطوير مشروع صفر الانبعاثات في لندن، وقد تمت استشارتها في مشروع المصدر. ويضيف ديساي: «ليس لي علم بأي مشروع آخر على

هذه الدرجة من الشمولية من حيث مراقبته للكربون. إنهم يتعقبون كل جزيء من غاز ثاني أكسيد الكربون».

الخطة الرئيسة

دبي مدينة مترامية الأطراف، تهيمن عليها السيارات، وهي على بعد ساعة بالسيارة من مدينة أبوظبي. تمتد ناطحات السحاب في موازاة طريق سريع باثني عشر مسربا، وهي المسماة بطريق الشيخ زايد. وترفع الشمس حرارة المناطق المكشوفة إلى 46 درجة مئوية في أشهر الصيف، لكن هنالك بضعة أماكن في دبي يستطيع المرء أن يتمشى في الهواء الطلق في منتصف النهار دون المجازفة بالتعرض لضربة شمس، وجميعها من صنع الإنسان ومن آثار الماضي. فهناك الأسواق المغطاة، والمحال التجارية المظللة، وهناك منطقة تاريخية تدعى البستكية، التي لا تزال تحافظ على بعض المباني التي كانت تحمي السكان المحليين من الحرارة والرطوبة قبل وصول تكييف الهواء. وللبيوت والدكاكين جدران سميكة مصنوعة من الحجر المرجاني والجبس الذي يمتص الحرارة خلال النهار، ويطلقها ببطء أثناء الليل، ونظرا لأن البيوت قريبة من بعضها، فهي تظلل بعضها بعضا، وتظلل الحواري الضيقة بينها. وتساعد الممرات ذات الشكل الذي يشبه القمع على هبوب النسيم، ما يزيد من تبريد المباني.

عندما بدأ جيرارد إيفيندين Gerard Evenden، الشريك الأقدم في المؤسسة البريطانية فوستر وشركاه، برسم المخططات الرئيسة لمدينة مصدر، تفحص التصاميم التقليدية باحثا عن طرق لتوفير الطاقة، وبما أن المدينة ستعتمد على الكهرباء من الطاقة الشمسية على نحو كلي تقريبا، والتي تبلغ كلفتها خمسة أضعاف الكهرباء من الشبكة المحلية، فإن المدينة بحاجة لكفاءة في استهلاك الطاقة تبلغ خمسة أضعاف التوسعات العمرانية المنافسة المجاورة.

أحد أول الأشياء التي فعلها إيفيندين هو إسقاط السيارات من الحسبة: فمع زوال الطرق السريعة، يمكن فصل مباني المدينة بممرات عرضها 7 إلى 12 مترا فقط، قريبة بما يكفي لتظلل بعضها بعضا، ومع ذلك فهي بعيدة عن بعضها بما يكفي للسماح بدخول الضوء. هذه طريقة رخيصة لتخفيض الحاجة ليس لتكييف الهواء فقط وإنما للإضاءة الكهربائية أيضا، وهما أكبر استنزاف للكهرباء في المباني التجارية. والعزل رخيص، أيضا: في معهد مصدر، يخطط إيفيندين لاستعمال مادة عازلة بسمك 30 سنتيمترا لمنع تغلغل الحرارة الخارجية إلى الداخل، كما أنه يدمج أيضا «رقائق» من النحاس، الذي يعكس الضوء، وتوصل الحرارة بعيدا عن المباني. ستكون الرقائق المعدنية محمية من رمل الصحراء بمادة بلاستيكية شبيهة بالتيفلون Teflon ذاتية التنظيف، ومن أجل تخفيض الحاجة لعملية تحلية الماء الكثيفة الاستهلاك للطاقة، سيخفض تصميم إيفيندين من استهلاك المياه بنسبة 75% من خلال معالجتها، واستعمال تركيبات وصنابير منخفضة انسياب الماء، ومباول من دون استعمال الماء.

سيأتي جزء صغير من الطاقة التي لا تزال ضرورية لتشغيل المدينة من وقود مستخلص من النفايات وربما من الحرارة الأرضية geothermal، وسيأتي الباقي من الشمس، لكن لن تكون جميعها من خلال الألواح الضوئية photovoltaics الباهظة التكاليف، التي تحول أشعة الشمس إلى كهرباء، إذ إن هناك أجهزة أرخص بكثير تقوم بتركيز الحرارة من الشمس لتسخين الماء وتشغل نوعا من مكيفات الهواء تدعى مبردات بالامتصاص absorption chiller، (وهذه هي التكنولوجيا نفسها المستعملة الآن في الثلاجات التي تعمل بغاز البروبين).

من ناحية نظرية، يجب أن تعمل جميعها بنجاح، لكن من الناحية العملية، فقد فشلت مشاريع أقل من هذا المشروع طموحا بكثير. مركز لويس في جامعة أوبرلين يتميز بالعديد من عناصر التصميم نفسها ذات الفعالية العالية للطاقة: عزل سميك، وتهوية طبيعية مع مبادلات حرارية (4) heat exchangers، والكثير من الشبابيك من أجل الاستعاضة عن الحاجة للإضاءة الكهربائية، ومضخات حرارية heat pumps بدلا من الأفران التقليدية. ويفترض أن مجموعة مرتبة من الألواح الشمسية بقوة 60 كيلوواط على سطح المبنى تنتج من الكهرباء على مدار السنة المقدار نفسه الذي يستهلكه المبنى. ومع ذلك، فإن المبنى كان قد استهلك مبدئيا كثيرا من الطاقة، ولم تكن الألواح الشمسية كافية. ومن أجل تحقيق طاقة صافية قيمتها صفر(5) zero net energy، كان على الكلية أن تركب مجموعة إضافية من الألواح الشمسية بجوارها، فتضاعف إجمالي إنتاج الطاقة بأكثر من ثلاثة أضعاف، مما أضاف ما يزيد على مليون دولار لتكاليف بناء باهظ التكاليف قبل تلك الزيادة، هذا ما يقدره جون سكوفيلد John Scofield، أستاذ علم الفيزياء بجامعة أوبرلين الذي نشر تحليلا مفصلا عن أداء المبنى.

بصفة عامة، يجد مهندسو العمارة أن التنبؤ بالطريقة التي ستتفاعل بها الأنظمة الفعالة في استعمالها للطاقة تزداد صعوبة كلما ازداد حجم المبنى. ففي المباني المصممة للاستفادة من الضوء الطبيعي، على سبيل المثال، يمكن أن يركّب المصممون مجسات/ أجهزة استشعار لإطفاء النور أوتوماتيكيا عندما يأتي ما يكفي من النور من الخارج، لكن إطفاء النور وإعادة الإضاءة في منطقة حساسة تؤثر في المجسات في منطقة أخرى، وقد ولد هذا في بعض المباني حلقة تغذية راجعة تجعل من دورة الإضاءة والإطفاء عملية مزعجة.

كذلك فإنه من الممكن أن تؤثر المناطق الحارة والمناطق الباردة المتجاورة في بعضها بعضا مولدة حلقات تغذية راجعة معقدة لا يمكن التنبؤ بها، خاصة عندما يزداد

(4) المبادل الحراري heat exchanger: هو جهاز لنقل الحرارة بكفاءة من وسط إلى آخر، ويستعمل على نطاق واسع في عمليات التبريد وتكييف الهواء. من الأمثلة المعروفة على المبادل الحراري هو المشع radiator في السيارة، حيث مصدر الحرارة هو سائل تبريد المحرك الساخن الذي ينقل الحرارة إلى الهواء المتدفق من خلال المشع - المترجم.

(5) zero net energy: اصطلاح عام يطلق على البنايات التي تبلغ قيمة استهلاكها من الكهرباء صفرا وكذلك قيمة انبعاثاتها - المترجم.

عدد المناطق. يتذكر جي مايكل ماكويد من «يونايتد تكنولوجيز» ما حدث عندما صممت شركته ما يفترض أن يكون منظومة ذكية لإدارة تدفئة وتهوية وتكييف لمبنى جديد في باريس. كانت المنظومة قد صممت لكي تقوم بالتنسيق بين 3000 منطقة مختلفة. «وعندما انتهى العمل في ذلك المبنى، تبين أنه كثيف الاستهلاك للطاقة، وقد احتاج إلى ترميم وتجديد أنظمة التحكم المتكاملة لكي تعمل بالشكل الصحيح»، هذا ما يقوله ماكويد.

إذا ما كان للمباني الخالية من الانبعاثات أن تكون اقتصادية، يقول سكوفيلد، فإن على التصاميم أن تنجح منذ البداية. «إن لم تصمم بالشكل الصحيح»، مشيرا إلى الإخفاق التام في أوبرلين، «فإن كل تعديل تقوم به سيكون أكثر كلفة بكثير من تصميمه بشكل ناجح من المحاولة الأولى».

نظام نقل شخصي

ستكون مدينة مصدر مرفوعة على ركائز إسمنتية لإفساح المجال لنظام نقل شخصي سريع (PRT) ليحل محل الأوتوبيسات والقطارات وهو يحتوي على مركبات صغيرة تتسع لأربعة أشخاص. ويتوقع مخططو مصدر أن تستهلك المنظومة طاقة أقل من النقل الجماعي التقليدي، ويدعون أيضا أنها ستكون أكثر ملاءمة.

يوجد في نظام النقل الشخصي السريع بضع مركبات صغيرة، عادة ما تدعى «بودز» (pods)، تبقى منتظرة في كل محطة. يركب الفرد أو عدة أفراد واحدة منها ويختارون المكان المقصود، وتمضي المركبة أوتوماتيكيا للمكان المقصود دون توقف. بتصميمها النموذجي، تشبه كل مركبة منها عربة الغولف golf، التي تعمل ببطارية كهربائية، إلا أنها مغلقة تماما وأكبر بعض الشيء، وليس فيها عجلة للقيادة. تمضي المركبة على خط سكة حديدية، وترتبط بالمحطات بواسطة سلالم متحركة للتحميل والتنزيل، ويتحكم جهاز كمبيوتر بالطريقة التي تدخل بها المركبات وتخرج من المحطات: إذ تسمح منصات السلالم للمركبات الفردية بالتوقف بينما تستمر المركبات الأخرى على الخط الرئيسي بأقصى سرعتها. تشير نظم المحاكاة Simulations إلى أن الأنظمة يمكن أن تدار بفارق زمني قصير جدا لا يزيد على نصف ثانية بين المركبة والأخرى.

لكن على الرغم من أن أنظمة النقل الشخصي السريع تبدو واعدة، إلا أنها لم تصبح واسعة الانتشار بعد، ويعود السبب في ذلك جزئيا إلى أن نظاما مشابها لنظام النقل الشخصي السريع كان قد أنشئ في السبعينيات من القرن العشرين في مدينة مورغانتاون، بولاية وست فرجينيا، أعطى الفكرة سمعة سيئة، هذا ما يقوله جيري شنايدر، الأستاذ الفخري لتخطيط المدن والهندسة المدنية بجامعة واشنطن في مدينة سياتل، وهو مدافع قديم عن أنظمة النقل الشخصي السريع. يقول شنايدر واصفا النظام، المكون من خط نقل بسيارات أوتوماتيكية تتسع كل مركبة لحوالي 20 شخصا: «يصعد الناس إلى المركبات لكنها لا تتوقف». ويضيف أن التكنولوجيا قد

تحسنت منذ ذلك الحين، إلا أنه لم يكن هناك دليل مهم في العالم الواقعي على نجاح هذه الأنظمة المتطورة.

هنالك برنامجان للعرض العملي في طريقهما للتنفيذ. الأول، سينقل المسافرين إلى المبنى الجديد في مطار هيثرو الدولي بقرب لندن، سيفتتح في أواخر هذه السنة. التجارب على ذلك النظام قائمة بالفعل، وسيتم بناء المرحلة الأولى من النظام في مدينة مصدر من قبل المؤسسة الهولندية «2GetThere»، ومن المحدد أن تكون جاهزة مع افتتاح معهد المصدر هذا الخريف.

منصة التجارب

لا يبدو على سمير أبوزيد أي تعرق. مع أن درجة الحرارة 39 درجة مئوية والرطوبة النسبية 74 في المائة، لكنه يدعي «أنه يوم لطيف»، أبرد بكثير من فصل الصيف في أبوظبي، حيث يمكن أن تصل درجات الحرارة إلى 49 درجة مئوية. أبو زيد، الأردني الأصل، كان في وقت حديث جدا مديرا لمصنع أجهزة أشباه موصلات في وادي السيليكون، وسيقوم بإدارة البنية التحتية للكهرباء وتوزيعها في مدينة مصدر. «لقد تم اختبار جميع هذه الوحدات modules في المصانع»، هذا ما يقوله وهو يقوم بزيارة لإحدى العلامات المرئية الأولى للمدينة، والتي هي عبارة عن موقع اختبار يضع فيه 41 صفا من السخانات الشمسية من مصانع مختلفة عبر خطوات الاختبار. «لكنها كانت قد فحصت تحت ظروف مثالية: 1000 واط لكل متر مربع، 25 درجة مئوية. مكان حسن التكييف. الوضع مختلف تماما هنا».

الغبار من الصحراء يغطي الألواح بسرعة، مما يضعف الضوء الذي يصلها إلى درجة كبيرة. لقد تعلّم أبوزيد أن أربعة أشهر من الغبار فقط تخفض إنتاج الألواح الشمسية بأكثر من 20 في المائة، وتلك معلومات سيستخدمها لتحديد عدد المرات التي يجب أن تغسل بها الألواح، مما يوازن بين فقدان الكهرباء واستهلاك الماء للغسيل.

هنالك مشكلة ثانية وهي الحرارة. السطوح الداكنة للسخانات الشمسية تمتص أشعة الشمس، مما يرفع درجة حرارتها إلى ما قد يصل إلى 80 درجة مئوية. تؤثر الحرارة في بعض تقنيات الخلايا الشمسية أكثر من البعض الآخر، كما أن بعض أفضل الألواح الشمسية تنتج كمية أقل من الكهرباء عندما تزداد حرارتها. بسبب هذه المفاضلات والخيارات، ليس من الواضح أي هذه السخانات سيعمل بطريقة أفضل في موقع مصدر، هذا ما يقوله أبو زيد. تقوم أجهزة الاستشعار في موقع التجارب بمتابعة مدى ارتفاع حرارة كل لوح من الألواح الشمسية، ومدى فاعلية استراتيجيات التبريد المختلفة، وكيف يتغير إنتاج الكهرباء مع درجة الحرارة من بين عوامل أخرى.

ستستمر مثل هذه العملية لجمع المعلومات مع نمو المدينة، وسيقوم مصمموها ومهندسوها بقياس استهلاك الطاقة وإنتاجها على حد سواء، وسيتابعون استهلاك الماء على مستوى كل صنبور. في المركز الرئيسي لمصدر، قد يستخدم المهندسون بطاقات تحديد الهوية باستخدام

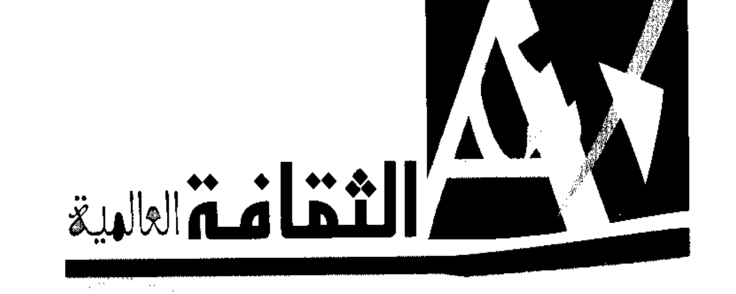
بطاقات تعريف ضمن الشارات الأمنية ذات تردد لاسلكي لجمع المعلومات حول الطريقة التي يستعمل بها الناس الماء والطاقة. ستسمح مثل هذه التدابير للمصممين والمهندسين بمقارنة الأداء الواقعي للمدينة مع الأداء الذي تم التنبؤ به في تجارب المختبرات وعمليات المحاكاة.

مراقبة الواقع

في أوائل الستينيات من القرن العشرين، وفي الوقت الذي كانت فيه الولايات المتحدة مندفعة بسرعة لإرسال إنسان إلى القمر، كانت المراوح الهوائية والإضاءة غير معروفة بعد في أبوظبي، وفقا لما قاله محمد الفهيم، من مواطني الإمارات، الذي كان قد كتب تاريخا فريدا عن ذلك المكان. لم يكن ذلك بعد اكتشاف النفط هناك بوقت طويل، وقبل أن تبدأ النقود بالتدفق بوقت طويل. ينتمي الفهيم إلى إحدى أكثر العائلات ثراء في المنطقة، ومع ذلك فقد كانت أخته وأمه من بعدها قد توفيتا بسبب نقص الرعاية الصحية الأساسية. ومن ناحية فعلية يبلغ متوسط العمر المتوقع في أبوظبي الآن المستوى نفسه في الولايات المتحدة. وقبل ذلك، كان المواطنون يعيشون على مياه من آبار مالحة قليلا، أما الآن فهم يشربون ماء عذبا من محطات تحلية جديدة. وقد استبدلت أكواخ سعف النخيل الهشة القابلة للاشتعال التي كان يسكنها معظم الناس بناطحات سحاب من فولاذ وزجاج لامع.

بطرق عدة، يعكس تطور أبوظبي على مدى العقود القليلة الأخيرة جهدا محموما للحاق بركب العالم المتطور. الآن، ونظرا لوجود مشاريع مثل مدينة مصدر، أصبح أمام الإمارات فرصة لتكون في المقدمة، لكن من حيث التنمية الحضرية، يبدو أنها على مفترق طرق إلى حد كبير. خلال بضع سنوات، في الوقت الذي يكون فيه مواطنو مدينة مصدر يرشدون استهلاك الكهرباء ويستعملون مباول من دون مياه، ستكون فيه سيارات السباق الصغيرة تصرخ حول مضمار جديد في ميدان فيراري Fe-rari لسباقات التسلية بالقرب من هناك، وسيتصايح الأطفال وهم يهبطون على منزلقات المياه في منتزه الماء الجديد، وستكون أجهزة تكييف الهواء الضخمة تزأر وهي تبرد مركز تسوق جديد يحتوي على 700 محل تجاري. كل ذلك جزء من موقع تبلغ مساحته 2500 هكتار سيقوم باحتضان مدينة مصدر ومساحتها البالغة 640 هكتارا فقط.

يشكل الموقعان رؤيتين متنافستين لمستقبل أبوظبي. إذا لم يبرر مشروع مصدر نفسه من ناحية مالية، فقد يكون حقا مجرد ميدان لعب أخضر للأغنياء، ومتنزها بيئيا للتسلية غير ملائم إلى حد كبير للتنمية والتكنولوجيا المستدامة على نطاق واسع، لكن إذا كان مربحا، فقد يكون قوة محركة للتصميم الحضري المستدام، عندها قد يكون للمطورين من أغنياء النفط في الإمارات المتحدة وفي أماكن أخرى سبب لبناء المزيد من المدن الخضراء ويتناسون بناء منحدر آخر للتزلج في الصحراء. وسيتبعهم المطورون على نطاق العالم كله.



السحر واللغز في عناصر «أورمس»

احتمال ظهور حالة جديدة للمادة[1] تبشرنا بآفاق جديدة في مجالي الزراعة والصحة

بقلم: روجر تايلور*

ترجمة: مالك أحمد عساف

العنوان الأصلي للمقال: The Magic and Mystery of ORMUS Elements ونُشر في مجلة Nexus عدد فبراير - مارس 2007

هناك محلول مركز مستخلص من عناصر خاصة متوفرة بكثرة في مياه البحر. يتمتع هذا المحلول بقدرة عجيبة على تحسين التربة وزيادة مردود المحاصيل الزراعية وتعزيز الحالة الصحية للإنسان والحيوان، وحتى على محاربة تغير المناخ.

(1) من المعروف أن هناك ثلاث حالات للمادة: الصلبة والسائلة والغازية - المترجم.

* حاصل على بكالوريوس في العلوم البيطرية ودكتوراه في علم المناعة، ومؤسس مجموعة البحث بعلم الأحياء المناعي التابعة للمجلس البريطاني للأبحاث الطبية ومقرها في جامعة برستول، وقد وجه اهتمامه فيها بشكل رئيس نحو دراسة التحمل المناعي immunological tolerance، أمضى السنوات الثماني عشرة الأخيرة من حياته بشكل مستقل في دراسة الطاقة الخفية subtle energy - المترجم.

يُعرِّف هذا المقال باكتشاف جديد لم يسمع به حتى الآن إلا القليل من الناس، حيث يُتوقع أن يكون له شأن عظيم في مستقبل العالم، لا سيما أن الرهانات العلمية عليه مرتفعة جدا. وفي حال تم التحقق من الفرضيات التي بنيت عليه سنكون إزاء مجموعة من المواد - قد تكون من العناصر الكيميائية - التي لم يتم التشكيك بوجودها إطلاقا حتى الآن؛ وقد اصطُلح على تسميتها باسم «أورمس» ORMUS، كما يحتوي هذا المقال على بعض الأفكار المثيرة للجدل حول طبيعة هذه المواد والخواص الكيميائية والفيزيائية التي تتمتع بها.

لكن، بادئ ذي بدء، لا بد من التأكيد على أن الأهمية العملية لهذا الاكتشاف تكمن في الفائدة التي ستخلفها تلك العناصر على المحاصيل الزراعية، حيث إن أثر هذه العناصر في النباتات، - كما يوضح هذا المقال - يمثل ظاهرة استثنائية بكل ما للكلمة من معنى، هذا بالإضافة إلى الفوائد بالغة الأهمية التي ظهرت آثارها على الحالة الصحية للإنسان والحيوان على حد سواء.

اكتشاف ديفيد هدسون للأورمس

بدأت قصة الاكتشاف هذه في أواخر السبعينيات مع مزارع قطن ميسور من ولاية أريزونا يُدعى ديفيد هدسون، ولكون التربة البركانية في تلك المنطقة تتمتع بمواصفات فريدة، ولأن الطبقة الصخرية التحتية كانت معروفة بغناها بالمعادن الثمينة، قرر هدسون أن يجري تحليلا شاملا لكمية العناصر المتوفرة فيها. لكن المحللين الذين استقدمهم أصيبوا بالذهول نتيجة عثورهم على مجموعة من العناصر الصعبة على التحليل: إذ لم تكن تحتوي على خواص معدنية. كما لم تُظهر أي تفاعلات كيميائية أو مواصفات طيفية. في نهاية المطاف اقتراح أحد الاختصاصيين في علم الطيف تعريضها للنار مدة أطول؛ حينذاك بدأت تظهر عليها الخواص الطيفية التي كانت - وهذا ما أثار دهشة عارمة - تدل على وجود بعض المعادن الثمينة. من الواضح أن هذا الأمر كان يتطلب مزيدا من البحث؛ ولكونه ميسور الحال قام هدسون باستئجار بعض الكيميائيين وصمم على حل هذه المعضلة. والنتائج التي توصل إليها مدونة بكل تفاصيلها ضمن براءة اختراعه. ألقى هدسون أيضا عددا من المحاضرات العامة حول هذا الموضوع: وقد علمت بأمر هذه الظاهرة للمرة الأولى بعد أن شاهدت ما مدته تسع ساعات من الأشرطة المصورة عن تلك المحاضرات.

على أي حال لم يظهر أي مقال حول هذا المضووع في أي صحيفة علمية. وأنا أجلت الكتابة عنه على أمل العثور على إثبات أكاديمي، لا سيما أن طروحات هدسون كانت مثيرة جدا للتحدي. وفي ظل غياب البحث الأكاديمي الرسمي. فقد قامت منذ عدة سنوات مجموعة مستقلة من العلماء والناس العاديين بالعمل على

هذا الموضوع، وعلى الرغم من افتقارهم للتمويل والمختبرات الرسمية أثناء عملهم، وعلما بأنه لم يتم أي اتصال بينهم وبين هدسون، إلا أنهم تمكنوا من التوصل إلى بعض النتائج التي توصل إليها هدسون. وقد قام باري كارتر، من خلال موقعه الإلكتروني الشامل والغني، بكتابة عدد من المقالات يوجز فيها العمل الذي قام به كل من هدسون وهؤلاء الباحثين. وتوجد أيضا على الإنترنت منتديات نشيطة عدة تقوم إحداها، وهي مجموعة عمل متخصصة في مجال العلوم، بمناقشة الجوانب الكيميائية والفيزيائية والمنهجية لاستخراج وتحليل هذه المواد.

إذن، ما النتائج التي يمكن استخلاصها حتى الآن؟ لقد غدا واضحا أننا دخلنا من خلال هذا الاكتشاف إلى مجال جديد ومعقد جدا لا نزال فيه مبتدئين. وفي الحقيقة يمكن القول إن فصلا جديدا في الفيزياء والكيمياء وعلم الأحياء قد افتتح. وتُظهر الحقيقة الأساسية من دون أدنى شك، من خلال العمل الذي قام به كل من هدسون وتلك المجموعة المستقلة، أن بعض المعادن الثمينة (علما أن قسما منها ليس ثمينا جدا)، مثل الروديوم والإيريديوم والذهب والبلاتين والبلاديوم والنحاس والعديد من المعادن الأخرى، يمكن أن توجد بحالة مختلفة تماما عن حالتها المعدنية المعهودة، فتكون عبارة عن مكون رمادي أو أبيض عندما تُعزل في الحالة الصلبة.

قدم هدسون ثلاثة طروحات أخرى يمكن اعتبارها أكثر قابلية للأخذ والرد، فقد قال إنه في هذا الشكل المختلف لهذه العناصر، التي اصطلح على تسميتها بعناصر أورمس، تتخذ الإلكترونات ترتيبا جديدا بحيث لا تعود تشترك في تفاعلات كيميائية على الإطلاق، كما أن الروابط التي تجعل ذرات المعدن تتماسك في ما بينها في الحالة الصلبة غير موجودة، ولذلك يمكن وصفها بأنها أحادية الذرة monatomic، ولهذا السبب أُطلق عليها في البداية اسم العناصر الأحادية الذرة المُعاد ترتيبها مداريا Orbitally Rearranged Monatomic Elements واختصارا (ORMEs). وتشير الأبحاث التي جرت فيما بعد إلى أن بعض هذه العناصر قد تكون ثنائية الذرة diatomic، وإلى أن الروابط الكيميائية لدى بعض العناصر الأخرى قد تكون رخوة جدا، لا سيما في المعادن القلوية alkaline metals منها، ومن هنا تغير الاسم العام لها ليصبح ORMUS، كما يُشار إلى هذه العناصر في أحيان كثيرة على أنها في الحالة الأحادية الذرة M-state.

وهناك طرحٌ آخر أكثر راديكالية يقول إن إعادة تنظيم الإلكترونات كان يتطلب تشكل أزواج كوبر[2] Cooper pairs، بحيث

(2) اسم أطلقه ليون كوبر على أزواج الإلكترونيات الملتصقة ببعضها بعضا ضمن المعدن، حيث تعادل شحنة وكتلة كل زوج منها ضعف شحنة وكتلة الإلكترون المفرد، وتتشكل هذه الأزواج ضمن معدن يتمتع بقدرة توصيل فائقة من خلال تفاعل الأيونات الموجبة - المترجم.

تصبح (أو يمكن أن تصبح من خلال بعض المعالجات) ذات قدرة توصيلية فائقة superconductive في درجات الحرارة العادية. ولإثبات هذا الأمر قام باري كارتر بإرسال فيلم فيديو قصير يُظهر فيه ذرورا «على شكل بودرة» رماديا وهو يقفز مبتعدا عن المغناطيس. على أي حال يمكن القول إن ظاهرة قفز الذرور هذه ليست دليلا عكلى القدرة التوصيلية الفائقة superconductivity (أي إنها لا تتمتع بقدرة عمل تيار عال عند درجات حرارة قريبة من الصفر المطلق والذي يساوي 273.20 درجة مئوية). وقبل الذهاب أبعد من ذلك في هذا الجدل، يجدر بنا أن نذكر أن هدسون أشار إلى وجود بعض الأبحاث العادية (أي التي لا تتناول هذا الموضوع) التي قد تقدم دعما غير مباشر لهذا الطرح. وتتحدث تلك الأبحاث عن حالة تتمتع فيها المادة بحركة مغزلية سريعة حيث يمكن إدخال بعض الذرات المعدنية الثقيلة إليها وتكتسب ذواتها شكلا طوليا ثم تتخذ حركة مغزلية أسرع، لكن لم يسبق لأحد أن حصل على هذه المادة بمقادير كبيرة.

أجرى هدسون تحاليل على تشكيلة واسعة من المواد، وأعلن أنه عثر على عناصر «أورمس» في معظم عينات التربة التي قام بتحليلها، لا سيما عينات التربة المأخوذة من المناطق البركانية. وعثر باحثون آخرون فيما بعد على هذه العناصر ضمن معظم عينات المياه التي قاموا بتحليلها، وكان لافتا وجودها بنسب عالية ضمن مياه البحر، لا سيما في مياه البحر الميت، كما عثر عليها أحد الباحثين في الهواء (وهنا قد لا يكون الأمر مدهشا جدا لأنه حتى العنصر الثقيل عندما يكون في شكله الأحادي الذرة قد يتحرك كما لو أنه غاز قليل الكثافة).

قام الكيميائيون الذين استأجرهم هدسون بإجراء تحليلات على عدد من الأنسجة النباتية، ووجدوا أن النباتات تحتوي على أعلى نسبة من عناصر أورمس، لاسيما نبتة ألو فيرا aloe vera، التي تنمو في التربة البركانية، كما قاموا بتحليل مكونات النسيج الدماغي لدى العجل والخنزير، ووجدوا أنها تحتوي على خمسة في المائة من هذه المادة الجافة، وهذه التحليلات ليست سهلة كونها تتطلب إعادة تحويل الكمية الموجودة من عناصر أورمس إلى الحالة المعدنية، ولأغراض تحليلية فإن هذا الأمر يتم أثناء تطبيق الطريقة الطيفية التي تتضمن التعريض للنار لفترة طويلة، وهي الطريقة التي استخدمها هدسون، لكن إعداد كميات كبيرة من المعادن بهذه الطريقة هو مسألة تتطلب وقتا طويلا، عدا أنه لا يمكن إعطاؤها حقها بشكل كامل من حيث التنفيذ وتقديم الشرح. قليلون جدا هم الباحثون المستقلون الذين لديهم الإمكانات اللازمة لتطبيق الطريقة الطيفية، إضافة إلى أني لم أسمع بأي باحث قادر على القيام بهذا العمل بشكل رسمي. لسوء الحظ يبدو أن هدسون نفسه لم يعد يقوم بهذا العمل، وذلك لعدة أسباب (قيل إنها مالية وقانونية).

لا يزال علينا القيام بالمزيد من الأبحاث حول الخواص الفيزيائية والكيميائية، لا سيما من أجل تفسير بعض الظواهر الفريدة التي تم رصدها، على سبيل المثال، عند تخفيف مستحضر مائي من الروديوم المأخوذ من مجموعة أورمس بوساطة ورق ترشيح filter paper تحت أشعة الشمس، لاحظ هندسون أنه يختفي لمجرد تعريضه لومضة ضوء شديدة، إنما من دون أن ينتج عن ذلك أي صوت أو موجة صدمية shock wave، والأغرب من ذلك هو أنه أثناء قيامه بإخضاع الإيريديوم المأخوذ عن مجموعة أورمس إلى التحمية والتبريد بشكل متكرر، وجد أن وزنه يتذبذب كثيرا مع كل دورة تلدين annealing - حتى إنه، في مرحلة من المراحل، كان يفقد كل وزنه ثم يستعيده بعد ذلك. تم دمج هذه النتيجة ضمن النظرية الفائقة الأبعاد التي تعود إلى عالم الفيزياء النظرية ماتي بيتكانين.

هذا وقد أكد باحثون مستقلون على وجود ومضة الضوء التي لا يرافقها صوت، كما أكد أحدهم على ظاهرة تغير الوزن. إضافة إلى ذلك رصد عدد منهم ظاهرة أخرى غريبة، وهي ظهور قطرات على الجهة الخارجية للعبوات المغلقة تحتوي على الأورمس المرّكز - وخاصة تحت تأثير المجالات المغناطيسية، ودفعهم هذا إلى الافتراض أن ذرات أورمس تستطيع أن تنفذ عبر الجدران من خلال العبور النفقي الكمي quantum tunne-ing حاملة معها كمية من الماء. والظاهرة الأخرى التي كانت عصية على التفسير أيضا هي اكتساب بعض مستحضرات أورمس الموجودة ضمن محلول مائي لشحنة كهربائية ساكنة. وعند تحرير هذه الشحنة تنطلق شررة محدثة صوتا مسموعا، حيث تعود الشحنة لتتشكل من جديد كلما تم تحريرها، وهذ العملية يمكن تكرارها إلى ما لا نهاية.

الآثار البيولوجية للأورمس

التركيبة البيولوجية لهذه المواد هي أيضا متروكة لما ستؤول إليه نتائج الأبحاث، إلا أنه يمكن القول إن هذا الفصل الجديد في علم الأحياء قد تم فتحه مسبقا، وذلك من خلال فهم الحياة من منظور كمي، وحسب هذه الرؤية لا يمكن تفسير الخواص الكلية holistic properties للحياة إلا أعلى أساس الترابط الكمي quantum coherence؛ أي إن نشاط الجزئيات البيولوجية الذي يبدو ظاهريا بأنه عشوائي (حسب علم الديناميكا الحرارية التقليدية) هو في الحقيقة منظم من خلال المبادئ الكمية ذاتها التي تحكم عمل الليزر. إن من قام بهذه المراجعة الجذرية المقنعة لعلم الأحياء هو الدكتور ماي وان هو.

هذا وقد تم استكشاف آفاق أخرى في علم الأحياء الكمي من خلال بعض الأبحاث المثيرة التي ظهرت أخيرا، وتشير إلى أنه في الوقت الذي يعمل فيه جزء بسيط من الحمض النووي DNA من خلال تحديد شيفرة البروتينات، فإن القسم الأكبر منه

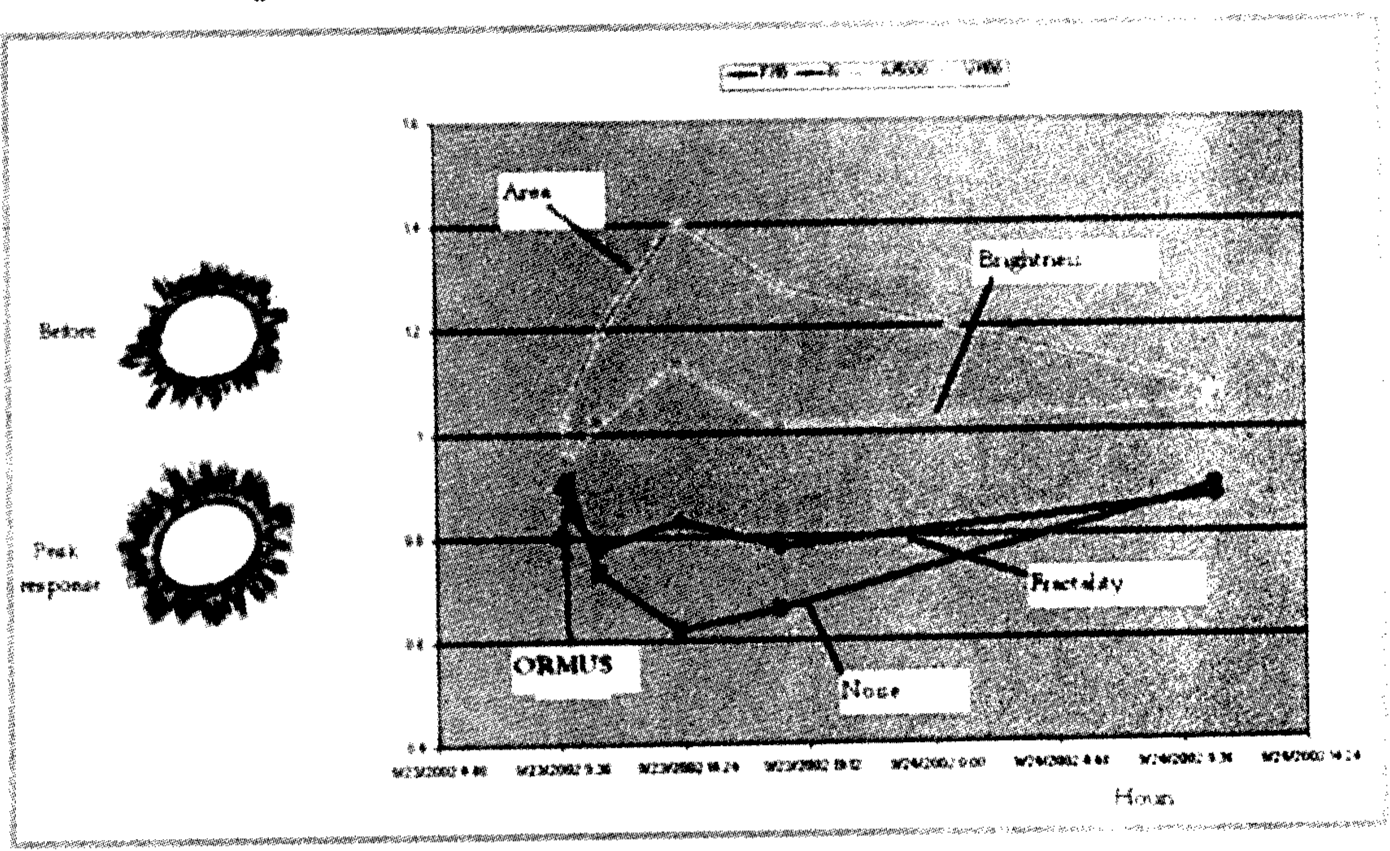


شجرة الجوز الموجودة إلى اليمين تمت معالجتها بعناص أورمس، وهي تنتج الآن ستة أضعاف ما تنتجه شجرة الجوز الموجودة إلى اليسار التي لم تعالج بعناصر أورمس.

(وهو ما يسمى بالحمض النووي البالي) يعمل بشكل مستقل عن مبادئ الكيمياء ليتخلل «المجال» الكمي للجسد. وهذه الأبحاث، إلى جانب عدد من الأبحاث الأخرى، التي تشير إلى وجود قدرة توصيلية فائقة لدى الكائنات الحية، قد تدعم الطروحات التي يقدمها هدسون حول العلاقة الوثيقة التي تربط الأورمس بالحمض النووي - إلى حد أنه يستطيع تصحيح الخلل الذي يصيب الحمض النووي.

تنبأ هدسون بأنه قد يكون لهذه المواد شأن عظيم في مجال الصناعة - لا سيما أن أبحاثه قد أوصلته إلى نتيجة مفادها أن العناصر الثمينة الموجودة في العالم بهذه الصيغة هي أكثر بكثير منها في الصيغة المعدنية، إلا أنه في مرحلة من المراحل أشار عليه عمه - الذي كانت لديه اهتمامات في علم الخيمياء alchemy (أي الكيمياء القديمة) - بأنه إذا تفحص هذه المادة بدقة ربما سيكتشف وجود علاقة بينها وبين «الذهب الأبيض» الذي تحدث عنه الكيميائيون القدامى والذي

الشكل (1): استجابتي لجرعة واحدة من الأورمس كما أظهرتها تقنية التصوير الكهربائي الحيوي الكمي



يمتلك خواص قادرة على علاج الأمراض وإطالة أمد الحياة. على أثر ذلك قام هدسون بتقديم خلطة من مستحضر أورمس إلى كلب مريض جدا، حيث كان يحتضر جراء إصابته بالسرطان والحمى القرادية tick fever، وعندما شفي الكلب، تبرع متطوعون من البشر لتناول هذا المستحضر، وحصلوا كما يبدو على نتائج إيجابية. بعد ذلك قدم هدسون عينات منه إلى عدد من الأطباء وأوصاهم بتجربته على بعض المرضى الذين يحتضرون، وفي أحاديثه يقدم تقارير موثقة عن بعض حالات الشفاء الاستثنائية التي حصلت. ويقول أيضا إنه قدم عينة من الروديوم المنثمي إلى مجموعة أورمس إلى عدد من المختبرات، من بينها مختبر ميرك أند كو ومختبر المعهد القومي الأمريكي للسرطان، الذي جربه على مستنبتات لخلايا سرطانية ووجد أنه ليس له مفعول سُمّي على هذه الخلايا.

منذ ذلك الحين قام عدد كبير من المنتجين المستقلين بتصنيع وبيع عدة أنواع من محلول أورمس المركز التي تم تحضيرها من مصادر متنوعة، من بينها مياه البحر والمياه المأخوذة من أعماق الينابيع والملح المستخرج من الرواسب المعدنية وبعض النباتات الطبية كنبتة الألو فيرا. ويقدر حاليا عدد الناس الذين يتناولون هذه المستحضرات بالآلاف. وفي حين أن معظم هؤلاء لم يصابوا بأمراض خطيرة، فقد ظهر لدى العديد منهم تحسنا في الصحة العامة والطاقة، وفي أغلب الأحيان كانت تظهر لديهم تغيرات في الموقف، وهو أمر يعتبرون أن

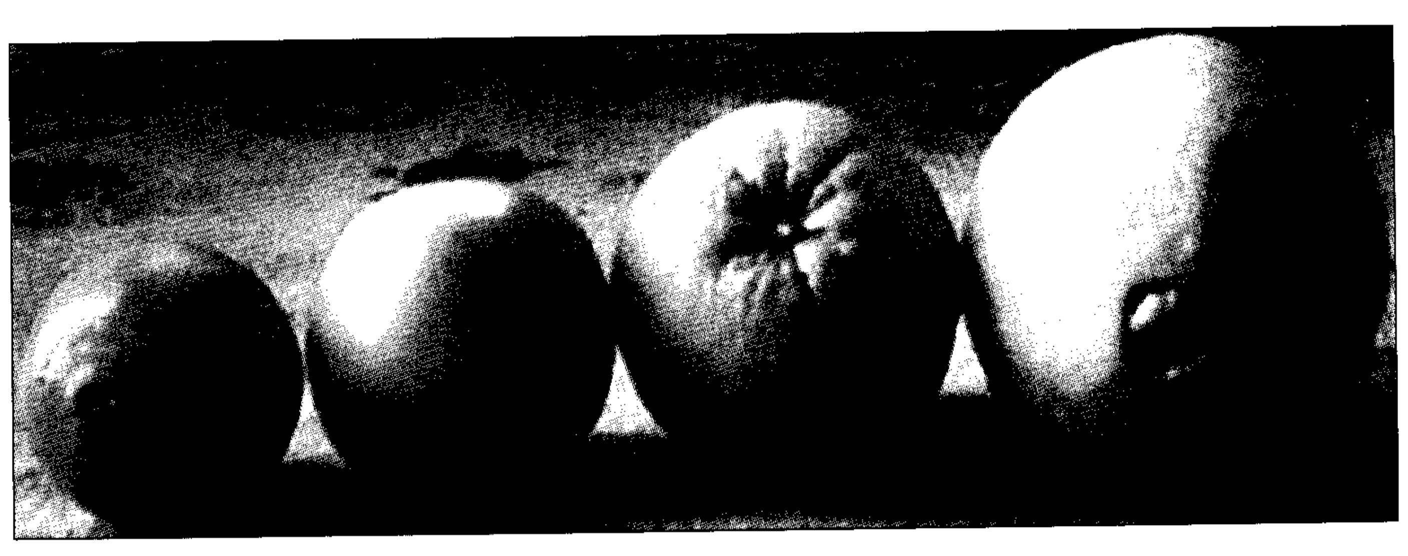
له علاقة بالناحية الروحية. على الرغم من ذلك يمكن العثور على بعض التقارير من داخل المنتديات التي عقدت لمناقشة الحالات التي شفيت من أمراض خطيرة كالسرطان بفضل استخدام أورمس، لكن يجب تصنيف كل المعطيات المتعلقة بصحة الإنسان في هذا الموضوع على أنها خيالية، إذ إنه لم يتم إجراء أي تجارب سريرية، كما أنه لا تتوافر إحصاءات دقيقة عن النتائج التي تم التوصل إليها، وهنا بالطبع يجب الانتباه إلى أهمية عدم الادعاء بوجود استخدامات طبية لمثل هذه المواد، التي لا توجد حتى الآن تحليلات دقيقة عنها.

على أي حال، نستطيع الابتعاد عن المعايير الطبية، وأن نظهر في الوقت نفسه أحد الآثار المباشرة للأورمس عبر بعض التقنيات المستخدمة لضبط فاعلية المعالجة باستخدام طب الطاقة، ومن هذه التقنيات التنظير المجهري للدم باستخدام المجال المظلم dark-field microscopy of the blood. بعد مضي بضع ساعات على تناول الأورمس (كما يحدث في العديد من العلاجات المفيدة الأخرى مثل الوخز بالإبر والتدليك... إلخ)، فإن خلايا الدم الحمراء تتخذ شكلا دائريا أكثر وتصبح متباعدة فيما بينها، كما أن كمية الفضلات في مصل الدم تنخفض. وتشير أيضا بعض التقارير المبنية على نتائج دراسة مخطط كهربائية الدماغ EEG studies إلى وجود مزيد من التوازن بين نصفي كرة الدماغ اليميني واليساري.

وهناك تقنية أخرى تُعقد عليها الآمال تُدعى التصور الكهربائي الحيوي bioelectrography، وهي تسمية عامة تشير إلى تقنية كيرليان في التصوير[3] Kirlian photograghy والتطويرات اللاحقة التي قامت على أساسها، وقد قام الدكتور كونستانتين كوروتكوف بتوسيعها حتى حولها إلى علم كمي.

وهنا أنقل تجربتي الخاصة. منذ قرابة السنة بدأت بتناول أحد مستحضرات أورمس المتداولة في السوق، وقد أحسست بوجود طاقة زائدة لدي، كما شعرت بتحسن عام. عند إجراء الاختبار استخدمت أجهزة GDV (أي إظهار التفريغ الغازي gas discharge visualization)، التي صممها الدكتور كوروتكوف. في البداية كنت قد توقفت عن تناول مستحضر أورمس لمدة أسبوعين، ثم قمت بقراءة النتيجة الأولية (لهذا الاختبار المعياري)، التي حصلت عليها من خلال أجهزة GDV. بعد ذلك مباشرة تناولت جرعة كبيرة من مستحضر أورمس (ما يعادل ستة أضعاف الجرعة اليومية الموصى بها)، ثم قمتُ بعدة قراءات للنتائج على فترات متباعدة. يبين الشكل(1) المسيرة الزمنية للاستجابة، التي ارتفعت فيها

(3) تقنية كيرليان في التصوير: هي شكل من أشكال التصوير بالطباعة التلامسية contact print photography، وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى سيميون كيرليان، الذي اكتشف بالمصادفة في العام 1939 أنه إذا تم وصل صفيحة الصورة بمصدر كهربائي ذي التوتر العالي فإن التفريغات الهالية الصغيرة small corona discharges (التي يحدثها المجال الكهربائي القوي الموجود عند أطراف الشيء المراد تصويره) هي التي تقوم بطبع الصورة على الصفيحة.



من اليمين إلى اليسار: ثمرة برتقال عادية، ثمرة جريب فروت عادية، ثمرة برتقال من شجرة تمت معالجتها لمدة سنتين بالأورمس، ثمرة برتقال من شجرة تمت معالجتها لمدة أربع سنوات بالأورمس

المنطقة الظاهرة في الصورة إلى ما يعادل الضعف ونصف الضعف مقارنة بالاختبار المعياري، وذلك في غضون ما يقارب أربع ساعات، ثم تراجعت ببطء خلال الاثنتي عشرة ساعة التي تلتها. ومن خلال العمل الضخم الذي قام به الدكتور كورتكوف عبر أجهزة GDV، يتضح أنه من بين القيم المتغيرة العديدة للصورة التي يمكن تحليلها تعد المنطقة أكثر تلك القيم تعبيرا عن الصحة العامة.

وبالنسبة لمن يريدون التعرف على طريقة إعداد هذه المستحضرات يمكنهم زيارة موقع باري كارتر على الإنترنت (http://www.subtleenergies.com/ORMUS/TW/articles.htm). وأبسط طريقة هي برفع الأس الهيدروجيني pH لمحلول ملح البحر إلى ما بين 10.6 و10.78، فينتج لدينا راسب مكون بشكل رئيسي من المغنيزيوم وهيدروكسيدات الكالسيوم، وهو يجعل عناصر أورمس تترسب معه، وبعد ذلك لا يبقى أمامنا سوى إزالة الملح منه.

نتائج أورمس في مجال الزراعة

نظرا للصعوبات التي تحول دون الوصول إلى معطيات علمية واضحة حول آثار الأورمس على صحة الإنسان، فإن معظم التركيز يجب أن يتحول نحو دراسة آثاره على النباتات، والمعطيات المتوفرة في هذا المجال غير قابلة للنقاش، بل إنها تشكل ظاهرة فريدة من نوعها.

هناك محلول مركز وبسيط يتم تحضيره من مياه البحر، ويعد المستحضر الأكثر استخداما والأبسط تكوينا والأقل تكلفة. وفي الحقيقة، قبل اكتشاف الأورمس كان استخدام المنتجات المستخرجة من البحر، لا سيما الأعشاب البحرية، في مجال الزراعة شائعا جدا، حتى إن بعض الناس تحدثوا عن حصولهم على نتائج جيدة نتيجة استخدامهم مياه البحر غير المكررة ضمن الأراضي الزراعية.

سجل الدكتور ماينارد موراي الكثير من المعطيات حول صحة الحيوانات التي غُذيت على حبوب كانت قد زُرعت في أرض تمت معالجتها بمياه البحر. وفي

إحدى التجارب تم استخدام سلالة من الفئران، التي يصاب عادة تسعون في المائة منها بسرطان الثدي بشكل طبيعي، إلا أن هذه الفئران لم يُصب منها إلا خمسة وخمسون في المائة بسرطان الثدي بعد أن تناولت ذلك النوع من الحبوب، وفي الجيل الثاني انخفضت النسبة إلى اثنين في المائة. بالطبع، كل أرض تعالج بمياه البحر ستصبح في نهاية المطاف شديدة الملوحة، وهذا سيؤدي إلى تناقص مردودها، إلا أن الطريقة المتبعة في تركيز الأورمس ستجعل نسبته أعلى من نسبة الملح بما يعادل ثمانين ضعفا. وهنا لابد من الإشارة إلى تعليق الدكتور موراي بأن الشعوب التي تقل نسبة الإصابة بين صفوفها بالأورام الخبيثة تكون عادة ممن يقطنون المناطق التي يكون «خروج الماء منها إلى البحر قليلا جدا»، حيث يؤدي هذا الأمر إلى الحفاظ على العناصر الحيوية التي تترسب من الجبال لكي تتم الاستفادة منها مجددا.

المطلوب هو كمية قليلة جدا من هذا المحلول المركز: من أربعة إلى عشرين ليترا لكل واحد أكر «أي ما يعادل 0.405 هيكتار»، وذلك حسب نوع المحصول. والنتائج التي تم التوصل إليها جراء استخدام محلول الأورمس المركز هي أفضل بكثير مما تم التوصل إليه جراء استخدام مياه البحر، وسيكون من الصعب تصديق تلك النتائج دون توثيق ذلك عبر الصور. على سبيل المثال، يبلغ ارتفاع شجرة الجوز التي تمت معالجتها بالأورمس لعدة سنوات ضعفي ارتفاع شجرة الجوز العادية، أما معدل إنتاجها فهو أكبر بستة أضعاف - وحتى حجم ثمرة الجوز يعادل حجم ثمرة برتقال اليوسفي! أما الثمرة التي أنتجتها شجرة الخوخ، بعد مرور سنة واحدة على معالجتها بالأورمس، فكان وزن ثمرتها يعادل ضعفي وزن الثمرة العادية، وبعد مرور سنتين أصبح وزنها يعادل خمسة أضعاف، ونرى في إحدى الصور نباتات ذرة عالية جدا بحيث أن مالكها يضطر لاستخدام سلم حتى يطال قمتها، إذ يصل ارتفاعها - كما يظهر من خلال الصورة - إلى قرابة 12 قدما (3.6 أمتار)، كما تم إنتاج ثمار برتقال يعادل حجم الواحدة منها حجم ثمرة البطيخ الأصفر! وهناك العديد من الأمثلة الأخرى، بالإضافة إلى ذلك تجمع التقارير الصادرة عن مستخدمي الأورمس أن المحاصيل التي تمت معالجتها بهذه الطريقة ليست أكثر إنتاجية وحسب، بل إنها تنضج أيضا على نحو أبكر وتحتاج إلى نسبة أقل من الأسمدة الكيماوية، كما تتمتع بمقاومة أكبر ضد الحشرات، وحتى طعمها يكون أفضل!

كانت تجربتي الشخصية مع البطاطس، وقد قمت بزراعة أربعة صفوف (شملت النوعين)، حيث خصصت صفين للبطاطس المعالجة بالأورمس، وصفين للبطاطس المروية بالمياه العادية، عند القطاف كان الوزن الإجمالي للبطاطس العادية 31 باوندا (أي 14.1 كيلوغراما)، في حين بلغ الوزن الإجمالي للبطاطس

المعالجة بالأورمس 58 باوندا (أي 26.3 كيلوغراما). بالإضافة إلى ذلك، قمت أيضا بمعالجة الجزر بالأورمس، وكان وزن الجزرة الواحدة يصل أحيانا إلى باوند واحد (أي 454 غراما)، علما أنني لم أقم بزراعة جزر بالطريقة العادية لكي أقارنه به.

وقد ثبت في جميع الحالات أن الإنتاجية بعد المعالجة تتضاعف أكثر وأكثر خلال السنة الثانية والسنوات التي تليها، والفضل في هذا يعود على الأرجح إلى مفعول الأورمس في بناء محتوى التربة من الجذور الفطرية -Myco rhizae – أي المتكافلات الفطرية Fungal Symbionts الضرورية لنمو النباتات، إذ لايزال علينا أن نولي اهتماما كافيا لهذه الفطور وذلك لأهميتها، فهي تتعرض لنضوب شديد عبر الاستخدام المفرط للأسمدة الكيماوية ومبيدات الأعشاب الضارة.

بالطبع ليس هناك إثبات على أن هذه النتائج، على الرغم من أهميتها، يعود الفضل فيها إلى الأورمس، وربما مازال هناك من يقول إن النتائج التي تم التوصل إليها هي بفضل إضافة المعادن التقليدية، لكن هذا الأمر إلى جانب الكثير مما سبق ذكره، رهن بالمزيد من البحث العلمي الدقيق.

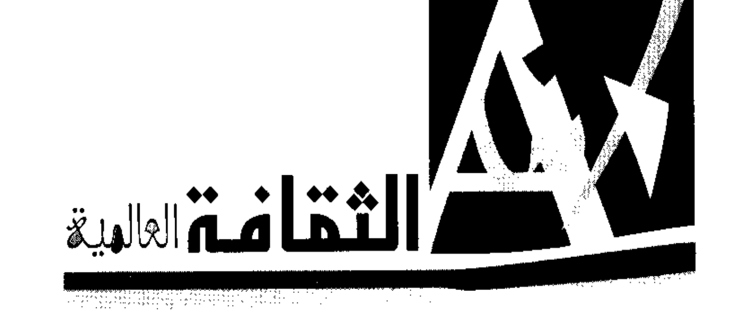
الاستعمالات الممكنة لعناصر أورمس

على أي حال، ما من داع لأن نؤجل الاستفادة من هذه الاكتشافات بانتظار ذلك البحث العلمي، فالنمو السكاني في العالم مستمر دون توقف؛ وفي الوقت نفسه، مساحة الأرض الصالحة للزراعة محدودة، ويتم استثمار معظمها حاليا. إذا كان بالإمكان زيادة الإنتاج، حتى ولو بمعدل ضعفين فقط، عبر هذا المستحضر الرخيص جدا المستخرج من مياه البحر، حينذاك ستحل الوفرة مكان المجاعة التي تهددنا جميعا، وحتى في حال لم يتم استخدام الأورمس كعنصر إضافي بشكل مباشر، فإن أثره الإيجابي في صحة الإنسان سيكون كبيرا. وعلاوة على ذلك، إن عدم إمكانية تسجيل براءة اختراع على مياه البحر قد يجعل الشركات متعددة الجنسيات غير قادرة على احتكار السوق وبيع هذا المنتج بأسعار باهظة، بحيث يعجز المزارعون في العالم الثالث عن شرائه.

ما الذي حدث حتى أصبحت النباتات والأرض والحيوانات والبشر جميعهم يعانون من هذا النقص المزمن في عناصر أورمس؟ قد يظن الإنسان أن وجود هذه العناصر ضمن مياه البحر بدرجة عالية من التركيز يدل على أنها انجرفت بكميات كبيرة إلى داخل البحر على مر العصور. قد يفسر لنا هذا الأمر إلى حد ما سبب التصحر المتزايد الذي تعاني منه مساحات شاسعة من الأرض، حيث إن هذا التراجع العام في نمو النباتات هو الذي يساهم بما نشهده حاليا من ارتفاع في معدل غاز ثاني أكسيد الكربون في الجو، والذي يؤدي بدوره إلى ارتفاع

حرارة الأرض، لذلك فإن معالجة مساحة واسعة من الأرض بوساطة عناصر أورمس قد يكون لها فوائد جمة في الحد من ارتفاع حرارة الأرض، وبإمكان الإنسان أن يتخيل استخدام الطائرات لرش هذه العناصر على مساحات واسعة من الأرض، وبالأخص الغابات. إضافة إلى ذلك، سيكون من الممكن استثمار مساحات صغيرة من الأرض من أجل إنتاج كميات كبيرة من محاصيل الوقود الحيوي biofuel crops بدلا من الوقود الأحفوري (أو ما يُعرف بوقود المستحاثات fossil fuel).

ليس أمامنا الكثير من الوقت، فإذا كنا نريد تفادي أسوأ كارثة بيئية، هناك العديد من الأمور التي ينبغي القيام بها. من بينها معالجة الأرض بهذه المنتجات المستخرجة من مياه البحر، التي قد تؤدي دورا مهما جدا. يجب القيام بهذا الأمر الآن. لهذا السبب أطلب من كل من يقرأ هذا المقال أن يبذل كل ما بوسعه لنشر المعلومات حول عناصر أورمس.



فيلم «لاعبو الشطرنج» للمخرج ساتياجيت راي

بقلم: أندرو روبنسن

ترجمة: ليلى عادل زيتون

العنوان الأصلي للمقال: Satyajit Ray''s the Chess Players

ونشر في مجلة History Today، عدد يوليو 2007

يستذكر أندرو روبنسن Andrew Robinson[*] حواراته مع المخرج الشهير، التي تناولت أعماله، وعلى وجه الخصوص، فيلمه الأوردي الذي أُعيد عرضه أخيرا وهو فيلم «لاعبو الشطرنج» (the Chess Players)، الذي أنجزه في سبعينيات القرن الماضي، إذ يستكشف هذا الفيلم الأحداث التي أحاطت وضع إقليم «أود» [1] (Oudh) تحت السيطرة البريطانية في العام 1856م.

---

* أندرو روبنسون: هو مؤلف كتاب «ساتياجيت راي: البصيرة» (Satyajit Ray: The Inner Eye)، كما أنه أستاذ زائر في كلية ولفسون في جامعة كامبريدج.

(1) أود: هو إقليم يقع اليوم ضمن ولاية أوتار براديش في شمال الهند، وكان هذا الإقليم في عهد المغول تابعا لما سمي بـ «أقاليم أود وآغرا المتحدة» - المترجمة.

«إنه أمر معقد ومتشابك للغاية، إذ لا يزال الإرث البريطاني موجودا بكامله في الهند»، بهذه الكلمات حدثني المخرج البنغالي ساتياجيت راي Satyajit Ray (1991-1992) عندما التقيته مطولا في ثمانينيات القرن الماضي للتعرف إلى سيرته الذاتية، ثم قال: «أعتقد أن الكثيرين منا مدينون لهذا العمل، كما أنني مدين لمسألة معرفتي بكلا الثقافتين على الأقل، إذ إن هذا الأمر يرسخ مكانتي كمخرج سينمائي، لكنني مدرك أيضا لكل الأشياء التي ارتكبت، ولا أعرف حقيقة طبيعة مشاعري تجاه ذلك».

أثار راي فرصة سبر أغوار بعض الالتباسات داخل نفسه، ذلك أن ما يعالجه في فيلمه «لاعبو الشطرنج»، والذي قدمه في العام 1974م، يختلف في عدة نواح مهمة عن كل أفلامه الرئيسية الأخرى، التي تصل إلى ثلاثين فيلما أو أكثر (ابتداء من أكثر أعماله شهرة وهو «ثلاثية أبو» Apu Trilogy، الذي قدمه في أواخر خمسينيات القرن الماضي).

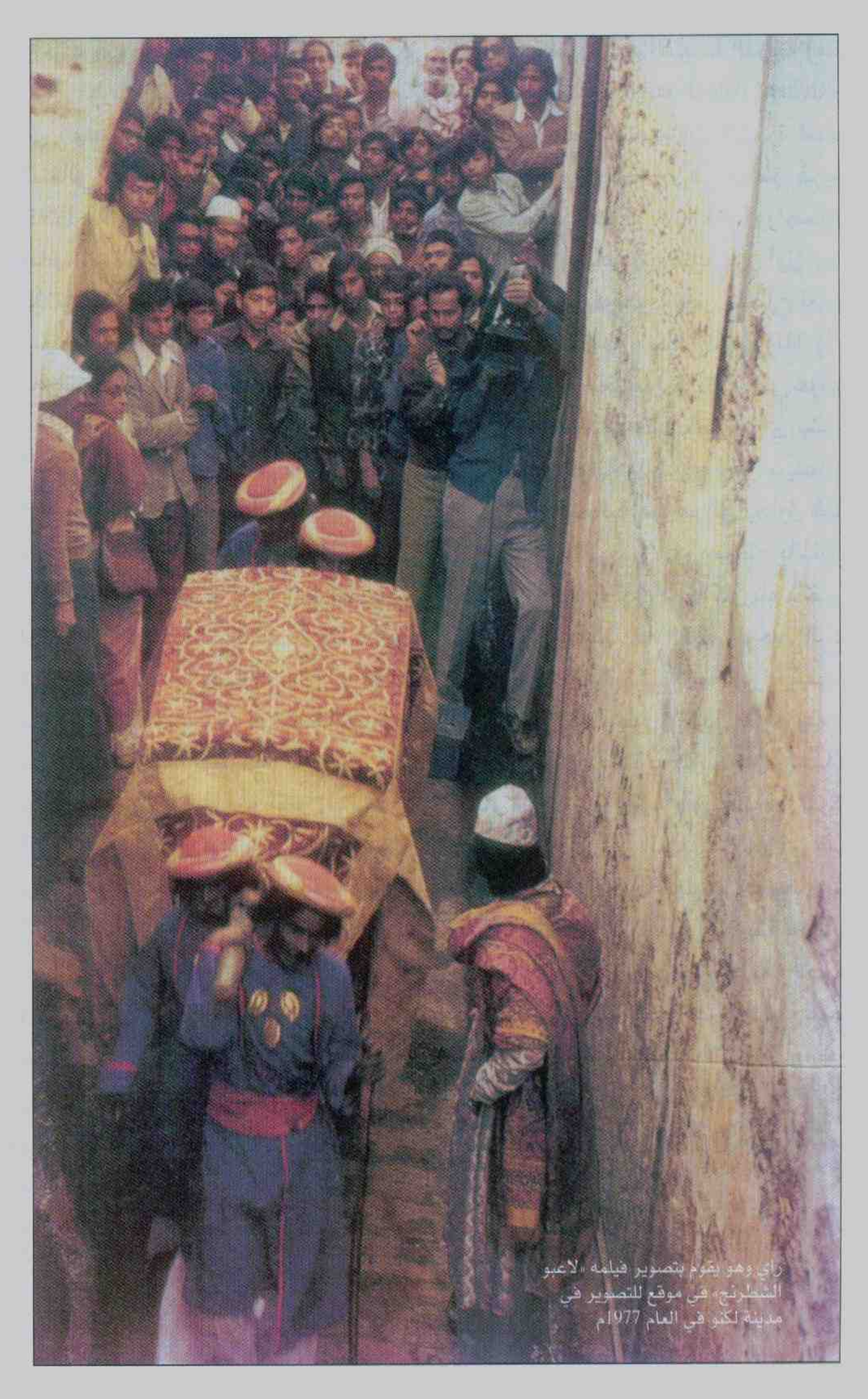
بداية، يعد فيلم راي «لاعبو الشطرنج» أكثر أفلامه تكلفة، إذ شارك في هذا العمل نجوم من سينما بومباي الهندية (بشكل رئيسي الممثلان أمجد خان Amjad Kha وشعبانة عزمي Shabana Azmi وأميتاب باتشان بدور الراوي Amitabh Bachchan)، كما جاء بعضهم من السينما الغربية (مثل ريتشارد أتينبورغ Richard Attenbourgh)، هذا إلى جانب التجهيزات الكبيرة لنمط الحياة المغولية والتصوير في مناطق غريبة (مثل منطقتي لكنو Lucknow [2] وراجستان Rajastan). إضافة إلى ذلك، فإن أول ميزة بارزة لهذا الفيلم هو خوض المخرج لغمار ثقافة (وهي ثقافة منطقة لكنو) ولغة (أي اللغة الأوردية) تختلفان عن تلك التي عرفها في إقليم البنغال، فقد صرح راي بشكل صارم بأن كتابة وإخراج نص سينمائي بغير اللغة البنغالية هو أمر لن يحاول فعله أبدا (فعلى الرغم من معرفته باللغتين الإنجليزية والبنغالية إلا أنه كان يلم بالقليل من الأوردية)، كما أنه الفيلم الوحيد الذي تلعب فيه الثقافة الإسلامية دورا رئيسيا، والأهم من ذلك هو أن هذا الفيلم يدخل في إطار الدراما التاريخية، إذ تدور أحداثه أثناء فترة ضم إقليم «أود» لنفوذ شركة الهند الشرقية في العام 1856م، أي قبل نشوب حركة التمرد الهندية[3]، ومع أننا نستشعر التأثير البريطاني بطريقة مشذبة في معظم أفلام راي، وفي تقديمه لأفلام عديدة تدور أحداثها في القرن التاسع عشر الميلادي، فإن فيلمه «لاعبو الشطرنج» يعد الفيلم الوحيد الذي يشكل فيه الراج Raj [4] والمسؤولون الرسميون محور المشهد السينمائي.

---

(2) لكنو: كانت عاصمة إقليم أود في عهد المغول، وهي اليوم تتبع ولاية أوتار براديش الهندية، وهي ثاني أكبر مدينة في هذه الولاية - المترجمة.

(3) حركة التمرد الهندية: قام المجندون السباهي في الأقاليم الشمالية بالتمرد على بريطانيا في العام 1857م إثر إلحاق إقليم أود بشركة الهند الشرقية في العام 1856م - المترجمة.

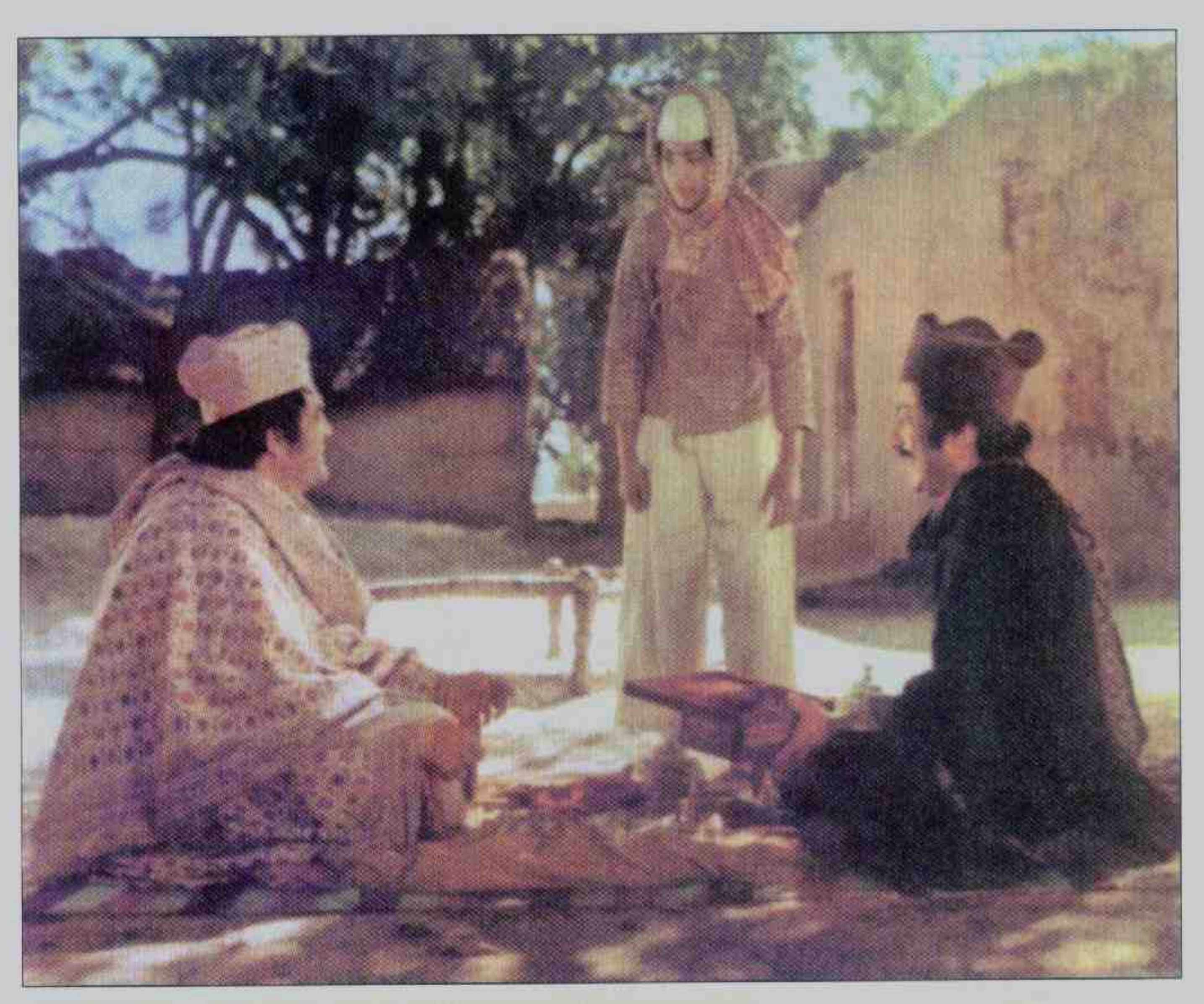
(4) راج: وهي كلمة هندية تعني الحكم أو السيطرة، وقد استخدمت للمرة الأولى للإشارة إلى الحكم في الهند خلال فترة الحماية البريطانية، حيث كانت الهند إقليما تابعا للتاج البريطاني - المترجمة.



راي وهو يقوم بتصوير فيلمه «لاعبو الشطرنج» في موقع للتصوير في مدينة لكنو في العام 1977م

فقد كان فيلم «لاعبو الشطرنج»، الذي كان العرض العالمي الأول له في مهرجان لندن السينمائي في العام 1977م، أول فيلم للراشدين يتناول الراج. واليوم، وبعد أن قدمت أفلام مثل «غاندي» و«حرارة ورمال» و«جوهرة في التاج» و«ممر إلى الهند»، إضافة إلى أفلام أخرى عديدة متعلقة بالراج إلا أن فيلم راي يقدم إلى حد بعيد الصورة الأكثر تعقيدا لهذا الصراع الثقافي على وجه التحديد، ولا يضاهيه في ذلك أي مخرج بريطاني أو هندي أو أي كان، إذ علق في.إس.نايبول V.S.Naipaul على الفيلم قائلا: «هذا الفيلم يشبه المسرح الشكسبيري، إذ إن هناك ثلاثمائة كلمة لا تتحدث إلا عن الخير، هذه أمور رائعة تحدث»، لذلك، تكون النتيجة الطبيعية أن العديد من المشاهدين، وربما معظمهم ممن أرادوا إبقاء نزعتهم الاستعمارية نقية وبسيطة، وجدوا أن الفيلم يفتقد لعنصري الإقناع والتشويق، وذلك على خلاف المزيج المعقد الذي قدمه «راي»، إذ يتذمر الناقد السينمائي في صحيفة الـ «نيويورك تايمز» في العام 1978م قائلا: «ليس فيلم راي بالمثير، ففي بعض الأحيان يبدو الفيلم ممتعا، وفي معظم الأحيان يبدو تأمليا، فإذا لم تكن من النوع الذي يتجاوب مع هذا الصنف من الأفلام فإن الفيلم يعد حينها مفرطا في التهذيب لدرجة قد تجعلك راغبا في أن تصيح متفوها بكلمة بذيئة». من ناحية أخرى، فقد أجمع المؤرخون على الثناء على هذا الفيلم، ومن المؤكد أن رواية التفصيلات الدقيقة بهذا الشكل الهائل والبحث الدؤوب كان لهما نصيب في صنع هذا العمل.

وتكمن الأسباب التي دفعت راي لخوض هذا التحدي هو شغف راي نفسه بلعبة الشطرنج وولعه بمحيط مدينة «لكنو» وثقافتها، خصوصا موسيقاها ورقصاتها، هذا إلى جانب حبه للقصة القصيرة التي كتبها الكاتب الهندي المعروف بريم شاند Prem Chand التي حملت عنوان: «لاعبو الشطرنج» (Shatranj ke Khilari)، وكان قد كتبها في عشرينيات القرن الماضي، وشكلت بذلك نواة هذا العمل السينمائي. فقد كان راي مولعا بالشطرنج في أربعينيات وأوائل خمسينيات القرن الماضي، إلا أن هذا الولع أخذ يتلاشى مع اجتياح شغف أكبر في حياته ألا وهو صناعة السينما. فقد باع مجموعة كتبه المتعلقة بالشطرنج كجزء من سعيه لزيادة الدعم المالي لأول فيلم له وهو «باثير بانشالي» (Pather Panchali) في العام 1955م، وقد تركت زيارته لمدينة «لكنو» انطباعا عميقا لديه حين كان صبيا صغيرا في أواخر عشرينيات القرن الماضي، إذ أقام مع عم له، الذي كان بدوره مؤلفا شهيرا للأغاني البنغالية، كما كان منزل هذا العم يعج بكل صنف موسيقي، حيث كان ضيوفه يقدمون أساليب فنية مصقولة تتوافق وموسيقاه، وقد ضم شملهم هذا أعظم موسيقي كلاسيكي في العصر الحديث في شمال الهند وهو الأستاذ علاء الدين خان Ustad Allauddin Khan (وهو والد الفنان المبدع علي أكبر خان Ali Akbar Khan



الممثلان سانجيف كومار (إلى اليسار) وسعيد جعفري في دور سيدين نبيلين من مدينة لكنو مدمنين على لعبة الشطرنج. يذكر أن هذه اللعبة قد اخترعت في الهند

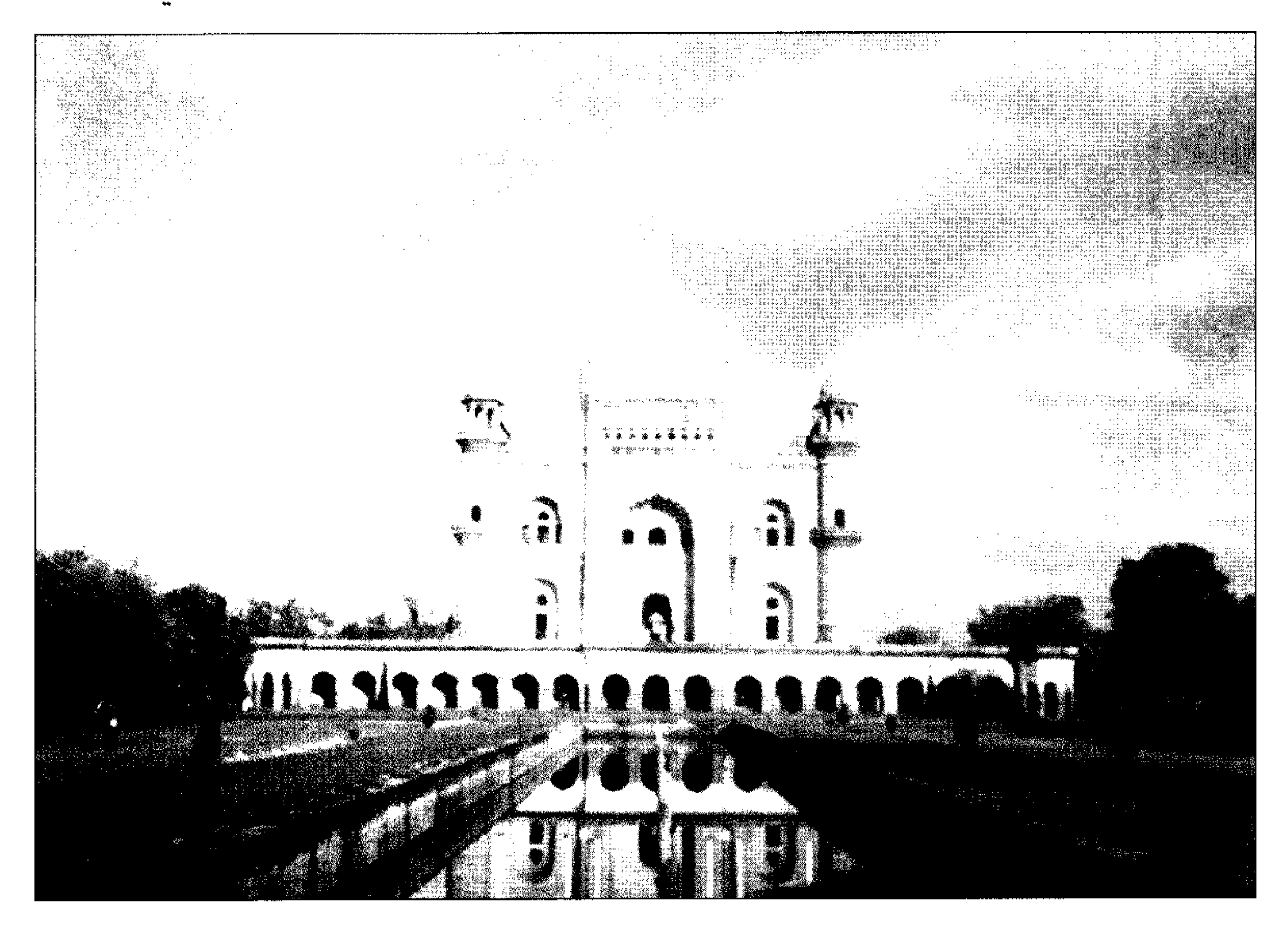
والأب الروحي للفنان رافي شنكار Ravi Shankar). وقد استمع راي، وهو شاب، لعلاء الدين وهو يعزف على آلتي البيانو والكمنجة، كما تشرب هذا الجو المفعم بالصفاء الجميل الذي كان يطبع مدينة لكنو، كما شاهد تلك المعالم التي كانت جعلت من مدينة لكنو «باريس الشرق» و«بابل الهند» قبل قرن من الزمان، مثل مسجد بارا إمامبارا [5] (Bara Imambara) المزخرف ومتاهة بهولبهوليا (Bhulbhuliya) المعروفة وحديقة ديلكوشا (Dilkusha) وقصور الملوك والنواب (الحكام المحليين) المزينة في إقليم «أود». إلى جانب هذا، فقد رأى راي الشاب هيكل دار المندوب السامي البريطاني وآثار القذائف المدفعية التي ألقاها المتمردون، والتي لاتزال واضحة على جدرانها، إلى جانب لوحة رخامية تذكارية تروي الموقعة التي سقط فيها السير هنري لورنس Sir Henry Lawrence في العام 1857م، وحتى هذا اليوم تخيم على هذه الأماكن هالة فريدة من نوعها ملؤها الكآبة.

وفي سبعينيات القرن الماضي، أي بعد مضي أكثر من قرن على زوال سلطة «النواب» (Nawabs) في مدينة «لكنو»،

(5) إمامبارا: تطلق هذه التسمية عادة على الحسينيات في الهند - المترجمة.

كانت المدينة لا تزال تتبوأ مكانة خاصة في حياة الهند، فخلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر شكلت كل من «لكنو» و«أود» (التي كانت ولاية غنية عاصمتها لكنو) مخزنا للثقافة المغولية بعد تداعي قوتهم في دلهي. وقد أدركت شركة الهند الشرقية هذه الحقيقة، فما كان منها إلا أن جعلت من حكام إقليم «أود» ملوكا في العام 1814م، في الوقت الذي عملت فيه على تقويض سلطتهم ومصادر دخلهم بشكل ثابت منذ العام 1765م والسنوات التي تلتها. فقد غدا أولئك الملوك، تدريجيا، إلى جانب تلك المدينة التي زينوها بالقصور والمساجد، نموذجا للثراء الفاحش في كل شأن من شؤون الحياة سواء أكان ذلك في الثياب أو مآدب الطعام أو النارجيلة أو تربية الحمام أو تأليف الموسيقى أو الشعر أو العلاقات العاطفية.

وأفضل دليل على هذه الثقافة هو الكتاب الرائع الذي وضعه بالأوردية مؤلفه عبدالحليم شارار Abdulhalim Sharar ونشره في عشرينيات القرن الماضي، وتزامن إصدار طبعته الإنجليزية في لندن مع البحث الذي بدأه راي، والذي يحمل اسم «لكنو: المرحلة الأخيرة من ثقافة شرقية» (Lucknow: the Last Phase of an Oriental Culture)، الذي صدر في العام 1975م. ويعد هذا العمل، حسب قول المترجمين لهذا الكتاب الهندو - بريطاني، بمنزلة



ضريح سفدار جانغ Safdar Jang، وهو أحد نواب إقليم أود في القرن الثامن عشر
وقد بناه النائب شوجا أود داولا Nawab Shuja ud Dalula بين العامين 1753 و1774م



المخرج ساتياجيت راي في موقع للتصوير حيث تولى مسؤولية كل جوانب أفلامه ابتداء من كتابة النص وصولا لتأليف الموسيقى

«مصدر أولي ذي أهمية كبيرة، فهو عمل وثائقي فريد يمتاز بالحيوية والمصداقية بكل تفاصيله، ويتناول حضارة هندية مهمة وهي في أوجها». وقد ذكر راي لاحقا أن أحد أكثر ردود الفعل المرضية التي وصلت إليه حول فيلمه «لاعبو الشطرنج» هي الرسالة التي تلقاها من أحد مترجمي الكتاب وهو فاخر حسين Fakhir Hussain، الذي لاحظ أن كل التفاصيل التي قدمها راي في فيلمه كانت صحيحة.

وقد ولد شارار في العام 1860م، حيث قضى السنوات التسع الأولى من حياته في مدينة «لكنو» ثم ما لبث أن أمضى السنوات العشر التالية في مدينة كالكوتا (Calcutta) في بلاط ملك إقليم «أود» المنفي واجد علي شاه Wajid Ali Shah، الذي كان قد أجبر على التنازل عن عرشه في العام 1856م، وهو الحدث الرئيسي الذي يدور حوله فيلم «لاعبو الشطرنج»، ثم قضى شارار بقية حياته في «لكنو»، وقد غدا بعد فترة وجيزة رائد الرواية الأوردية الحديثة ومؤرخا يتميز بآفاق رحبة «مفعمة بالتجديد»، وهو كاتب «مضطلع بمعرفة عميقة بالأدب العربي والأوردي والفارسي، وكذلك بالفقه الإسلامي» حسب ما يصفه حسين. وقد تأثر شارار تأثرا عميقا بالغرب مثل معظم المفكرين الهنود من أبناء عصره، وذلك كما يبدو نتيجة زيارته التي قام بها إلى إنجلترا في العام 1895م، إلا أن تأثره بالغرب جعل الكتاب يبدو انفصاميا إلى درجة آسرة، فقد رافقت التفاصيل الموثقة بدقة اتهامات لمدينة «لكنو» بانحلال أخلاقي



عرض صامت لواجد علي شاه (الممثل أمجد خان)
وهو على وشك التنازل عن عرشه للجنرال أوترام (الممثل ريتشارد أتنبيرغ)

يناسب بأكبر إمبريالي فكتوري واثق من نفسه، وبذلك فإن حبه لهذه المدينة يظهر متداخلا في بعض الأحيان ضمن بضع صفحات من الأمور السابق ذكرها. وعليه، فقد استطاعت حياة شارار تصوير كل من النزاع والاحتمالات المبتكرة بشكل قوي ومفعم بالحيوية في قلب تعاطي الهند مع الغرب.

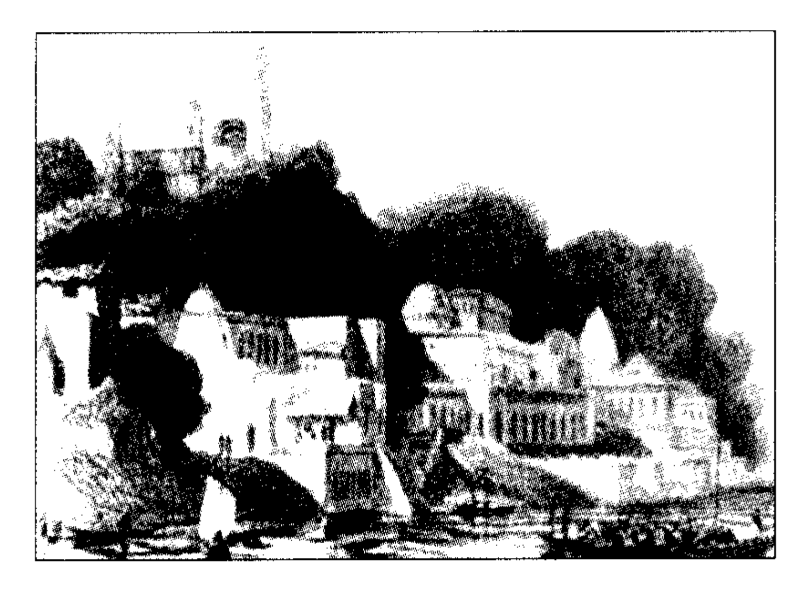
وتعد هذه النواحي الأكثر وضوحا بالنسبة للملك نفسه، الذي تبدو شخصيته حسب قول شارار: «واحدة من أكثر الشخصيات المبهمة، كما تروي سجلات التاريخ كلها»، إلا أنه كان «إنسانا ورعا إلى أبعد الحدود، كما كان متقشفا ومراقبا حازما لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية»، لكن شارار كان يشعر بالاشمئزاز من العلاقات الغرامية التي أقامها واجد علي شاه، هذا إلى جانب مغامراته الغرامية في شبابه مع الخادمات والمحظيات ونساء أخريات، بل إنه «لم يتورع عن إظهار ذوقه المتدني بشكل فاضح واستعماله للغة البذيئة»، لكنه كان معجبا كذلك ببراعة الملك في الموسيقى الكلاسيكية وإتقانه لها كخبير ومؤلف موسيقي. ويذكر شارار ذلك قائلا: «لقد سمعت من مغنيات موثوقات في العصر، وقد كن من وصيفاته، أن الملك كان يحرك أصابع قدمه الكبيرة بشكل متناغم حتى وهو نائم»، ومع ذلك لم يتجنب شارار إدانة ما قام به واجد علي من إفساد لمواهبه الموسيقية، إضافة للأسلوب السائد في موسيقاه حيث «تميزت بخفتها وبساطتها وألحانها الجذابة التي كان من الممكن أن



لمحة عن تلك العلاقة الهندية - البريطانية المتداخلة والمعقدة في مشهد لمصارعة الديوك التي يستمتع بها نواب إقليم أود في القرن الثامن عشر برفقة مسؤولين بريطانيين، وقد رسم هذه اللوحة فنان مجهول من مدينة لكنو وتعود للعام 1830م

تحظى بتقدير كل شخص». وتعرف هذه الألحان عادة باسم «الثمرس» (Thumris)[6]، التي قدم راي العديد منها في فيلمه.

وقد وصل راي إلى كراهيته للملك خلال فترة مبكرة جدا، وكان ذلك أثناء عملية البحث التي قام بها من أجل فيلمه «لاعبو الشطرنج»، وقد دفعه هذا الأمر، في مرحلة ما، للتوجه إلى «مكتب مكتبة الهند» (India Office Library) في لندن، وشعر راي مرات عدة بالرغبة في التخلي عن الفيلم بالكامل، وقد عبر عن ذلك في عدد من الرسائل التي كتبها لأحد المتعاونات معه في الفيلم، والتي تتحدث الأوردية وهي شامة زيدي Shama Zaidi، ففي إحدى المناسبات أبدت استعدادها لترجمة السيرة الذاتية لواجد علي، التي يتناول فيها الملك وصف حياته الجنسية منذ سن الثامنة، إلا أن راي أخبرها ألا تقدم على فعل ذلك لأن هذا سيدفعه لكراهية واجد علي أكثر مما يكرهه الآن. وبعد مرور عقد من الزمان، يشرح راي لي قائلا: «أعتقد أنه ثمة جانبين في شخصية واجد علي شاه، جانب يعجبك، وجانب آخر لا يعجبك على الإطلاق، ففي مرحلة معينة لم أشعر بأي تعاطف مع هذه الشخصية الحمقاء، ولو كنت قد شعرت بأي تعاطف معه لما تمكنت حينها من تقديم الفيلم، ثم أخيرا، وبعد قضاء أشهر طويلة في دراسة النواب ومدينة لكنو وكل الأمور الأخرى،

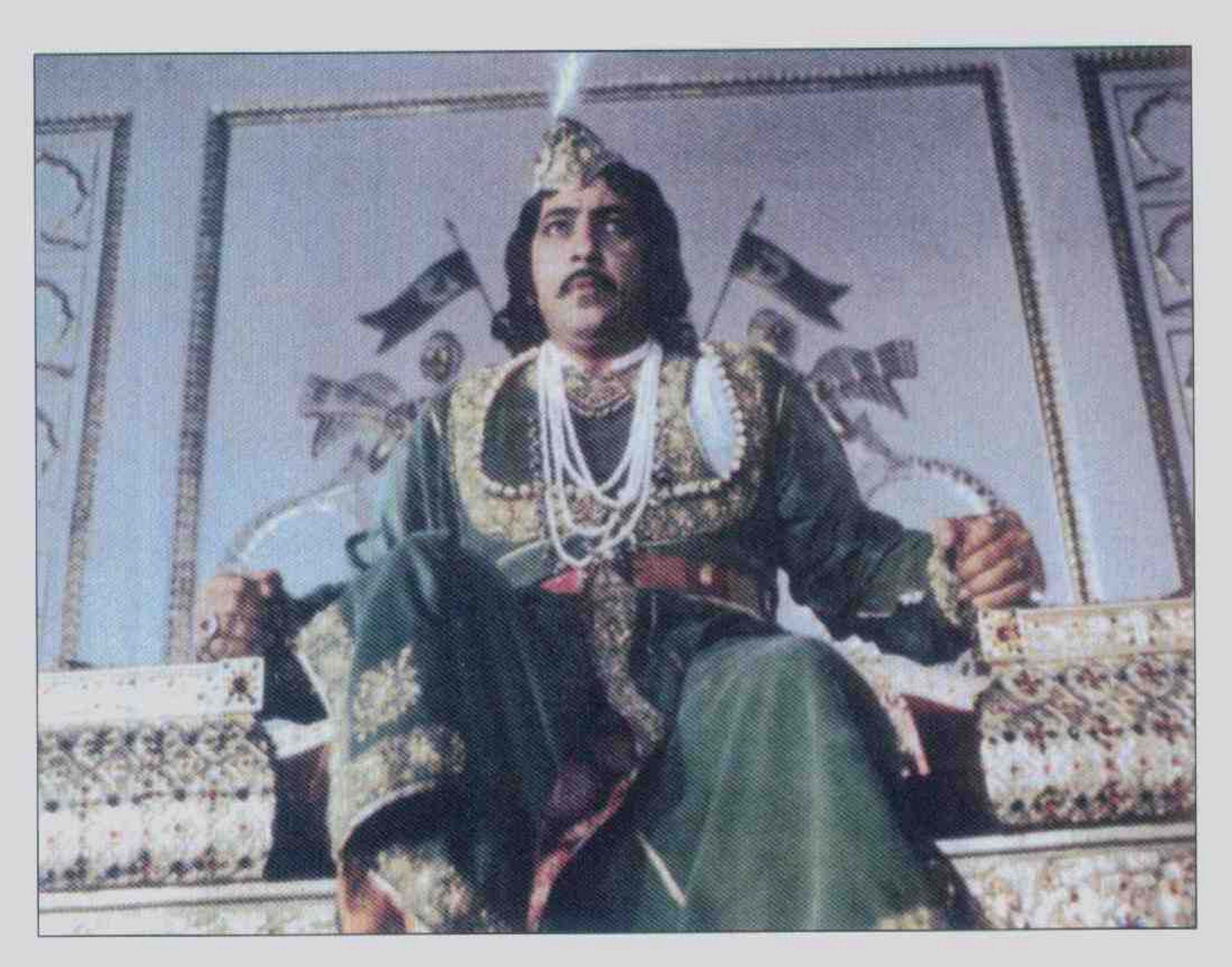


نقش يظهر نهر «غومتي» (Gomti)، الذي يشق مدينة لكنو، ويعود هذا النقش لدار نشر لندن في العام 1837م

بدأت صورة الملك ترتسم في ذهني كممثل ومؤلف موسيقي كانت له إسهامات في شكل الغناء الذي عرف تطورا ملحوظا في مدينة لكنو، هذا إلى جانب حقيقة كونه أحد رعاة الموسيقى، وهي التي تعد الميزة البارزة في شخصية هذا الملك».

على أي حال، فإن فيلم «لاعبو الشطرنج» لا يقتصر تركيزه على واجد علي شاه (الذي أدى دوره الممثل أمجد خان) فحسب، بل وعلاقته بالمندوب السامي البريطاني الجنرال أوترام Outram (الذي أدى دوره ريتشارد أتينبرغ)، الذي أجبرته شركة الهند الشرقية، وبشكل مخالف لضميره، أن يعامل الملك كبيدق في لعبة شطرنج ملكية. وثمة لاعبان اثنان للشطرنج من «النواب» على درجة واحدة من الأهمية، وهما اللذان أعطيا الفيلم عنوانه الإنجليزي، فقد كانا نبيلين صغيرين في بلاط الملك وهما ميرزا سجاد علي -Mi

(6) النواب: وتعني هذه الكلمة «الحاكم الإقليمي»، وهي التسمية التي أطلقت على حكام الأقاليم في عصر الإمبراطورية المغولية. وقد اشتقت هذه الكلمة من العربية التي انتقلت بدورها إلى الفارسية. حيث أن أصل الكلمة هو «نائب» وتعني «المبعوث أو الممثل» - المترجمة.



كانت لدى راي ازدواجية شخصية عميقة تجاه شخصية واجد علي شاه التاريخية، التي عبر عنها في خلقه لشخصية الملك في فيلمه «لاعبو الشطرنج»

za Sajjad Ali (الذي أدى دوره سانجيف كومار Sanjeev Kumar) ومير روشان علي Meer Roshan Ali (الذي أدى دوره سعيد جعفري Saeed Jaffrey)، وقد كان كلاهما مهووسين للغاية بمسألة إنقاذ ملكهما في لعبة الشطرنج من خطر بعضهما بعضا، إلى درجة جعلتهما يخفقان في إنقاذ ملكهما الفعلي حين تعرض للأسر على يد البريطانيين، فبدلا من أن يحملا السلاح من أجل محاربة مشروع وضع مدينتهما تحت سيطرة البريطانيين، فر النائبان من المدينة، وتخليا عن زوجاتهما كي يتمكنا من مواصلة لعبتهما دون أن تعكر الشؤون العامة صفوهما، غير أن قصة هذين النائبين تتقاطع مع قصة واجد علي شاه والجنرال أوترام، ألا وهي النضال السياسي ضد الأعداء ومباراة الشطرنج بين الأصدقاء، واللتين تندمجان في قصة واحدة.

وقد أوجدت هذه المعادلة الصعبة صعوبات جملة أمام راي لإنجازها، وهي: أولا: الجهل السائد لدى جمهور المشاهدين بطبيعة العلاقة بين بريطانيا وإقليم «أود» خلال ذلك القرن، وما أدت إليه من ضم إقليم «أود» لبريطانيا، ثانيا: تجلت الصعوبة كذلك بجعل الملك الفاسق مثيرا للشفقة على نحو ما، ثالثا: ظهرت الصعوبة في حقيقة أن مشاهدة لعبة الشطرنج ليست



يبدو آثر تدرب راي كرسام واضحا في عدة لوحات فنية في الفيلم

حدثا دراميا أصلا على الشاشة، وأخيرا: تمثلت الصعوبة في خلق لهجة عامة للفيلم تنسجم مع انحطاط متعة الحب في «لكنو» دون خلق أي صفح عنها.

وكان راي قد أخبرني قائلا: «لا يعرف الناس أي شيء حول تاريخ مدينة لكنو أو نوابها»، ثم يضيف: «لقد حاولت جاهدا التفكير بطريقة ما لتقديم هذا الفيلم، لذا شعرت أنه لابد أن يأخذ شكلا وثائقيا»، وعليه، فقد كان تعاطي راي مع الصعوبة الأولى يتمثل في إعطاء مقدمة تصل مدتها إلى عشر دقائق تتناول الحكام في إقليم «أود» وشركة الهند الشرقية، مستخدما لهذا الغرض وثائق ورسومات تاريخية ورسوما حديثة ولوحات تمثيلية تصف الحياة في ولاية «لكنو» في ظل حكم واجد علي شاه. وقد أوحى له اكتشافه لرسائل اللورد دالاوسي Lord Dalhousie - وهو الحاكم العام المتعجرف كما أنه رئيس أوترام - باستخدام لهجة تهكمية في مقدمة الفيلم واستخدامه للحركة كذلك. فعلى سبيل المثال، يصرح اللورد دالاوسي بصوت إنجليزي رخيم، وذلك اقتباسا عن رسالة له. قائلا: «كان من الأجدى بهذا الحقير، الذي يقيم في لكنو أن يؤدي لنا ولشعبه خدمة جيدة بإرسال رأسه بدلا من إرسال تاجه إلى المعرض، ولن يضيعه بعد ذلك على الإطلاق...»، كما يصرح أيضا:



صورة للسير جيمس أوترام، الذي كان شخصية رئيسية في ترسيخ الهيمنة البريطانية حين أصبح مندوبا ساميا في إقليم أود في العام 1854م

«ستسقط شجرة الكرز هذه في أفواهنا يوما ما». وقد تبع هذا إطلاق للنار صوب التاج الموضوع على رأس واجد علي شاه، ثم حركة ليد تقوم باقتلاع حبات الكرز، التي تكلل تاجه بتتابع سريع في إشارة إلى استيلاء شركة الهند الشرقية على الولايات في أربعينيات وخمسينيات القرن التاسع عشر، تاركة وراءها شجرة الكرز لا غير في إقليم «أود».

وقد حل راي الصعوبة الثانية عبر التركيز على الموهبة الموسيقية، التي تمتع بها واجد علي شاه بدلا من التركيز على حياته الجنسية، فنحن نراه يقرع الطبل في احتفالية شهر محرم، كما أنه يشاهد أداء مبهجا لرقصة «كثاك» (Kathak)، ويقدم أداء تمثيليا للإله كرشنا (Krishna)[7]، وهو يخلق نفسه في عرض أوبرالي، وذلك في إشارة ضمنية عرضية إلى موقف واجد علي شاه المنفتح تجاه الهندوسية[8]، ثم ما يلبث أن يخبر رئيس وزرائه قائلا: «ما من أمر يثير مدامع الرجل سوى الشعر والموسيقى»، وذلك حين يرى الرجل باكيا بعد لقائه بأوترام الذي يطلب منه أن يتنازل الملك عن عرشه، وحين يقرر واجد علي شاه لاحقا التخلي عن عرشه دون قتال،



أدى ريتشارد أتنبيرغ دور السير أوترام

(7) ثمرس: هو أسلوب في الموسيقى الكلاسيكية السائدة في شمال الهند، ونجد النصوص التي تتناولها هذه الموسيقى شاعرية للغاية، كما تستخدم فيها لهجة هندية محلية - المترجمة.

(8) كرشنا: وهو إله في الديانة الهندوسية يعبده الهندوس عبر طقوس دينية متنوعة، ويتخذ هذا الإله تجليات مختلفة حيث يختلف شكله ولون بشرته حسب الصورة التي يظهر بها - المترجمة.



بعد بحث تاريخي شامل وضع راي رسما تخطيطيا مفصل لمكتب أوترام في مقر المندوبية السامية البريطانية وذلك في إطار التحضير للفيلم.

نجد الملك يواسي نفسه من خلال لحن الثمري (Thumri)، الذي يصبح بدوره عملة متداولة في الهند (كما فعلت صرخة الملك ريتشارد الثالث في معركة بوسورثفيلد في أوساط الناطقين بالإنجليزية)، حيث يقول: Jab Chhorh Chaley Lakhnau Nagari, Kaho Haal Adam par kya Guzeri.....، الذي يعني تقريبا: «حين تخلينا عن لكنو الحبيبة، انظروا ماذا حل بنا...»، وقد تفقد الترجمة الإنجليزية في هذه الجملة التأثير ذاته الذي يثيره في مشاعرنا حين يغنيها أمجد خان بصوت حائر وقوي جياش بالعاطفة.

أما بالنسبة للصعوبة الثالثة، وهي كيفية جعل لعبة الشطرنج أمرا مثيرا (كان راي قد أخبر الممثل سعيد جعفري في رسالة له قائلا: «لو كان الموضوع متعلقا بالقمار لما واجهنا مشكلة كهذه»)، فقد كان الحل هو أن ترتبط اللعبة بهوس الأبطال بها، وهو الحل الذي تبناه راي في أفلام أخرى له مثل فيلم «غرفة الموسيقى» (the Room of Music)، الذي قدمه في العام 1958م، وكذلك فيلم «الآلهة» (The Goddess)، الذي قدمه في العام 1960م. ففي كل حالة من هذه الحالات يركز الفيلم على العنصر الإنساني دون أن نفقد إدراك الهدف وراء هذا الهوس، وقد كانت النتيجة أن يحظى فيلم «لاعبو الشطرنج» بالتقدير دون حاجتنا للمعرفة بلعبة الشطرنج.

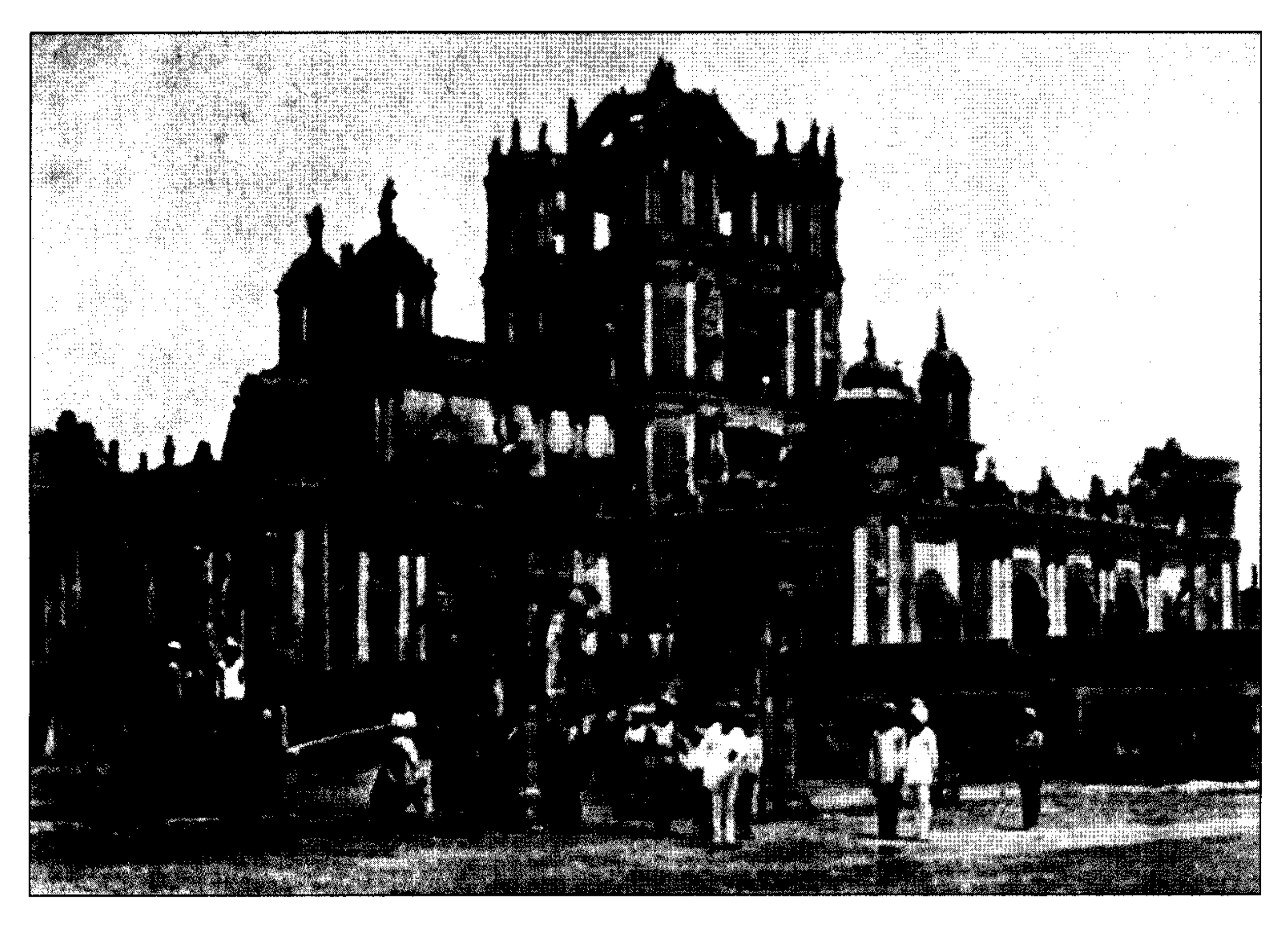
مما لا شك فيه أن شغف راي بهذه اللعبة



المثلة شعبانة عزمي في دور خورشيد زوجة ميرزا سجاد علي في صورة فوتوغرافية من الفيلم، وقد استخدمت هذه الصورة كأحد الملصقات الإعلانية لفيلم «لاعبو الشطرنج»

قد أعانه بشكل كبير على تصوير هذا العمل المسرحي بقالب سينمائي، فقد وجد راي مائة طريقة أنيقة ليعبر بها على الشاشة عن غرق كل من ميرزا ومير في عالمهما الخاص بشكل مطلق، وقد أغناه راي بطبيعية ودقة جعلت من تحليل تأثيره النهائي أمرا عصيا. وتحمل جميع أفلامه المميزة السمة ذاتها، ألا وهي تمكنه من استخدام أسلوب في فيلمه «لاعبو الشطرنج» يمكنه عبر إخبارنا بالتفاصيل من رسم صورة كاملة للثقافة الهندو - إسلامية السائدة في مدينة «لكنو»، كما هو حال المخرج جان رنوار Jean Renoir، الذي قدم لنا صورة انحطاط المجتمع الفرنسي بين الحربين العالميتين في فيلمه «قواعد اللعبة» (The Rules of the Game) في العام 1939م، وكان راي قد أدرك أهمية بناء فيلم بهذا القالب في فترة العشرينيات، ففي زيارة قصيرة له إلى لندن في العام 1950م شاهد راي قرابة المائة فيلم بما في ذلك الكلاسيكية منها مثل فيلم رنوار، وكذلك فيلم «سارقو الدراجة» (Bicycle Thieves)، الذي قدمه المخرج فيتوريو دي سيكا Vittorio de Sica في العام 1948 إلى جانب بعض أفلام جون فورد John Ford الغربية، كما كتب راي في إحدى المرات لمديره الفني المستقبلي في كلكتا، وبنوع ينم عن عقيدة فنية غير واعية، قائلا: «إن الطريقة التقليدية بأكملها (والتي تنتهجها حتى أفضل الأفلام الأمريكية والبريطانية) هي طريقة خاطئة، ذلك أن الطريقة التقليدية تنص على أن الطريقة المثلى لرواية قصة ما تتمثل في التخلي عن كل العناصر، باستثناء تلك التي تصب بصلب القصة مباشرة، إلا أن العمل المحترف يبين بجلاء إمكانية احتواء مئات التفاصيل الصغيرة، وغير المتصلة بالموضوع ظاهريا، مادام أن موضوعك قوي وبسيط، إذ تساعد هذه التفاصيل في المقابل على التركيز على الموضوع بدلا من أن تقوم بالتعتيم عليه، إضافة إلى أنها تسهم في خلق صورة مخادعة عن الحياة الواقعية بشكل أفضل».

ويعد موضوع فيلم راي «لاعبو الشطرنج» قويا وبسيطا، حيث نجد أن الطريقة التي عبر بها راي عن عدم انخراط الفئات الحاكمة في الهند في مساعدة عدد قليل من البريطانيين على بسط نفوذهم تبدو معقدة وغير مباشرة، فعلى سبيل المثال، لا تبدو الصلة واضحة أول الأمر بين عدم المبالاة التي يشعر بها ميرزا تجاه استياء زوجته من هوسه بلعبة الشطرنج من جهة وبين نية الجنرال أوترام بضم إقليم أود لسيطرته، لكن الصلة تغدو واضحة في نهاية الفيلم، ففي مخبأ لهما في القرية



صورة للسيخ في مدينة «لكنو» التقطها المصور فيليس بياتو Felice Beato في العام 1858م، وهو في الموقع الذي شهد مجزرة بحق ألفين من السباهي [13] نفذتها أفواج الجندية بأمر من السير كولن كامبيل Colin Campbell خلال السنة التي سبقت التمرد الهندي

يقول مير لصديقه المغرر به - وهو ميرزا - وبعاطفة مليئة بالسخرية: «ليس بإمكاننا أن نتغلب حتى على زوجاتنا، فكيف لنا أن نتغلب على جيش شركة الهند الشرقية؟»، وفي هذه اللحظة بالذات نرى أن راي يشير إلى أن القصتين المتشابكتين قد غدتا قصة واحدة، وهي بمنزلة لحظة الحقيقة التي تسقط فيها كل أجزاء الأحجية بلمحة سحرية لتأخذ مكانها الصحيح.

بالنسبة للبعض منا، مثل نايبول، فإن السحر يؤدي مفعوله، إذ إن مشاهدة فيلم «لاعبو الشطرنج» في عرضه الأول في العام 1977م قد غيّر مجرى حياتي، فدفعني ذلك للتعرف أكثر على أفلام راي السينمائية، التي قادتني بدورها لدراسة تأثيراته التي تتراوح ما بين أكيرا كوروساوا Akira Kur-sawa [9] وطاغور [10] Tagore وبين هنري كارتييه برسون Henri Cartier-Bresson [11] وموزارت [12] Mozart وببناء صداقة مع راي نفسه. وعلى العموم، لم ينل هذا

(9) أكيرا كوروساوا (1910-1998): مخرج ومنتج وكاتب سيناريو ياباني شهير. نال عدة جوائز عالمية من أهمها جائزة «الأسد الذهبي» في مهرجان البندقية السينمائي وجائزة «السعفة الذهبية» في مهرجان كان السينمائي - المترجمة.

(10) رابندرانات طاغور (1857-1941): شاعر ومسرحي وفيلسوف هندي، نال جائزة نوبل للآداب عام 1913م. وقد اشتهر بنبذه للتعصب الديني - المترجمة.

(11) هنري كارتييه برسون (1908-2004): مصور فوتوغرافي فرنسي، يعد رائد التصوير الضوئي المعاصر - المترجمة.

(12) ولف غانغ أمادوس موزارت (1756-1791): مؤلف موسيقي نمساوي، وضع أكثر من 600 قطعة موسيقية تنوعت بين السيمفونية والأوبرا وغيرهما، يعد من أعظم مؤلفي الموسيقى الكلاسيكية وأكثرهم شهرة في العالم - المترجمة.

(13) السباهي: وهو الاسم الذي يطلق عادة على الهنود الذين جندتهم بريطانيا أثناء الاحتلال البريطاني - المترجمة.

الفيلم رضا الشرق والغرب تماما حين قدم أول مرة، إذ أراد كل من الهنود والغربيين من راي أن يكون أكثر صراحة ووضوحا، كما هو حال فيلم «غاندي» (Ghandi) الذي قدمه ريتشارد أتنبيرغ، وهو فيلم ذو نزعة تناهض الاستعمار بصراحة، وكما قال راي في إحدى المرات عن الأفلام بصفة عامة: «أنا ابن الأوغاد»، وفي دفاعه عن فيلمه «لاعبو الشطرنج» ضد الاتهامات التي وجهت للفيلم في أنه لم يدن الأحقاد التاريخية، نوه راي قائلا: «لا تثير اهتمامي كثيرا الأهداف السهلة، فالاستنكار موجود في نهاية المطاف، لكن سبل الوصول إليه مختلفة، فلقد كنت أصور قوتين سلبيتين ألا وهما: الإقطاع والنزعة الاستعمارية، أي يجب أن ندين كلا من واجد علي ودالاوسي، وهنا يكمن التحدي، لذا أردت أن أجعل هذه الإدانة مثيرة للاهتمام، وذلك عبر استحضارها في مراحل معينة إضافية من كلا الجانبين. عليكم أن تقرأوا ما بين السطور في هذا الفيلم»، ثم يضيف قائلا: «أرى أن القصة خفيفة للغاية لدرجة مكنتها مع ذلك من التعليق على مناحي محددة مرتبطة بانحطاط النواب، كما مكنت من تقديم تعليق دائم حول مسألة عدم انخراط حكام الهند في مساعدة بريطانيا».

وينبع جزء من هذه المشاعر من الكاتب الأصلي لهذه القصة وهو برم شاند، بينما ينبع جزء آخر من الموقف التاريخي للبريطانيين في الهند (والذي استحضرته مثلا لعبة البريدج بدقة في فيلم «ممر إلى الهند» A Passage to India لمخرجه إي إم فورستر E.M.Forster، حيث نجد جابي الضرائب الإنجليزي تورتن حين يأخذ بكل سرور زواره من الهنود في جولات، وهو الذي يعرف عن جميعهم تقريبا أمورا مخزية). مع ذلك، فإن هذه المشاعر تنبع في أغلب الأحيان من ازدواجية راي، التي تكونت تجاه التجربة الاستعمارية، وهو الضليع في إعطاء تعليقات غير مباشرة، فهو يحب أن يبقى جمهوره يقظا على نحو مرض، بدلا من الركون براحة إلى الأحكام المسبقة والصور النمطية. ويحمل فيلم «لاعبو الشطرنج» المتعة عبر الفوارق الدقيقة والعواطف المصقولة، وهو الأمر الذي صنعته الثقافة ذات مرة، والمثال على ذلك يتجسد في تلك اللحظة التي يغش فيها مير في لعبة الشطرنج بينما يتجادل ميرزا مع زوجته خارج الغرفة، فبدلا من أن يلتقط صورة لمير وهو يحرك حجر الشطرنج بشكل فاضح نجد أن الكاميرا تراقب يده عبر فتحة بين الستائر، وبذلك نرى أنه ربما لم يكن بإمكان ميرزا الإمساك به (رغم أنه ظن طويلا أن مير يغشه)، لكن العين البصيرة كانت قد رأته. ويبدو أن آثام وزلات مدينة لكنو، التي حجبت على أي حال بحذر وراء قواعد التشريفات، ستصيب كل مواطن فيها في نهاية المطاف بمن فيهم الملك، ولا يعني هذا أن البريطانيين الذين يمثلهم أوترام ودالاوسي أفضل بكثير، إلا أنهم يملكون ثقة بأنفسهم وكبرياء يدفعهم للغش علنا عوضا عن الغش سرا.

وكما لاحظ راي في عدة مناسبات فإنه من الممكن أن يقدّر المرء معظم أفلامه بالكامل

إذا ما كان على اطلاع بكلا الثقافتين، لكن راي كان قد حذرني في العام 1982م قائلا: «إن الهوة الثقافية بين الشرق والغرب كبيرة للغاية، حيث لا يمكن لعدد قليل من الأفلام أن تضيقها، ولا يحدث هذا إلا حين يساند النقاد هذا النشاط بدراسته على مستويات أخرى أيضا، لكن متى يأتي الوقت الذي نتعامل فيه مع هذه المشكلة بجانب أفلام عديدة من مختلف أنحاء العالم؟».

ومن المؤكد أن فيلم «لاعبو الشطرنج» يكتسب معنى عميقا حين يدرس المرء تاريخ وأنماط التعبير الفني لدى المغول وخلفائهم، إضافة إلى الموقف المتخذ تجاه هؤلاء الخلفاء، الذي لخصه الجنرال أوترام في الفيلم حين وصف واجد علي شاه بأنه: «ملك طائش ومخنث وغير مسؤول وعديم الثقة»، وإذا كان في.إس. نايبول - وهو الكاتب البارز في ميدان ما بعد الاستعمار - محقا حين قارن راي بوليم شكسبير، فإن هذا يعني أن نتوقع باطمئنان أن الناس سيواصلون مشاهدتهم لفيلم «لاعبو الشطرنج» واستكشافهم كذلك لأمور جديدة في هذا الفيلم لسنوات عديدة مقبلة.

محور خاص

بيكاسو
الالتزام والحرية

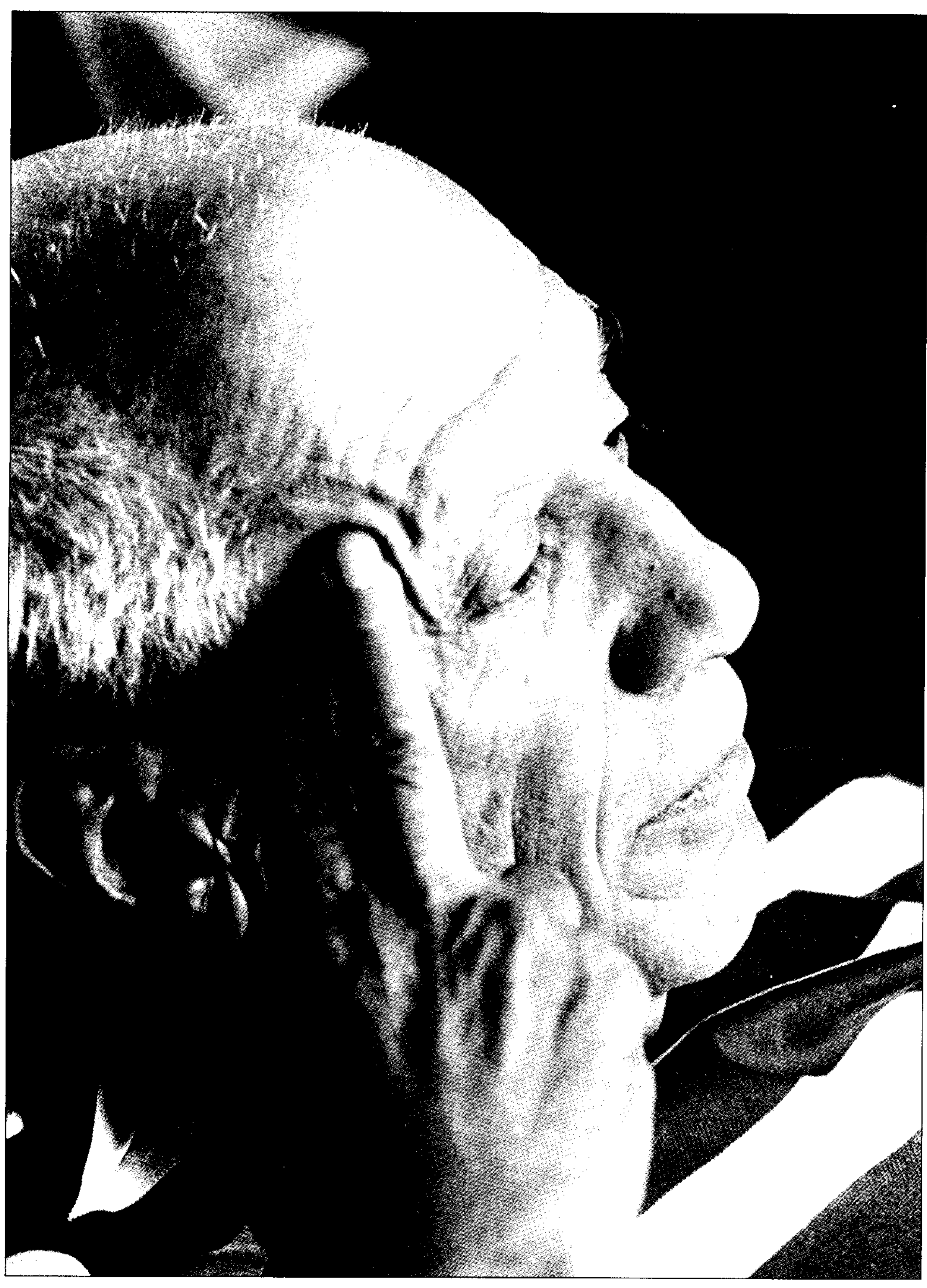
ترجمة: د.المنصف الشنوفي
مراجعة: إيمان خالد المسلم

العنوان الأصلي للمقال: Picasso, Engagement et Liberté
ونشر في مجلة L'Histire (التاريخ)، في عدد 335 أكتوبر 2008

في 8 أكتوبر، افتتح في باريس بالقصر الكبير (Grand Palais) معرض تذكاري نادر لعبقرية الفن العصري «بيكاسو والأساتذة» (Picasso et les Maitres).

انطلاقا من «فتيات أفنيون» في العام 1907 Les Demoiselles d'Avignon وصولا إلى صورة ستالين في العام 1953 Portrait de Staline، فإن الرسام يحمل في داخله القرن العشرين، لقد جعل فنه يتسم بالالتزام لكن لم يتخل البتة لحظة عن حريته، بيد أنه لا مجال للشك بالنسبة إلى الرجل الذي أطلق، في خضم حرب أسبانيا، بلوحته «غرينيكا» (Guernica) ما يشبه الصرخة، فالرسم كان فعلا «آلة حرب».

بيكاسو التزام وحرية



صورة لبابلو بيكاسو وهو في في مدينة كان في العام 1957

«حسب الأسطورة العائلية يكون أتقن فن الرسم قبل أن يتكلم»

عبور القرن
حديث مع بيتر ريد

الرسام والتاجر
بقلم: بيار آسولين

العبقري الذي أسيء فهمه
بقلم: بيار داكس

بيتر ريد Peter Read : أستاذ في جامعة كانت Kent (كنتربوري Canterbury) بإنجلترا. ونشر بالخصوص: Picasso and Apollinaire the Persistence of Memory (California Press 2008). وأخيرا بالاشتراك مع كلود دبون Claude Debon رسوم قليوم أبولنار: les Dessins de Guillaume Appolinaire (Buchet - Chastel, 2008).

عبور القرن

حديث مع بيتر ريد Peter Read

رسام عبقري - بيكاسو Picasso وجد نفسه في خضم انتفاضات عصره: قضية دريفوس Dreyfus، وحرب أسبانيا، الأهلية... كان ملتزما لكنه رفض أن يكون رهينة الوضع، كان وفيا لأصدقائه لكنه حذر، وصف للفنان (برتريه) على أساس أنه سياسي. مجلة التاريخ: ولد بيكاسو في العام 1881 في ملقا جنوب اسبانيا، إلا أنه موصوف غالبا بأنه رسام من كاتالان (Catalan).

بيتر ريد: إن بيكاسو Picasso قضى سنوات تكوينه في برشلونة، ووالده، الذي كان رساما وأستاذ رسم كان قد عين في العام 1895 في العاصمة الكاتالونية، حيث التحقت به عائلته. بيكاسو، الذي مازال يسمى بابلو رويز Pablo Ruiz كانت سنه 14 عاما فسجل مباشرة بمدرسة الفنون الجميلة.

وإن نحن صدقنا الأسطورة العائلية يكون أتقن فن الرسم قبل أن يتكلم. عندما كان صبيا، كان يصور رسوما في الرمل وأولى الكلمات التي نطق بها هي «قلم رصاص» (Crayon).

تعلم الرسم مع أبيه، خوسي رويث بلاسكو Jose' Ruiz Blasco، وهو رجل أنيق جدا كان يلقب بـ «الإنجليزي»، وهو سليل عائلة من الأرستقراطيين المفلسين، وكان شغوفا بتربية الحمام، ويجيد رسم هذه الطيور في أسلوب أكاديمي، ولبابلو أيضا أخت صغيرة اسمها كونشيتا Conchita مرضت بمرض خطير في العام 1895. الفنان الذي لم ينضج بعد وعد أن يتخلى عن الرسم إن قبل الله تعالى إنقاذ أخته الصغيرة.

هل برّ بابلو بوعده؟ كونشيتا، على كل حال، لم تعمر وقضت، ومنذ ذلك الحين أصبح كل عمل فني يقوم به بابلو هو بمنزلة التحدي للموت ورمي كل ما هو مؤلم خلفه.

في برشلونة، اكتشف بيكاسو مدينة أكثر عصرية وتفتحا من مدينة ملقا أو من مدينة لاكورين La Corogne، على الساحل الأطلنطي، حيث أمضى جزءا من عمره ابتداء من العام 1891، في برشلونة كانت الحياة الفنية والحياة السياسية تتمازجان بعمق مثلما هو الأمر بمقهى «الس كواتري قاتس» Els Quatre Gats، وهي عبارة في اللهجة الكاتالونية تعني «لا يوجد أحد»، وهو مقهى كان يرتاده بيكاسو باستمرار،



السنوات الأولى: 1 - صورة بيكاسو في العام 1904 وعمره 23 عاما. 2 - مقهى إلس كواتري قاتس Els Quatre Gats في برشلونة في العام 1900، حيث بيكاسو Picasso (الجالس على اليمين) يلتقي فنانين آخرين (رسم ريكارد أوبيسو إي سالا) (Ricard Opisso i Sala). 3 - بابلو وعمره 7 سنوات وأخته لولا Lola. 4 - صورة والد بيكاسو برسم ابنه بيكاسو، الرسام خوسي رويث بلاكاسو José Ruiz Blasco في العام 1895 كان يرسم بأسلوب أكاديمي، خاصة الحمام (صورة 7). 5 - على رصيف مقهى لاروتوند La Rotonde في مونبارناس Montparnasse في العام 1916 بيكاسو يجلس على اليمين والثاني على اليسار هو ماكس جاكوب Max Jacob. 6 - «السفينة - حوض الغسيل» Le Bateau - Lavoire بمونمارتر Montmartre حيث يعيش ويعمل الرسام من 1904 إلى 1912م.

وفي هذه المقهى عرض للمرة الأولى في فبراير العام 1900 نحو 150 رسما ولوحة زيتية.

وهناك، التقى خاصة بفنانين شبان فوضويين مثل إزيدري نونل Isidre Nonell وسانتياغو روسنيول Santiago Rusinol، وهما يكبرانه سنا بثمانية أو تسعة أعوام، وكانا بمنزلة النموذج الذي يقتدي به، نونل Nonell هو رسم المتسولين والغجر وكل المهمشين، وهم مجموعة أيقونات وصور تأثرت بها رسوم بيكاسو. لكن بيكاسو اجتاز دوما أساتذته في براعته وفنه، ولا يقف عند ما اكتسبه، بل يتخطاه دوما إلى الأمام... ولقد قاوم دوما الاستسلام للسهولة الفطرية التي تمتاز بها ريشته.

باريس في منتصف القرن كانت عاصمة الفن في العالم، وبيكاسو يعشق الأعمال الفنية في العالم لأمثال تولوز لوتراك Toulouse-Lautrec، وديقا Degas وستيلان Steinlen وبعدهم بقليل، سيزان Ce'zanne، باريس وهي بلد حرية التعبير والخلق والإبداع، وقد حط رحاله فيها في العام 1900، وقت المعرض العالمي حيث علقت إحدى لوحاته بالجناح الأسباني، وقد استقر فيها نهائيا في العام 1904، بيد أنه لم يحصل أبدا على الجنسية الفرنسية التي سيمنى طلبه لها بالرفض في العام 1940.

■ كيف انقضت هذه الأعوام الباريسية الأولى؟

- منذ وصوله إلى باريس، اُعترف به من قبل تاجر اللوحات الكبير أمبرواز فولارد Ambroise Vollard، الذي عرض لوحات بيكاسو في العام 1901 في رواقه.

كذلك تبنت بيكاسو Picasso امرأة رائعة، بائعة تحف، بيرت وايل Berthe Weill، وقد استطاعت أن تبيع إحدى لوحاته الأهم في تلك الفترة «طاحونة الكعك» (Le Moulin de la Galette) (المحتفظ بها الآن في متحف Gugge-heim بنيويورك)، منذ ذلك اليوم أصبح يوقع لوحاته بيكاسو، وهو اسم والدته، التي كانت من أصل إيطالي، وهي طريقة للتميز عن التأثير الأبوي أو قل هي طريقة «لقتل الأب»، ثم إن بيكاسو لها وقع أحسن بكثير من رويز Ruiz.

هذه الإقامة الأولى في باريس اتسمت أيضا بالتزاماته السياسية الأولى، ففي العام 1900 في خضم قضية درايفوس Dreyfus أنجز بيكاسو بقلم الرصاص الأخضر صورة قوية وكلها إعجاب لزولا Zola، الذي كُتب اسمه في أسفل الصورة بحروف كبيرة.

كما وقّع عريضة من أجل إطلاق سراح السجناء الأسبان الذين عارضوا في العام 1898 الحرب ضد الولايات المتحدة الأمريكية، ومن أجل العفو عن المنفيين السياسيين، الذين وجد لديهم تعاطفا كبيرا في باريس، وستنشر هذه العريضة في الصفحة الأولى من صحيفة (La Publicidad). وكان ذلك بادرته الأولى على صعيد الالتزام السياسي.

إن السلطات راقبت الفوضويين وغيرهم من المهاجرين الأسبان المقيمين في باريس، ومن جهة أخرى في محافظة الشرطة بباريس ملف أنجز في تلك الفترة وخصص للمدعو بابلو رويز بيكاسو، إلى أن تم اعتباره أخيرا ملفا «لا يمكن الاطلاع عليه».



صورة أم وابنها الصبي، عمل أنجز في الفترة الزرقاء 1901
هارفارد (Harvard) الولايات المتحدة الأمريكية

رسم المنبوذين يتسم بروح إنسانية

في العام 1901، اصبح بيكاسو صديقا مع الشاعر ماكس جاكوب Max Jacob، الذي يعلمه اللغة الفرنسية، حيث يقرأ عليه قصائد للشاعرين Varlaine و Vigny في العام 1915، سيصبح بيكاسو الكفيل لما اعتنق ماكس، وهو من أصل يهودي، المسيحية، وتمذهب بالكاثوليكية ابتداء من العام 1905، وربطت أواصر الصداقة بين بيكاسو وأصدقاء آخرين من جيله، مثل غليوم أبولنيار Guillaume Apollinaire وأندريه صالمون Andre Salmon، اللذين كانا يجتمعان به في مرسمه، ويصاحبانه إلى أمسيتهما الأدبية بمقهى La Closerie des Lilas في مونبارناس، ومساندتهما غير المشروطة وحيويتهما شجعتا بيكاسو على مزيد من التعمق بأشواط في أبحاثه الخاصة.

■ على الصعيد الفني، كيف تميزت سنوات بيكاسو؟

- منذ 1901 إلى 1907 تتابع فترتان تسميان «الفترة الزرقاء» و«الفترة الوردية»، أما «الفترة الزرقاء» (1901-1904) فإنها تحمل في طياتها بصمات الفن الكاتالوني والسنوات التي قضاها وهو في برشلونة، ويوجد بها مواضيع مستوحاة من الرسام Le Greco، رسام كبير من رسامي القرن السادس عشر، وهو محل تقدير كبير

من الفنانين العصريين الكاتالونيين، والشهير باللون الأزرق والامتداد العامودي لشخصياته، وشرع بيكاسو في رسم المنبوذين من المجتمع وخاصة عندما لم يكن يملك فرنكا، فيتقمص نفسياتهم: عمال فقراء، عازفو شوارع، متسولون، مجانين، كأن يسجن في سجن سان لازار Saint Lazare في أعلى شارع ضاحية سان دوني Saint Denis حيث ذهب في العام 1901 لرسمهن.

فيتسم هذا الرسم للفقراء والمنبوذين بروح إنسانية عالية، إلا أن بيكاسو سيقول في فرصة متأخرة إن الفترة الزرقاء كانت فترة المشاعر، بعضهم الآخر سيقولون إنه نزع إلى تجميل الفقر وأن لا أثر للثورية فيها. بعض أشخاصه يذكرون ببعض قصائد بودلير Baudelaire النثرية مثل «عيون الفقراء» (Les Yeux des Pauvres)، بيد أنه حيث وُجد عند بودلير ثورة شعرية من الغضب والعنف (مثلا في نصه لنصرع الفقراء Assommons les Pauvres) لا أثر لها في الفترة الزرقاء لبيكاسو.

أما الفترة الوردية (1905-1907) فإنها تمثل منعرجا لبيكاسو، إذ استقر نهائيا مع صاحبته فرناند أوليفي Fernande Olivier، التي كانت تعمل «موديل» عند فان Van Dongen وعند الأكاديمي جدا كرمون Cormom في شارع رافنيان Ravignan في مومارتر Montmartre في مرسم في «الباتو - لفوار» Bateau-Lavoir. وماكس جاكوب Max Jacob هو الذي سمىّ بهذا الاسم العمارة من الخشب وحيث تجسد السفن مشهد لسلسلة من أطواق النجاة المربوطة إلى جانب نهر السين La Seine، وهو مكان لا ماء فيه ولا كهرباء، حيث يموت الإنسان من البرد في الشتاء ومن الحر في الصيف، لكن حيث عاش بيكاسو سعيدا، يعمل في الليل، ويلتقي كل يوم بأصدقائه الشعراء. إن الفترة الزرقاء حالمة جامدة تترك المكان فسيحا وملونا أكثر حرارة، فشرع برسم أشخاصا أقل انعزالا وأسر المهرجين، وهم أناس يتحركون على ويبعثون البهجة في المجتمع ويستمدون هويتهم من فنهم

تواريخ

1881:
25 أكتوبر ميلاد بيكاسو في ملقا اسبانيا

1895:
التحق بمدرسة الفنون الجميلة في برشلونة

1900:
بيكاسو يحل في باريس ويقيم فيها نهائيا في العام 1904

1901 - 1904:
الفترة الزرقاء

1905 - 1907:
الفترة الوردية - بيكاسو يسكن في السفينة - حوض الغسيل بصحبة فرناند أوليفي Fernande Olivier

1907:
يرسم «فتيات أفينيون» يلتقي بالتاجر كهنفايلر
1908 - 1912:
بيكاسو وبراك يتعاطيان الرسم حسب الفن التكعيبي

1918:
زواج بالراقصة الروسية ألقا Olga وسينجبان ولدا باولو Paulo في العام 1921

1925:
بيكاسو يشارك في المعرض الأول الفن السريالي

1935:
ميلاد مايا MAYA بنت الرسام وماري - تيريز ولتر Marie - Thérèse Walter

1936:
بيكاسو يعيش بموجين Mougins بصحبة المصورة والرسامة درة مار Dora Maar

سنوات السفينة حوض الغسيل Bateau-Lavoir




جورج براك Georges Braque

الصديق والمحرك في المغامرة التكعيبية من 1908 إلى 1914



أندري صالمون André Salmon

توقفت صداقتهما لما انحاز الشاعر إلى فرانكو Franco في العام 1937



ماكس جاكوب Max Jacob

أول الأصدقاء الفرنسيين في العام 1901 واحد المقربين مدة عشرين عاما

ج أبولينار G. Apollinaire

يلتقي بيكاسو في العام 1905 وسيدافع عن أعماله خاصة منها التكعيبية

لا أكثر ولا أقل.

■ بسرعة فائقة ينتهي الفقر.

– أجل! لا ينبغي أن ننقص من درجة الفقر التي عرفها في بداياته الباريسية، حيث كان يسكن في غرفة صغيرة في شارع السين Seine ويأكل قليلاً إلا أنه في نهاية 1905 تعرف إلى جرتريد ستاين Gertrude Stein، التي قدمته إلى غرباء آخرين أمريكيين واشترت منه أعمالا فنية، ووعى بيكاسو أنه دون أن يقدم تنازلات تجارية لن يكون بإمكان رسومه أن تعرف إشعاعا دوليا، ثم في العام 1906 حضر فولارد Vollard إلى السفينة Bateau-Lavoir واشترى منه كل لوحاته مقابل 2000 فرنك ذهبا، وهو مبلغ مالي جسيم بالنسبة إلى ذلك العهد (ما يعادل متوسط الراتب السنوي لعامل، أي 7000 يورو اليوم)، وفي العام التالي (1907) اشترى تاجر مرة أخرى مجموع ما في مرسمه مقابل 2500 فرنك ذهبا، وهذه هي نهاية الفقر، ومنذ حلول فولارد Vollard بالسفينة تلك لم يعرف قط بيكاسو الحاجة إلى المال.

العام 1907: الألماني هنري كهنفايلر Henry Kahnweiler أصبح تاجر لوحاته الوحيد، وقام بعرض رسومه في رواقه شارع فينيون Vignon قرب المادلين La Madeleine مما أضفى عليه طابعا مميزا.

مجلة التاريخ: هذه السنة 1907 سنة «فتيات أفنيون» تمثل منعطفا في حياة بيكاسو وتمثل أيضا منعطفا في تاريخ الفن.

وتعد هذه اللوحة عادة كإعلان عن بداية الفن التكعيبي وبمنزلة الاستيلاء على سجن الباستيل Bastille الفني، لكن نستشف منها أيضا التأثير الجديد للفن الأفريقي، الذي اكتشفه الرسام لدى ماتيس Matisse وفي متحف الإنسان Le Musé de L'Homme بباريس، هذا الاكتشاف كان بالنسبة إليه تجليا، فالأقنعة الإفريقية كانت في نظره بمنزلة الشفاعة بين الناس وعالم الأرواح، وفي هذا السياق فإن «فتيات أفنيون» هن عملن على طرد الأرواح الشريرة، فهو عبر عن هلع ومثل بادرة الدفاع ضد قوى الشر غير المحددة التي تتجاوز تحكم الإنسان.

ببدايته في هذا العمل أيضا قلب بيكاسو قوانين فن الرسم المنظوري كما حُددت منذ عصر النهضة، فالموضوع لم يعد ممثلا من خلال الرؤية الحسية بواسطة

العين، لكن كما ندركه من خلال العقل، ذاك هو الفن التكعيبي، إظهار موضوع ما في الفضاء لكن أيضا في الزمان، كما لو أننا نحوم حوله مبرزين في الوقت نفسه كان له مظاهر متعددة. بيكاسو منذ ذلك الحين قل اهتمامه بالموضوع الذي أصبح نقلة ليهتم اهتماما متزايدا بالأشكال.

مجلة التاريخ: ما دور براك Braque في ابتداع الفن التكعيبي؟

- جورج براك Georges Braque الذي عرفه في العام 1907، هو أيضا مبدع كبير أسهم كثيرا في انطلاق الفن التكعيبي: آثار الخشب المزيف، حروف المرسام، الأوراق الملصقة، البناءات الأولى التكعيبية بالورق المقوى، كان بيكاسو يلقبه بـ «ولبورغ» إشارة إلى ولبور رايت (Wilbur Wright) في إشارة إلى الأخوان رايت Wright من رواد الطيران، كان بيكاسو يقول أيضا عند حديثه عن براك إنهما متسلقا جبال مربوطان بالحبل الواحد نفسه، ومدينة سيريت Ceret بالكاتالونية الفرنسية «قرية بربيزون للفن التكعيبي بمنزلة القرية المعقل بريزون» (Le Barbizon du Cubisme)، كما كان ينعتها أبولينار Apol-linaire، فقد عملا معا عام 1911 و1912 و1913، ولم يكونا يوقعان لوحاتهما حتى يبرز جليا روح التآخي التي تربط بينهما، كان براك يقول عن بيكاسو «عندما يرسم بيكاسو فكأن يده تزيح طبقة من الغبار على رسم موجود وقائم الذات».

في هذه السنوات 1912-1913، أنجز كذلك بيكاسو ما يقارب الخمسين ملصقا، انطلاقا من قصاصة الصحف. واختار من الصحف مقتبسات فلم تكن من باب المصادفة، فهو يستغل غالبا صحفا يسارية ويختار غالبا مقالات لها علاقة بحرب البلقان، وسيؤكد في وقت لاحق في قارورة سوز 1912 (La Bouteille de Suze) أنه تعمد اختيار قصاصة صحفية مخصصة لجان جوريس Jean Jaures، ليس ذلك اهتمامه بالدرجة الأولى لكنه وعي سياسي تحمله في طياتها أعماله الرائعة.

دام التعاون مع براك حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى، آنذاك دعي براك إلى الالتحاق بالجيش.

وفي 2 أغسطس 1914 اصطحب بيكاسو براك وديران إلى محطة القطار بأفنيون Avignon، سيقول فيما بعد إنها كانت المرة الأخيرة التي يراهما فيها، هي كذبة لا تخلو من حقيقة، إذ إن الحرب فصلت بينهما، واعترى علاقاتهما توتر كبير، أما بيكاسو فقد بقي بباريس في حين رجع براك من الخنادق مثقلاً بالجراح، مثقوب العظام وحاملا للأوسمة، فتجربة الحرب باعدت بين الصديقين.

مجلة التاريخ: ماذا فعل بيكاسو مدة الحرب؟

- في العام 1914 كان عمر بيكاسو 33 سنة، وأغلب أصدقائه التحقوا بالجبهة، وبقي هو في باريس مع ماكس جاكوب Max Jacob لكنه بقي يراسل الكل بانتظام، وهو كمناهض للروح العسكرية

«بيكاسو كان يقول عن براك إنهما متسلقان لجبل الألب بالحبل نفسه»

ومناصر للسلم يبعث، رغم ذلك، إلى صديقه أبولينار رسائل محتواها مشجع كثيرا للحرب، وكانت مزخرفة مثلا بيد «أزرق - أبيض - أحمر» أو صورة بطولية للشاعر المحارب، وقد ارتدى زي المدفعية على غرار الرسوم الشعبية، فهو يتبنى هكذا الأسلوب الوطني المهيمن في كل مكان خلال الأشهر الأولى من الحرب العالمية الأولى.

لكن الحرب ستكون أيضا مناسبة لبيكاسو لجولة كبرى في إيطاليا وأسبانيا قام بها في العام 1917 بصحبة الباليه الروسي Le Ballets Russes، مما طلب منه توفير الأزياء والديكور وستار المسرح لعرضهم المسرحي الجديد الاستعراض Parade، وهكذا التقى بالراقصة الروسية أولغا كهلوفا Olga Kohlova التي تزوجها في العام 1918، تحت تأثير أولغا يتظاهر بمظهر البرجوازي، وجزء من إنتاجه الفني تميزت باسلوب كلاسيكي ومتأثر بالرسام الفرنسي Dominique Ingres، وهو يعيش حياة كلها صاخبة اجتماعية لم تلبث أن أضجرته. على الأقل هذا ما توحي به لوحة ذاتية يصور فيها نفسه في العام 1920 وهو بجانب نافذة وإلى جواره عصفور في قفص.

علاقته مع أولغا تمر من سيئ إلى أسوأ وفي النهاية تم الانفصال خلال الثلاثينيات.

مجلة التاريخ: حياته الغرامية الثرية جدا هل كان لها تأثير في فنه؟

- كل علاقة جديدة تتبعها تغيرات في فنه، فمع فرناند أوليفيي Fe-



قلم فحمي وورق ملصق لبراك 1914
(مركز بومبيدو Centre Pompidou)

تواريخ

1937:
Guernica
1943: التقاء بفرنسواز جيلو Françoise Gilot التي أنجبت له طفلين كلود Claude في العام 1947 وبلوما Paloma في العام 1949

1944:
بيكاسو يعطي رسما مطبوعا كرسم مواجه للعنوان لمجموعة شعرية في المقاومة لروبير ديسنوس Robert Desnos عند التحرير بيكاسو ينخرط في الحزب الشيوعي

1948:
يتجول بيكاسو إلى Wroclaw, Varsovie Auschwitz et Birkenau

1949:
الحمامة Colombe يختارها أراجون Aragon لكي تكون في ملصقة مؤتمر السلام

1950:
بيكاسو يكافأ بجائزة لينين Lénine للسلم أحرز عليها من جديد في العام 1962

1953:
قضية صورة لستالين Staline

1961:
الزواج من جاكلين روك Jacqueline Roque

1973:
8 أبريل موت بيكاسو يدفن في حديقة قصر بوفنارق Vauvenargues في البوش دي رون Bouches du Rhône

نساء في حياته







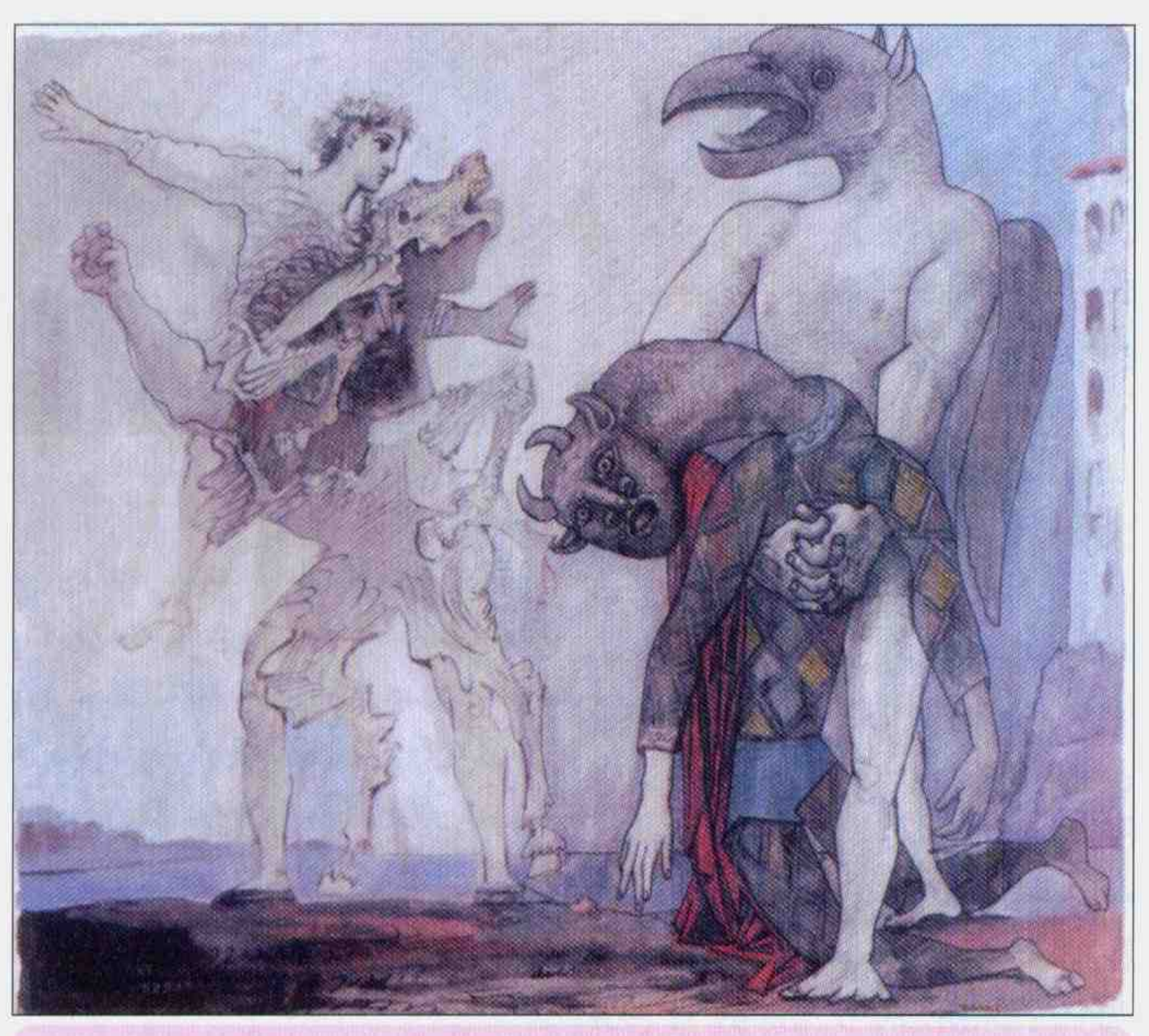




nande Olivier سيرتبط اسمها باختراع الفن التكعيبي، أما أولغا فبالكلاسيكية ثم بالثورة على هذه الكلاسيكية والعودة إلى العنف، مع ماري تيريز ولتر Marie-Thérèse Welter ، وهي امرأة شابة وذات كبرياء التقى بها في العام 1927 فهو الازدهار الشمسي. بصحبة المصورة والرسامة درة مار Dora Maar التي بدأ معها علاقة في العام 1936 هي فترة غرينيكا Guernica والمرأة التي تبكي La Femme qui ple-re، شعار عالمي للألم وهلم جرا ... مع فرانسواز جيلو Françoise Gillot ثم مع جاكلين Jacqueline زوجته الثانية وحامية سنواته الأخيرة. علاقات بيكاسو بالنساء طبعت فنه بشكل خاص وأوحت له بروائعه، فتصوراته للمرأة، عندما يكون عاشقا هي بمنزلة قصائد غنائيه لجمال المرأة، وقد حبا صاحباته بكرمه الوفير، لكن في حياة بيكاسو الالتزام الأول والأخير هو لفنه ولأعماله الفنية، كان لا يتنازل في ذلك



كان لبيكاسو خمسة أولاد: باولو (1911-1975) Paulo ابن ألقا Olga، ومايا Maya في العام 1935 بنت ماري - تيريز والتر، وكلود Claude في العام 1947 وبالوما Paloma في العام 1949 ولدي فرانسواز جيلو Françoise Gilot مع صورة بالظهر لولديه كلود وبالوما في مدينة كان في العام 1957



ستار الركح أنجزه بيكاسو للمسرحية: الرابع عشر من يوليو Le Quatorze Juillet لرومان رولان Romain Rolland
تم إخراج المسرحية يوم 14 يوليو 1936 الجبهة الشعبية والحرب الأهلية بإسبانيا الثلاثينيات هي سنوات المبادرات السياسية الكبرى

مما جعل حياة صاحبته وحتى أولاده حياة لا تخلو من تجارب أليمة.

مجلة التاريخ: لنرجع إلى العشرينيات في مجال الفن وهي سنوات السريالية، هل إهتم بيكاسو Picasso بالسريالية؟

- أجل! إن العلاقات بين بيكاسو والسرياليين هي علاقات مهمة، أندريه بروتون André Breton، الذي اكتشف الفن التكعيبي لبيكاسو في العام 1913، كان معجبا به أيما إعجاب، وحاول جذبه إلى أنشطة المجموعة، في العام 1923 بيكاسو يعطيه رسم الواجهة لعنوان مجموعته الشعرية «نور الأرض» (Clair de terre)، وبروتون Breton لم ينفك ينشط لفائدة أعمال بيكاسو الفنية الأكثر ثورية، وهو الذي أقنع في العام 1924 جاك دوسي Jacques Doucet باقتناء «فتيات أفنيون» ثم في العام 1925 بروتون Breton ينشر أول تصوير للوحة في مجلة الثورة La Révolution السريالية، وفي السنة نفسها يشارك بيكاسو في المعرض الأول للرسم السريالي.

استكشف السرياليون في بعض أعمال بيكاسو روحا ثورية وعنيدة تتوافق ومواقفهم في فترة التجميع مثل لوحة القيثارة La Guitare المكونة من ممسحة



إيلويار وبريتون وديسنوس سنة 1923
Eluard, Breton et Desnos في معرض العرش

من جنفاص مسمرة على لوحة من خشب وتخرقها مسامير كبيرة أسنتها موجهة في اتجاه المشاهد، هي من جديد أعمال عنف و(طرد الأرواح الشريرة). وابتداء من العام 1928، شرع في رسم وحوش نصفها إنسان ونصفها الآخر حيوان، وأصبح الوحش وحش مقدس، موزع بين بعد إلهي وبعد مظلم، وهو في الوقت نفسه خلاق ومبدع للجمال المطلق وملتهم آكل للحم.

من خلال احتكاكه بالسرياليين وجد جماعة من الأصدقاء الشعراء، أندري بروتون، ولويس أرغون، وبول أليوار، وهم شعراء ممعنون في الالتزام على الصعيد السياسي، فهؤلاء الرجال عاشوا الحرب العالمية الأولى: أرجون دفن حيا ثلاث مرات من جراء انفجارات قذائف في الخنادق،

معلومة:

(1) رست مراكب الولايات المتحدة الأمريكية في كوبا وبورتوريكو والفيليبين وأسبانيا تخسر آخر ممتلكاتها الاستعمارية.

(2) في نهاية هذه الحرب، انتصرت صربيا وبلغاريا واليونان والجبل الأسود على الإمبراطورية العثمانية حيث إن الجزء الأوروبي منها قد انتهى إلى التجزئة.

أما بروتن فكان حامل نعوش على الجبهة طوال شتاء 1916-1917، ويلتقط الأموات والجرحى وهو معرض لكل الأخطار قبل أن يعالج جنودا معدومين نفسيا في مركز طب نفسي. فقد عادوا من الحرب ثائرين وعاقدين العزم على محاربة الوضع القائم.

في العام 1926، في خلال حرب الريف، حيث إن محاربين مغاربة تصدوا للجيوش الفرنسية والأسبانية، قام السرياليون بحملة ضد الاستعمار وتبنوا الأيديولوجية الشيوعية، لا شك أن الالتزام النشيط للسرياليين قد شحذ الوعي السياسي لبيكاسو لكنه بقي نصيرا للحرية المطلقة قلبا وقالبا فلا يقبل الانحياز ولا سلطة قائد، فهو لا ينتمي إلى أي مدرسة ولن يوقع إلا منشورا وحيدا لنصرة أراغون عندما تمت ملاحقة أرجون عدليا عام 1932 بعد نشره لقصيدته النارية «الجبهة الحمراء» (Le Front Rouge).

«بقي نصيراً للحرية المطلقة

ولا يصف نفسه في أي مدرسة»

التحق بريتون وأراغون وأليوار بالحزب الشيوعي في العام 1927 وسيطردون منه في العام 1933، باستثناء أراغون لكن بيكاسو في هذه الفترة لم يحاول أن يزج بنفسه في هذه التجربة.

بيد أنه في العام 1936 عند وصول الجبهة الشعبية إلى الحكم، تبنى بصراحة تامة مواقف اليسار، فقد قبل أن يرسم الستارة المسرحية للرابع عشر من يوليو

Quatorze Juillet، وهي مسرحية رومان رولان Romain Rolland، الذي يشبه الجبهة الشعبية بالثورة الفرنسية، هذه الستارة تصور وحشا غريبا ذي رأس طائر يحمل وحشا غريبا آخر في زي مرقع يموت بين ذراعيه، وفي الخلف رجل ارتدى جلد حصان وهو يهدد بمعصمه. حضر بيكاسو العرض الأول للمسرحية في 14 يوليو 1936، حيث اجتمع الممثلون والنقاد في آخر العرض المسرحي وغنوا جميعا نشيدين: La Marseillaise والإنترنسيونال L'Internationale.

مجلة التاريخ: 1936 هي أيضا بداية الحرب الأهلية في أسبانيا حيث تتواجه حكومة شعبية جمهورية ويسارية مع القوى الوطنية لفرانكو Franco، ما معنى التزام بيكاسو إذن؟

- بدأت حرب أسبانيا في 17 يوليو 1936 مع تمرد وحدات «وطنية» في الجيش، بيكاسو أصابه الرعب فقلبه لا يتردد لحظة ويشعر بأنه معني إلى أبعد حد خاصة وأن أسرته تقيم في برشلونة، وأن ابني أخته لولا Lola انخرطا في الجيش المقاوم لفرانكو Franco وبسرعة فائقة يتبرع بآلاف الفرنكات لنصرة القضية الجمهورية.

غرينيكا Guernica توقظ لحظة الألم

الأشكال المتداخلة والمنضدة هي رغم ذلك مبسطة ومردودة إلى تصميم اللوحة، وهي تكوّن صورة مسطحة دون عمق على غرار ملصق، التركيب مؤطر بتماثل بامرأتين بملامح متشابهة وتصرخان من شدة الألم، المرأة التي على اليسار تحتضن ولدا فارق الحياة، والمرأة التي على اليمين تسقط من عمارة تحترق، امرأة أخرى وهي تمد ذراعها تشد بيدها مصباح بنزين، مصباح سقف كهربائي يلقي بضوء أقوى مما يبرز أكثر التنظيم المثلث الزوايا الذي يهيكل وسط اللوحة.

الحصان والثور يذكراننا بأن قصف غرينيكا Guernica وقع يوم اثنين في يوم السوق، وأن العديد من الحيوانات قد جرحت إذن أو أتلفت أو شتت وسط السكان، والحصان والثور يوحيان أيضا بمصارعة الثيران Corrida، كعنصر أساسي للهوية الأسبانية وهذه المصارعة، وهي إحدى الطقوس القربانية والمقدسة شكليا مثل القداس قد تم قلبها رأسا على عقب.

اللوحة تندد بانتهاك الحرمات أما الحصان وهو يجثو على ركبتيه وقد اخترقه سهم يصرخ صرخة أخيرة، أما الثور فهو يدير وجهه والخط المقوس لجسده يؤطر بصفة رجولية وحامية الأم وابنها، نظرة الحيوان الصافية والإنسانية تستجوبنا وتسائلنا، هل تكون نظرة الفنان؟

على يمين الثور الغارق في الظلام، طائر يضيف صوته الحاد إلى الصخب المعمم وهو يطير فوق مائدة ريفية رمز الحياة الأسرية التي سحقت في لمح البصر: طائرات الألمان Luftwaffe، دمرت 70 في المائة من منازل غرينيكا. الملون أحادي اللون الذي اختاره بيكاسو يشير إلى

غرنيكا uernica

هذا العمل الموجود اليوم بمدريد أنجز عام 937



أنقاض مدينـــة غرنيكا Guernica في إقليم الباسك: تسبب قصف الطائرات الألمانية مـــن فيلق كوندور Condor في 6 أبريـــل 1937 بســـقوط قرابة 2000 ضحية

...صرخة ضد الحرب

...ل الحرب الأهلية الإسبانية، بعد قصف المدينة



مصدر إيحائه في قصاصات الصحف، الخطوط التي توحي بشعر الحصان تقلد أيضا النص المطبوع لصحيفة من الصحف، غرينيكا تنتمي هكذا إلى الملصقات الأولى لبيكاسو، حيث استعمل قصاصات صحفية تنغرس في المجريات المعاصرة. المحارب الميت الممدد على الأرض يمسك رغم ذلك بسيف مكسور

وهو سلاح قديم، هذا العمل يعكس ليس فقط الأحداث الجارية المباشرة لكن أيضا واقعا خارج الزمن حتى يكون شهادة وتحذيرا باستمرار. وعرفانا بالجميل يعينه الجمهوريون في 19 سبتمبر 1936 مدير متحف البرادوPrado في مدريد، وسيبقى مديرا عن بعد إذ لم يرجع قط إلى أسبانيا. في العام 1937 أنجز حلقة



في 1944 بمرسمه شاع ليقران اقستان Grands Augustins

رسوم مطبوعة «أحلام وأكاذيب فرانكو» (Songes et mensonges de Franco).

وقد صور فرانكو في صورة شخص مضحك وبشع، ضرب من المديح الكريه، أشعث، عديم الرجولة، على جواد، الرسوم صورت على بطاقات بريدية وبيعت لمصلحة القضية الجمهورية، في 27 أبريل 1937، الطائرات الألمانية التابعة للفيلق كوندور Condor، المساند للوطنيين الأسبان، ترمي بالقنابل المدينة الصغيرة البسكية غرينيكا، تاركة أكثر من 2000 ضحية من بين المدنيين، وكان للحدث صداه الدولي، وكان بيكاسو قد سبق أن قبل إنجاز عمل للجناح الأسباني للمعرض الدولي بباريس. والريبورتاجات والصور الصحفية في صحيفة(L'Humanité) خاصة وفرت له موضوع لوحته مثل أعمال غويا Goya، الذي استحضر في صوره ورسومه الاغتصابات التي اقترفتها جيوش نابليون باسبانيا في العام -1814 1808 فإن غرينيكا صرخة غضب أمام واقع مأساوي وتصوير الألم الذي عاناه المدنيون زمن الحرب أضفى على اللوحة قوة رمزية وعالمية.

عرضت اللوحة في باريس، ثم إن بيكاسو أراد لها أن تسافر إلى بلدان أخرى حتى يجمع تبرعات وأموالا لفائدة القضية الجمهورية، لذلك عرضت في كاليفورنيا ثم في نيويورك بمتحف الفن العصري حيث بقيت إلى العام 1982، ولقد كان بيكاسو يريد أن تبقى لوحته هناك حتى إرساء الديموقراطية من جديد في ربوع أسبانيا، والرسم موجود اليوم في متحف الملكة صوفيا بمدريد.

خلال حرب أسبانيا كان بيكاسو قد اختار معسكره، فهو يدلي بشهادته من

بيكاسو محاطا بأصدقائه من بينهم وهي جالسة نوش إلوار Nusch Eluard في مرسمه عند التحرير وهو لم يفارقه مدة الحرب واستقبل فيه العديد من المقاومين

خلال أعمال فنية كبرى ويدفع أموالا طائلة ويساهم في حملات لنصرة القضية الجمهورية، وسيواصل صرف الأموال لفائدة اللاجئين الأسبان، فلقد دعم لمدة طويلة مستشفى Varsovie في Toulouse ، وهو مستشفى استقبل اللاجئين. وابتداء من العام 1948 وحتى وفاته، وكان حلاقه أوخنيو أرياس Eugenio Arias المحارب الجمهوري، الذي كان مقاوما في العام 1940 ثم حلاقا بفالوريس Vallauris في مقاطعة بروفنس Provence ، أصبح المحاور الأساسي الجمهوري لبيكاسو، هذا الرجل الذي أهداه بيكاسو العديد من الرسوم والأعمال الفنية، وهو بدوره أهداها إلى مدينته مسقط رأسه بويتراقو ديل لوزيا Buitrago del Lozoya قرب مدريد، ويوجد فيها اليوم بفضله متحف بيكاسو.

مجلة التاريخ: كيف كان سلوكه مدة الحرب العالمية الثانية؟

«مدة الحرب كان هو مراقبا عن كثب من قبل الألمان»

- مدة الاحتلال بقي بيكاسو بباريس ملازما مرسمه Les Grands Augustins، واستمر يعمل ويدعم أصدقاء ملتزمين بالمقاومة دون أن يلتزم هو بصفة مباشرة.

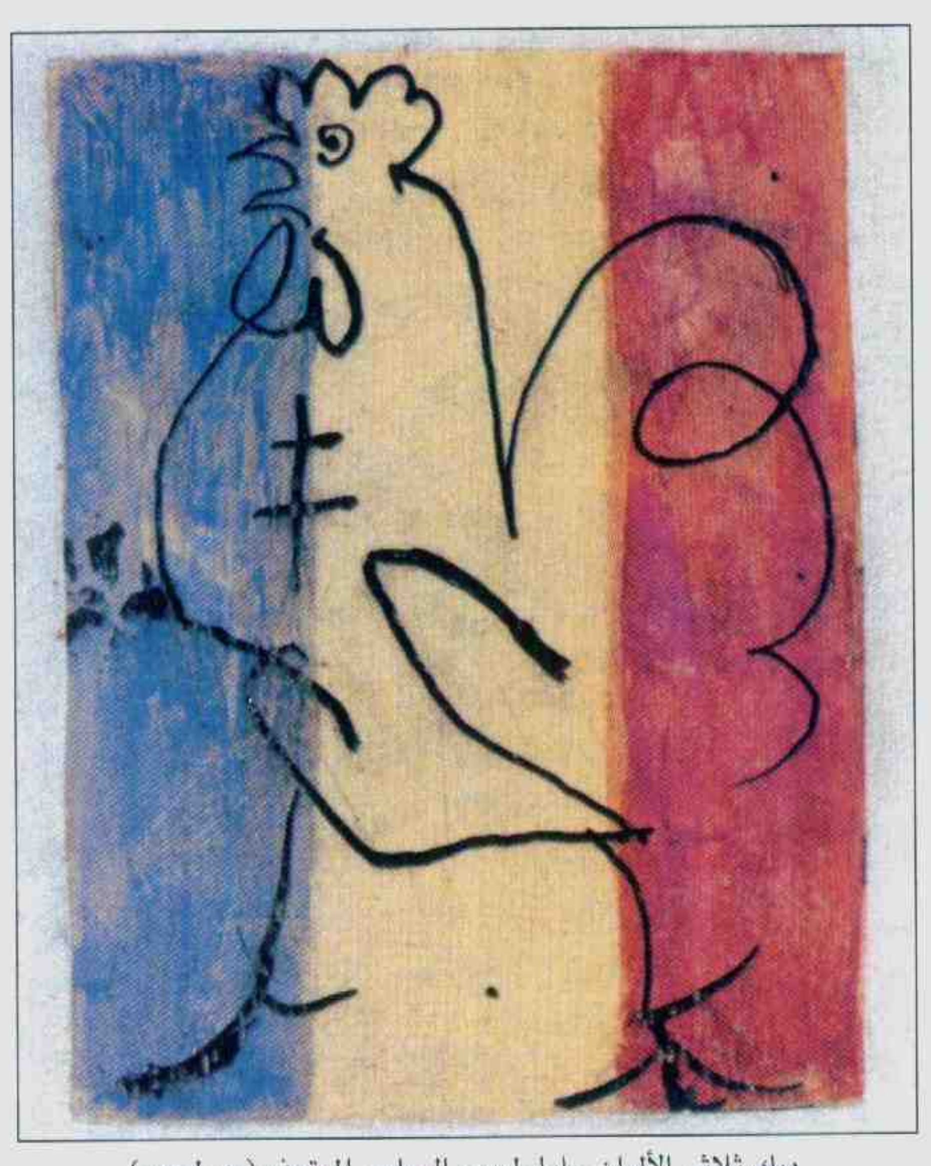
في العام 1941، كانت سن بيكاسو الستين، وهو مراقب عن كثب من قبل الألمان بسبب غرينيكا وصداقاته المعادية للفاشية، بيعت رسومه وعرضت في معارض فنية بسويسرا وألمانيا، وفي باريس كان بيكاسو أيضا محل انتقاد الصحافة المتواطئة مع الاحتلال، في مقال لموريس دي فلامينك Maurice de Vlaminick منشور في Comoedia في العام 1942، ذلك الفظ القديم الذي تردد على بيكاسو في عهد السفينة Lavoir-Bateau قام بمقارنة بين الفن التكعيبي والتلمود وغايته من ذلك الإيحاء بأن بيكاسو كان رساما بارعاً في مجاله.

لقد حضر مرات عديدة ضباط نازيون أو تابعون لشرطة حكومة فيشي الفرنسية المتعاملة مع الألمان إلى مرسم بيكاسو، إما لتهديده أو لمشاهدة آخر أعماله، ولقد روى في وقت لاحق أنه كان يهديهم بطاقات بريدية لغرينيكا وكان يقول لهم: «هذه للذكرى - للذكرى...»، وتروي الأساطير أن ضابطا ألمانيا وهو يشاهد لوحة من لوحاته سأله: هل أنت الذي قام بهذا؟ فأجابه على الفور «لا بل أنتم».

في مرسمه في Grands Augustins، كان يستقبل مقاومين مثل ميشال لايريس Michel Leiris أو لوران كازانوفا Laurent Casanova عضو اللجنة المركزية الشيوعي السري.

لماذا لم يحصل على الجنسية الفرنسية؟

قدم بيكاسو طلبا للتجنيس في أبريل 1940 في أسوأ الأوقات، حين كانت الجيوش الألمانية تتهيأ لاحتلال فرنسا، لو سألتم فرنسيين عن جنسية بيكاسو سيجيبونكم أنه منهم، فهم يظنون دون شك أنه من أصل أسباني لكنه يحمل الجنسية الفرنسية، وهذا لم يكن داخلا في حسبان فترة الحرب العالمية الثانية حينما طلب الرسام حصوله على الجنسية الفرنسية في أبريل 1940، كان ذلك عند دخول الجيوش النازية إلى فرنسا، والغرفة الجنائية المرتبطة بالمخابرات العامة رفضت طلبه في مايو مما أثر ذلك فيه تأثيرا بالغا وجعله يعدل عن أن يكون فرنسيا بأي حال من الأحوال. كما رفض أن يبوح بهذا الفشل الذي اكتشف أخيرا عندما أصبح أرشيف محافظة الشرطة في باريس مفتوحا للعموم.



ديك ثلاثي الألوان حامل لرسم الصليب المعقوف (دي لورين) Croix de Lorraine في ربيع 1945

ما المآخذ آنذاك على من سيصبح مفخرة وطنية حتى يكون مشبوها به على الصعيد الوطني نظرا إلى أنشطته الفوضوية المزعومة في العام 1905 واستمرار أفكاره «المتطرفة» حينما كان يجنح نحو الشيوعية؟

في واقع الأمر لم يكن بيكاسو قط مناضلا فوضويا، لكنه كان في العام 1901 موضوع تقرير بوليسي اعتبره فوضويا بينما اقتصر أمره فقط على السكن عند صديقه ومواطنه مناخ Manach الذي هو حقيقة ناشط متطرف.

حول وضعه كان هناك في فرنسا رأيان مختلفان، فمخفر المدلين La Madeleine وبعد النظر في الملف نفسه لطلب التجنيس، لا يجد مبررا يمنع الفنان من أن يكون فرنسيا كامل الأوصاف: شهرته في الحي وغياب صحيفة السوابق بالنسبة إليه، والتزكيات التي في حوزته وحذقه

في اللغة الفرنسية، وثراؤه المادي، ومساهمته الجوهرية خدمة للمجموعة نظرا إلى مهاراته المهنية وصولا إلى صحة ذريته وهم صبيان أقوياء مكتملو التكوين.

في ذلك الوقت، أصبح بيكاسو معروفا عالميا لكنه ما زال قليل الانتشار في المجاميع الوطنية، وكرمز حي للفن المعاصر فهو ما زال محل نقاش وجدل، فهو لن يكون في مأمن من المصير المشترك للفنانين المهاجرين الذين يجسدون الفوضى من خلال أفكارهم الجديدة، وبالتالي الخيانة الوطنية. في ضوء هذه الوثيقة الجوهرية التي ترجع الفنان إلى وضعه القانوني كمهاجر رفضت السلطات منحه الجنسية الفرنسية، لا يمكن أن نرى بالنظرة نفسها وضعه بباريس في عهد الاحتلال في الوقت ذاته إن الدولة تضفي الشرعية على الاستبعاد كأشخاص خطرين والسجن والنفي للأجانب واليهود والمناضلين الشيوعيين، وهو الذي كان محقا في تخوفه من التحالف بين ألمانيا وأسبانيا بعد أن ذاق الأمرين من جراء هزيمة الجمهورية، ووجد نفسه في وضع لا يحسد عليه عندما بدأ الاحتلال الألماني، فأصبح معرضا ليس فقط للرقابة على أعماله التي أصبحت تنعت بالفاسد أصلها من قبل النازيين لكن أيضا التي أقصيت من قبل الفرنسيين إلى مؤخرة الغرف للأروقة أو إلى سوق الفن السري.

إن اتهامات النقد المعارض للحداثة خاصة بقلم الرسام «الفظ» القديم موريس فلامينك Maurice Vlaminck في مجلة (Comoedia) ستكون بمنزلة الحكم بالإعدام ضده، إذ جعلت منه زعيم المعاصرة المنحطة وهي تبين أن المناوئين له كانوا في حاجة إليه لتأكيد هوية فرنسية اهتزت من جراء الهزيمة، وفي هذا الاتجاه فإن الأستاذ في الرسم الحديث أصبح بمنزلة الفزاعة التي تتحرك في جميع الوجهات لإرساء فكرة صحيحة عن التميز الذاتي.

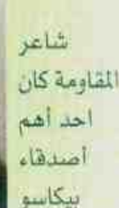
بقاؤه في مرسمه بشارع Les Grand Augustins كان رهين أتفه الأشياء، وكان محل رقابة صارمة من المخابرات الألمانية، رغم الخوف الديبلوماسي للنازيين من أن يعتدوا مباشرة على شخصه العالمي المشهور. شفاعة جان كوكتو Jean Cocteau لدى أرنو بريكير Arno Breker وشفاعة موظف سام في الدولة، قد ساهمتا في وضع حد للمضايقات المزعجة التي كان يقوم بها مسؤول المخابرات Gestapo لإلقاء القبض على بيكاسو، فسيبقى إذن في فرنسا لكن بكل تحفظ وإن كان بوسعه

معلومة:

(3) روبير دسنوس Robert Desnos يلقي حتفه في المنفى بترزين Terezin في العام 1945م.

(4) G.R. Utley, Picasso The communist years, Yale University Press 2000.

(5) حسب هذه لنظرية الفنية المعمول بها في الاتحاد السوفييتي، على الفنانين أن يساهموا في تشييد الشيوعية بإنجاز أعمال فنية واقعية في متناول الجميع.




شاعر المقاومة كان احد أهم اصدقاء بيكاسو

بول إليور Paul Eluard




مسؤول شيوعي لعب دورا في انخراط بيكاسو بالحزب الشيوعي الفرنسي

لوران كازانوفا Laurent Casanouva



العالم بالسلالة يستقبل مع زوجته لويز Louise المقاومين واليهود

ميشال لايريس Michel Leiris



مدة الحرب هو قريب جدا من بيكاسو الذي كان يجهل أعماله في المقاومة

روبير دسنوس bert Desnos

أن يهرب إلى الولايات المتحدة الأمريكية وسيتمسك في وقت لاحق بموقفه العنيد المعادي للفرنجة، ولن يرجع أبدا إلى أسبانيا بلده الأصلي ويظهر أن انخراطه في الحزب الشيوعي الفرنسي كان الطريقة الوحيدة بالنسبة إليه للالتحاق بأسرة المقاومة لكن أيضا بفرنسا. نجاحه الباهر سيتوج مكانته لدى الفرنسيين حيث سرعان ما نظروا إليه على أساس أحد كبار الفنانين عندهم إلى جانب ماتيس Matisse وفرناناند ليجي Fernand Léger.

لكن الضغينة بقيت لدى بيكاسو الذي لم يعد قط ليطلب من جديد منحه الجنسية من بلد رفض منحه إياها في أسوأ فترة من التاريخ.

لورانس برتراند دورلياك

وأندري مالرو André Malraux ، وهو أيضا منخرط في المقاومة، كان يزوره كلما زار باريس، ولم يكن بيكاسو ليبتعد عن الحي، وكان يتناول وجبته في المطعم الكاتلوني Le Catalan بصحبة جاك بريفير Jacques Prévert وجورج هوقني Georges Hugnet وفي بعض الأحيان بصحبة روبير دسنوس Robert Desnos.

ترمز صداقة بيكاسو مع روبير دسنوس إلى سلوك الرسام خلال الاحتلال، حيث كان يجاهر بعدائه لزعيم حكومة فيتشي الفرنسية بيتان وواصل تقديم مقالات في النقد الموسيقي لصحيفة «أوجردوي» (Aujourd'hui)، التي أصبحت بيد المتعاونين مع الاحتلال، ونحن نعلم بفضل شهادة فرانسواز جيلو Françoise Gilot رفيقة بيكاسو وبفضل أبحاث آن إيغر Anne Egger عن دسنوس Desnos أن الرسام لطالما حاول أن يقنع دسنوس بمغادرة «أوجردوي»، وما كان بيكاسو يجهله هو أن دسنوس كان يعمل جاسوسا عند الفاشيين وكان يقترض من الصحيفة وثائق سرية (العناوين الخاصة بكبار الموظفين وتقارير تتعلق بنتائج أعمال الحلفاء ضد الألمان)، كان يصورها ليلا ويسلمها إلى رفاقه في المقاومة فيما بعد،

- مذبحة في كوريا: 1951 (متحف بيكاسو - باريس) هذه اللوحة التي أنجزها مدة حرب كوريا هي إحدى الأعمال الملتزمة للرسام الذي أصبح شيوعيا لما جاءت ساعة التحرير بيد أن الحرب الشيوعي لم يستسغ هذا الرسم ولم يجد بطوليا بالقدر الكافي...

وقد اختلق أوراقا مزيفة وأخيرا التحق بالكامل بشبكة من شبكات المقاومة.

كان بيكاسو يجهل كل شيء عن التزام دسنوس لكنه كان يعرف آراءه، فقد حاول إذن أن يعينه على الصعيد المالي، فلقد فرضه على ناشره كمؤلف لمقدمة الكتاب «ستة عشر رسما لبيكاسو» (Seize peintures de Picasso)، وهو ألبوم يحتوي على ثمانية رسوم لدورا مار Dora Maar وثمانية رسوم طبيعة صامتة حديثة العهد.

مقدمة دسنوس هي نص رائع عن الفن لكنها أيضا خطاب كله رموز تشير إلى المقاومة، فلا حديث إلا عن «الحرية» و«التواطؤ» و«كرامتنا» و«عهد جديد» في الأفق.

يتجنب المخاطر لكنه لا ينحني

في العام 1944 قبل بيكاسو أن يهدي رسما مطبوعا (امرأة جالسة على تل كتب) لديوان شعري لدسنوس اسمه «كونتريه» Contrée، هنا أيضا يتقدم دسنوس وهو حامل للقناع، ذلك أن قصائد الديوان توحي ليس فقط بالمشاهد الجميلة، لكن بالطاعون الذي يملأ الأماكن ورجوع الربيع الحتمي والعذاب الذي ينتظر الظالم، «كونتري» هو ضرب من الجناس لفعل «عارض» Contrer.

تم إيقاف دسنوس في 22 فبراير 1944، وسحب بيكاسو رسمه لغلاف الديوان الشعري، إذ إن نشر الديوان لا يخلو من مخاطر حسب ظنونه. يوكي دسنوس رفيقة الشاعر، ذكرت بيكاسو بما كان وعد به فرضخ وسلم الرسم. ظهر الديوان الشعري في 30 مايو 1944 والرسم على ورقة الغلاف، وبذلك يكون بيكاسو قد ساهم في نشر أروع الدواوين الشعرية عن المقاومة (3).

وبإيجاز يمكن القول إن بيكاسو قد تجنب دوما المخاطر، ولكنه لم يرتعب قط من جراء قوى الاحتلال، فلقد أعان ماديا أصدقاءه المقاومين وبذلك حافظ على كرامته لا خدش فيها وكلها مضرب أمثال.

في العام 1943 حضر موكب دفن الرسام الكبير شاييم سوتين Chaïm Soutine ماكس جاكوب، توفي ماكس جاكوب في العام 1944 في درانسي Drancy، وأقيمت بالمناسبة صلاة ترحما عليه حضرها بيكاسو، وهي بوادر عمومية تقتضي ضربا من الشجاعة أو على الأقل تعبر عن عدم استسلام الرسام أمام طغيان الألمان وسياسة فيشي.

بعد التحرير، ترأس بيكاسو لجنة تصفية تعاقب الفنانين الذين تواطؤوا مع نظام فيشي وخاصة درين Derain وفلامينك Vlaminck (فقد شاركا في جولة رسمية في ألمانيا من المفروض أنها تدعو إلى «التقارب» بين المجموعات الفنية للبلدين).

مجلة التاريخ: الالتزام السياسي الكبير بعد الحرب هو انخراطه في الحزب الشيوعي؟ ما معنى هذا الانخراط؟



بيكاسو منجزا لوحة غرينيكا في العام 1957 صورة شمسية لرفيقة الرسام. درة مار التي التقطت صورا طوال إنجاز هذا العمل الفني

- انخرط بيكاسو في الحزب في 4 أكتوبر 1944 فكان كفيله اليوار Eluard وأراغون Aragon، كالعادة بيكاسو دائما محاط بالشعراء، وكما قال هو نفسه: الحزب الشيوعي الفرنسي P.C.F هو «حزب الفقراء» فانخراطه فيه هو التزام لنصرة السلم، وهو أيضا من غير شك طريقة لتأكيد معارضته لنظام فرانكو (في أسبانيا).

والتزامه تمثل بادئ ذي بدء، على الصعيد المالي حيث إنه قام بإهداء رسومه إلى الصحف الشيوعية، وأنجز العديد من الملصقات، وأهدى اللوحات لمبيعات خيرية بالمزاد العلني. لقد أعطى كثيرا من أمواله كما بينت ذلك Gertje Utley في أبحاثها والتي نشرت في العام 2000 بحثا عن بيكاسو والشيوعية (4)، فمثلا عندما اندلعت إضرابات عمال المناجم في العام 1948 حضر بيكاسو إلى مكاتب صحيفة (L' Humanité) وتبرع بمليون فرنك من العملة الصعبة لمساندة حركة العمال.

مجلة التاريخ: هل يجوز القول إنه رسام ملتزم؟

- نعم!... أو بعض أعماله الفنية هي في صميم الالتزام. في العام 1945 أنجز لوحة عظيمة الشكل هائلة بالأسود والأبيض مثل غورنيكا Guernica واختار عنوان لها «المذبحة» (Le Chasmier)، وهي تمثل أسرة كاملة متكدسة في أسفل مائدة المطبخ والأب مقيد اليدين، يده اليمنى مضمومة كأنه يلوح بالتهديد، وهو عنصر



المؤلف، توماس ليورانس Tomàs Llorens كان مدة أربعة عشر عاما محافظا لمتحف تيسن - برنميسزا Thyssen - Bornemisza، وهو يعمل ضمن معدي الفهرس القياسي لخوليو قنثالز Julio Gonzalez، والذي صدر منه المجلد الأول في العام (IVAM) 2007، والمجلد الثاني آخر العام 2008، من بين الأعمال الجماعية والفهارس التي ساهم فيها أو أدارها فهرس المعرض: ميرو: تيرا Miro : Tierra متحف تيسن -برنميزا Tyssen - Bornermiza 2008.

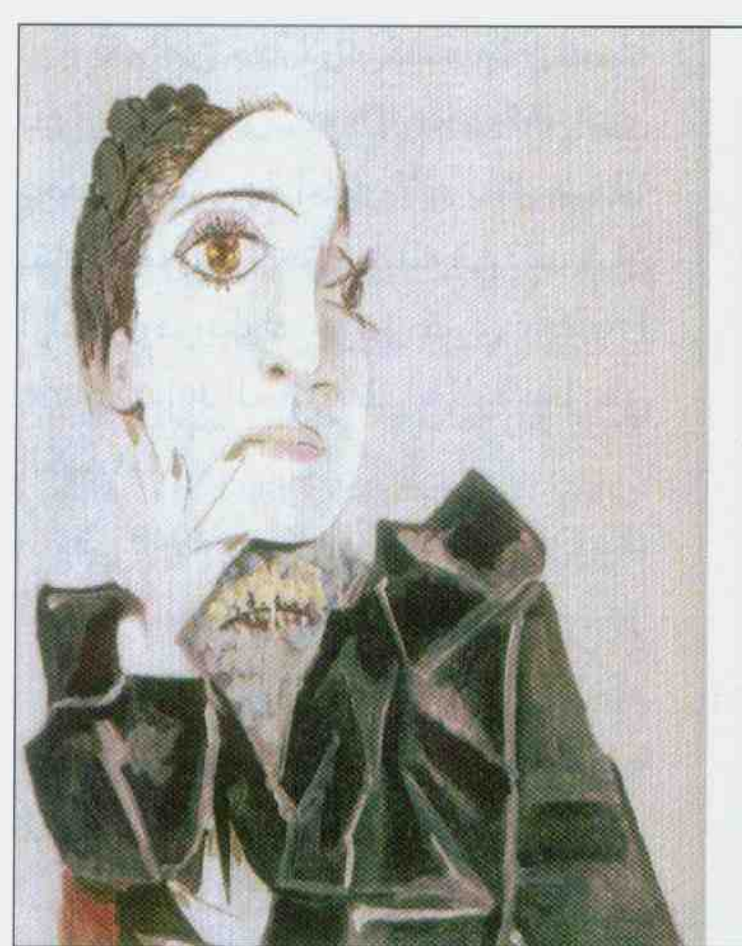
يضخم الصدى السياسي للوحة، واللوحة تقدم لنا تصورا جديدا ذا معنى عالمي وكوني لألم المدنيين زمن الحرب، وقد أهدى بيكاسو هذه اللوحة إلى جمعية ذات انتماء شيوعي حتى تباع لفائدة أسر المقاومين الذين ماتوا رميا بالرصاص.

يبقى أن فنه خرق كثيرا الشيوعيين، فاسكندر جدانوف Scander Jdanov مندوب ستالين فرض على الفنانين السوفييت طريق الواقعية الاشتراكية(5)، وباسمه نقد أراغون لوحة (Le Charnier)، فهو يقرر في صحافة الحزب الشيوعي الفرنسي أن كل شيوعي له الحق في الانتقاء ضمن أعمال بيكاسو الفنية وأن واجب الرسام الجيد إعطاء فسحة الأمل وتصوير الغد الأفضل عوضا عن الصور المأساوية.

الحافز لدى بيكاسو هو الكفاح من أجل السلام



سباق ثيران 1934(مجموعة قانز نيويورك Ganz - New -York)




على اليسار: نصفية درة مار Dora Mar, 1936 (متحف برقروين Berggruen، برلين Berlin)
على اليمين: السيدة ذات الفرو للوقريكو (Art Gallery, Glasgow)1600

الحافز الأول والأخير بالنسبة إلى بيكاسو في هذه الفترة هو الكفاح من أجل السلم، ويرمز إلى ذلك من خلال عشرات الحمامات التي يرسمها ويوزعها يمينا وشمالا.

في العام 1948 سافر إلى Wroclaw في بولندا بصحبة بول أليوار Paul Eluard وبيار دكس Pierre Daix ورفقاء آخرين للمشاركة في مؤتمر المثقفين من أجل السلام، وخطب خطابا لنصرة الشاعر بابلو نيرودا Pablo Neruda المسجون في تشيلي Chili وبقي ثلاثة أسابيع في بولندا، عند عودته إلى باريس في نوفمبر 1948، عندما كان أراغون يحيي ذكرى جدانوف الذي توفي منذ مدة قصيرة، رسم بيكاسو نسختين من لوحته «المطبخ» (La Cuisine) وهي أكثر لوحاته تجريدا. شبكة من الخطوط السوداء مرسومة على خلفية داكنة في وسط النسخة الثانية من اللوحة والمحفوظة في باريس بمتحف بيكاسو. الخطوط التجريدية تتلاقى للإيحاء بشبح رأس ميت ذي عينين فاغرتين. بإيحاء من Shoah، اللوحة الكبرى التجريدية تعبر عن رفض للواقعية الاشتراكية والمراقبة الأيديولوجية للفن. في صميم التزامه يدافع بيكاسو عن حريته في التعبير.

بيكاسو أعاد اكتشاف هذا الرسام في الوقت نفسه الذي أعاد فيه اكتشاف الطليعة البرشلونية في نهاية القرن التاسع عشر

مجلة التاريخ: هل اضطر الحزب الشيوعي إلى قبول هذا الانحراف؟





لوحة الفتاة مارغريت للفنان بابلو بيكاسو وقد تأثر بهذه اللوحة بفن Vélasquez وكانت اللوحة الاولى في القرن السابع عشر ولوحة بيكاسو رسمت في العام 1957

- نعم! من جهة لأن بيكاسو متين الصلة بموريس طوريز Maurice Thorez، الذي يحميه، ومن جهة أخرى لأنه يمثل ضمانا ثقافيا ضروريا للحزب شأنه في ذلك شأن أراغون وفريديرك جوليو-كوري Frédéric Joliot-Curie الحائز على جائزة نوبل في الكيمياء.

«في 1948 يرسم «المطبخ» (La Cuisine) أكثر لوحاته تجريدا»

لكن بعد سفر طوريز إلى الاتحاد السوفييتي في العام 1950 (يقع ضحية فالج ويسافر للعلاج هناك ويبقى حتى أبريل 1953) تعرض بيكاسو لنقد لاذع من قبل الحزب خصوصا مدة رسم صورة ستالين، التي أنجزها عند وفاة هذا الأخير في العام 1953، فهذا النقد هد كيانه، وقد حاول أحيانا الاقتراب من خط الحزب عندما أنجز في يناير 1951، رسم «مذبحة في كوريا» (Massacre en Corée) حيث يشاهد عسكريون يسيرون آليا يطلقون الرصاص على نساء عاريات، من كل الأعمار، وولد وامرأة حامل. أمام هذا الرعب الذي تقشعر له الأبدان يتبنى الضحايا كل المواقف من الخوف إلى اللامبالاة إلى الكرامة ذات الكبرياء، هنا أيضا هي الحرب والألم محل الفضيحة والتنديد، وهنا أيضا كان النقد، فاللوحة ليست على درجة كبيرة من الإيحاء بالبطولة بالنسبة إلى الحزب الشيوعي.

في العام 1956، تدخل الدبابات السوفييتية في بودابست، التي تقمع العصيان الشعبي دمويا فكان ذلك بمنزلة

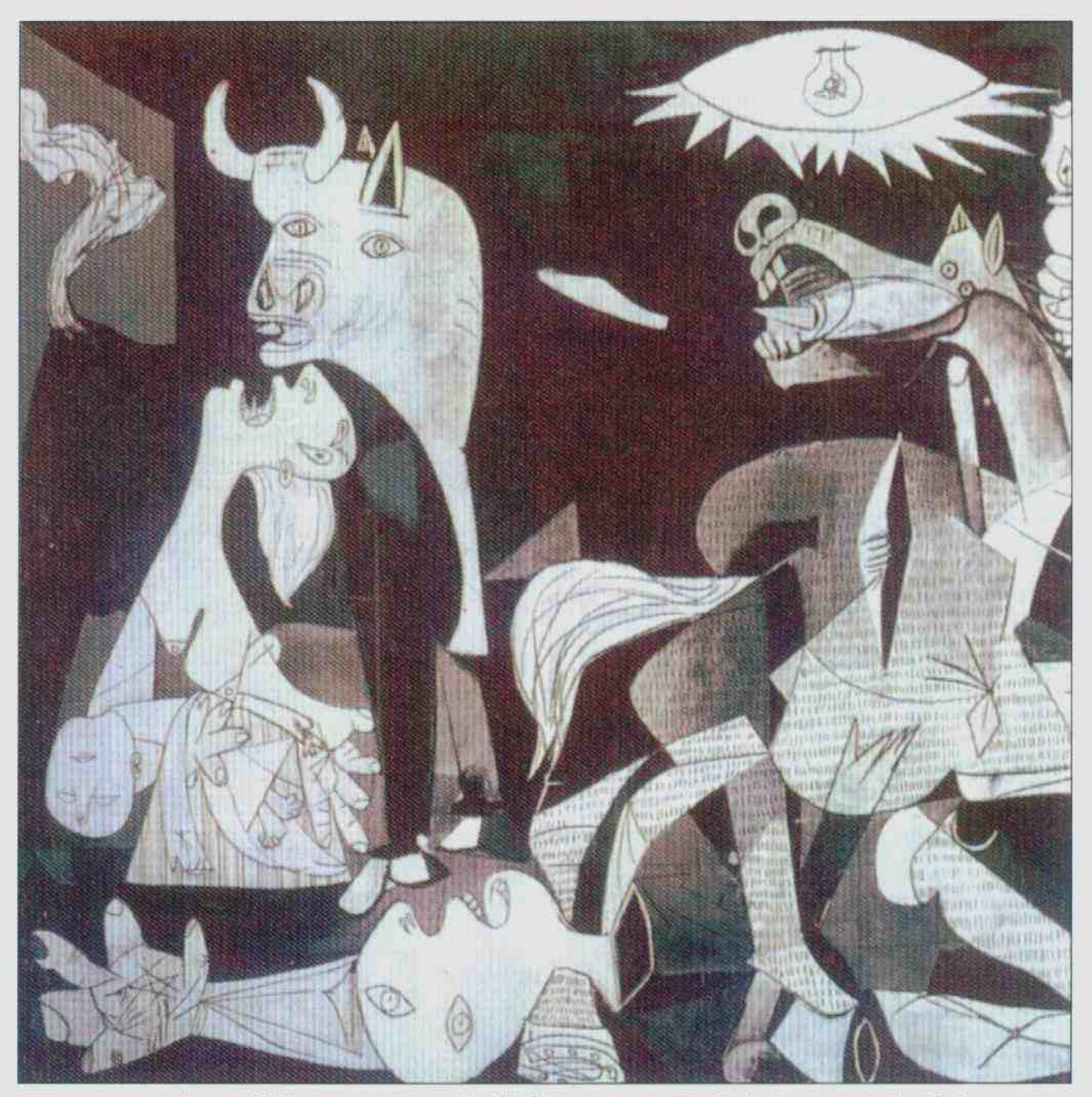
الصدمة النفسية الكبرى بالنسبة إلى بيكاسو ورفاق دربه، فلم يعد باستطاعته أن يعمل، ويجب القول إنه كان محل ضغوطات متضاربة قوية جدا. ميشال لايريس Michel Leiris وجاك بريفير Jacques Prévert صديقاه من أمد طويل اتخذا موقفا معارضا علنا للاتحاد السوفييتي، ويضغطان عليه حتى يتخذ الموقف نفسه. من جهة أخرى هناك أراغون ورفاق آخرون فضلوا السكوت واعتقدوا أنه من الأفضل أن يكونوا على خطأ مع الحزب في أن يكونوا على حق ضده.

وفي آخر المطاف اختار بيكاسو موقفا وسطاً فوقع مع الرسام أدوارد بينيون Edouard Pignon وزوجته هيلين برمولان Hélène Parmelin وسبعة مثقفين شيوعيين رسالة مفتوحة. وقد ارتاح بيكاسو إذ إنه تكلم على الأقل، وها هو يسّر إلى صديقه ومؤلف سيرته الذاتية رولان بنروز Roland Penrose : «الفترة السابقة انقضت وهذه الفترة جديدة تبدأ الآن».

من الآن فصاعدا ابتعدت رسومه عن الاهتمامات السياسية وسيبقى يتبرع بالمال لفائدة صحف يساريه، مثل «مواطن تولوز» (Le Patriote de Toulouse)، وفي نوفمبر 1956 أهدى ثلاثة (3) ملايين



لوحة الفنان غويا «Tant et plus» 1810



بدء التأثر واضح في فن غويا بطريقة رسمه لغرنيكا 1937 والمعروضة في متحف الملكة صوفيا في مدريد

فرنك إلى أولاد أطلق عليهم الرصاص من أجل المقاومة، وكل سنة يهدي لوحة إلى جمعية «لي بول دير»(Le Bol d'air) مما يمكّن أطفالا معوزين من الرحلة في عطلة...

■ مجلة التاريخ: هل بالإمكان القول إن بيكاسو كان رساما ثوريا ملتزما؟

- على الصعيد الفني هو ثوري، لم يكن قط محاربا للإيقونات والتقاليد، إذ إنه بقي في حوار مستمر مع كبار أساتذة الماضي. ماتيس Matisse أهم منافسيه قارن رسومه الشخصية بكرسي وثير ومريح. بيكاسو على العكس، كان له خطاب آخر عندما كان يصرح في العام 1945 أن «الفن ليس لتزيين الشقق، هو آلة حرب للهجوم والدفاع ضد العدو».

إلى آخر يوم في حياته

بيكاسو عبر عن ثورته»

إلى آخر يوم في حياته الطويلة (توفي في العام 1973 وسنه 91 عاما) صارع

المؤلف: صحفي وكاتب بيار أسولين Pierre Assouline، هو عضو هيئة لتحرير L'Horizon، وقد صدر له رجل الفن دانيال - هنري كهنفايلر Daniel - Henri Kahnweiler" "L'homme de l'Art Balland, (1979) Reed, 1988 Gallimard "Folio" وصدر له كتابه الأخير لي برتريه Le Portrait .(Gallimard 2007)

بيكاسو الزمن والموت وعبر عن ثورته في عدد من المجالات.

في العام 1907، أدخل ثورة في مجال الرسم واخترع الفن التكعيبي، في أواخر العشرينيات (1920) أدخل ثورة في مجال النحت بإدخال مواد وتقنيات إنتاج صناعية. في الوقت نفسه، كان رساما لا يشق له غبار في خصوص الأسلوب الكلاسيكي، لقد كان أيضا في الثلاثينيات (1930) شاعرا كبيرا يمارس الكتابة التلقائية بحرية أكثر من السرياليين، كما أنه ألف مسرحيات وحدد فن الخزف، لقد كان بيكاسو فنانا كاملا مندمجا كليا في عمله.

نسخة من لوحته «غرينيكا» (Guernica) معلقة في مقر الأمم المتحدة بنيويورك، ويكون من المفيد أن يتأملها المسؤولون السياسيون قبل اتخاذ القرارات المتعلقة بالحرب والسلام في العالم. إن كان لبعض لوحات بيكاسو مثل هذا الصدى السياسي فإن مجموع أعماله وإنتاجه له على الخصوص قيمة عالمية، فأعماله لا تنفك تحرك فينا السواكن وتبث فينا جانبا كبيرا مما تنطوي عليه من حيوية خلاقة.

أجرى هذه المقابلة ميشال فينوك

الرسام والتاجر

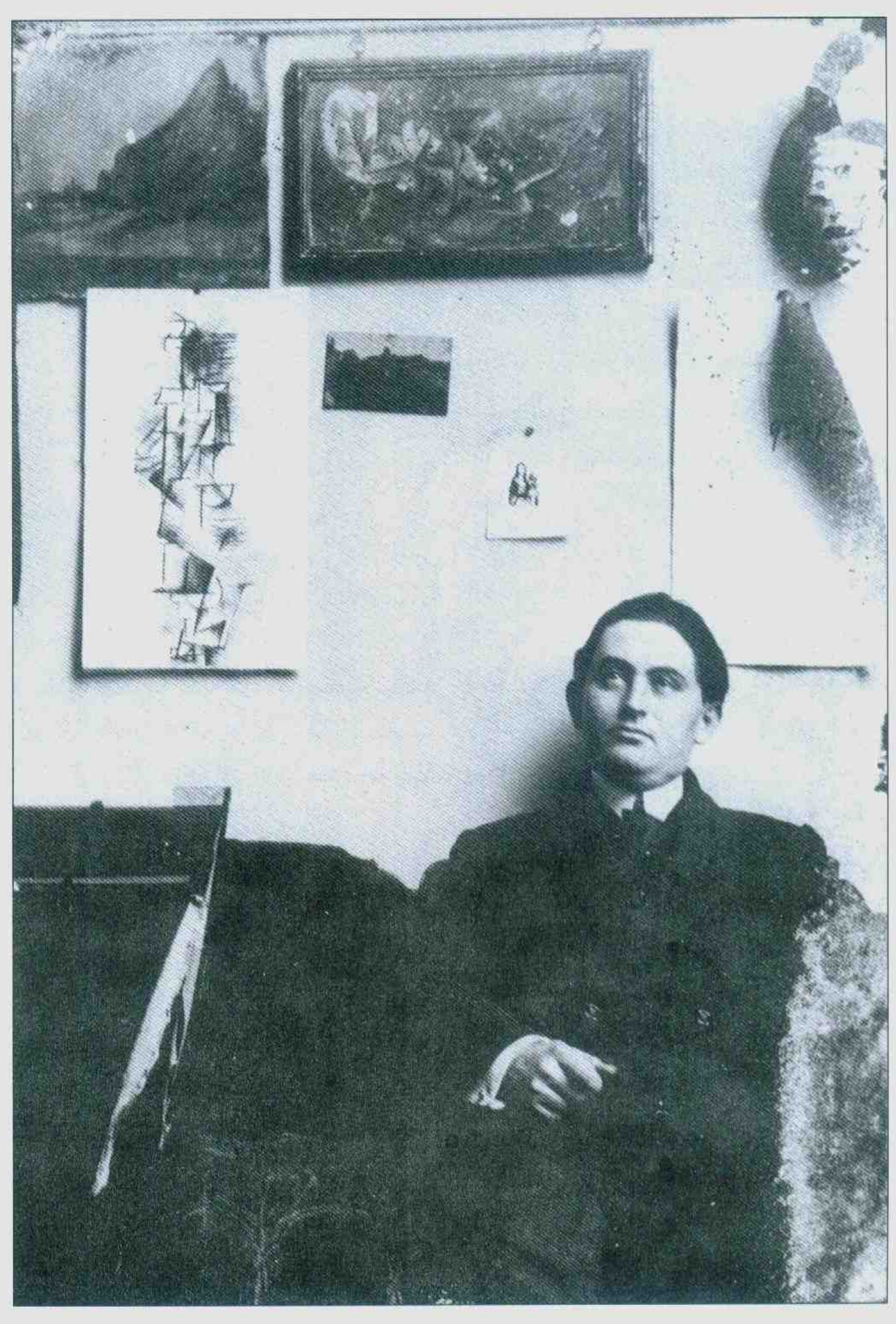
بقلم: بيار أسولين

بقي بيكاسو وفيا له، في سنوات العطاء والجدب: التاجر كهنفايلر Kahnweiler واكب النجاح المتزايد للرسام في تبعية متبادلة وديَّة.

هذان الاثنان استنشق أحدهما الآخر وتحابا وتساندا وتجافيا وتصالحا.

يجري المشهد في لاكوبول La Coupole، المقهى المشهور في حي مونبارناس Montparnasse، ما بين الحربين، كان بيكاسو يتناول العشاء فيه بصحبة أصدقاء. عند تسديد الحساب، يرى الرسام صاحب المطعم ينحني نحوه: «لا! أرجوكم، لكن بالمقابل، هل تتفضلون برسم صورة على المنضدة...» فينفذ بيكاسو الطلب: «ممتاز، أوه! نسيتم التوقيع...» وإذا ببيكاسو يرد فورا: «قلت إني أسدد الحساب ولم أقل إني أشتري المطعم...» مهما كانت الرواية ومتغيراتها فإن المزحة تحافظ على ما فيها من نكهة... وهي بليغة التعبير عن صفتين لمزاجه وعلاقته بالمال: الوعي المبكر والثابت بقيمته التجارية والإرادة الصلبة في ألا يختلس ماله.

هناك بعد ثالث لموقفه لا يظهر في هذه النكتة لكنه لا يخلو من أهمية: التذكر الملح لسنوات الفقر، لقد كانت قصيرة، إذ إن النجاح حضر مبكرا جدا لدى هذا الموهوب والمتفوق ذهنيا، لكن شبحها لازمه، إذ إن سوء الحظ الدائم الذي لازم



كهنفايلر Kahnweiler في خريف 1910 استقر في مرسم بيكاسو، الكائن في باريس وأصبح منذ مدة التاجر المعتمد للرسام.

بعض أصدقائه قد حُفر في ذهنه بمنزلة الشبح الذي يجب تحاشيه.

في مدخل «مال» في كتابه قاموس بيكاسو Dictionnaire 1» يحيل بيار داكس Pierre Daix على تجار القول إن المهم في علاقته بالمال ينكشف من خلال علاقاته بتجار الفن.

من بين كل الذين تابعوا أو صاحبوا بابلو بيكاسو، يعتبر Danial -Henri Kahnweiler أحسن المفاتيح لتوضيح هذا الوجه من شخصيته - التجار عرفهم الفنان وعرف الكثير منهم حسب أهوائه وركوب رأسه والظروف، أما هو فيبقى الوحيد الذي شهد عليه طوال مدة طويلة، منذ بدايات بيكاسو في السفينة Bateau-lavoir في السنوات الأولى من القرن العشرين إلى وفاته في موجين في العام 1973.

ورأى الوسط دوما فيهما الثنائي الأمثل: «إن كان بيكاسو ابتدع الفن التكعيبي، فإنك أنت ضمنت وجوده» ذلك ما قاله له الناقد Florent Fels 2 والثنائي ليس مدونا في السجل نفسه: «ماذا عسانا نكون لو لم يكن موهوبا في العمل التجاري؟» هذا ما سيقوله الأول ويجيب الثاني كأنهما في لحن بصوتين: «هم كبار الفنانين الذين يكونون كبار التجار»، هذان الاثنان استنشق أحدهما الآخر وقدّر أحدهما الآخر وساعد أحدهما الآخر وأعجب أحدهما بالآخر وتعاضد أحدهما مع الآخر وتخاصم أحدهما مع الآخر وتصالح أحدهما مع الآخر.

معلومة

1- P.Daix.Dictionnaire Robert Laffont - Picasso Bouquins 1995.

2- رسالة من Florent Fels إلى Daniel -Henry Kahnweiler, 1920أرشيف معرض Louise Leiris.

وبداية العلاقة بينهما تتطابق مع العصر الذهبي للفن التكعيبي، فالتاجر الألماني وقد استقر من مدة وجيزة في باريس، يفتح رواقه الأول في شارع فينيون Vignon وسنه 23 عاما في العام 1907، وكانت أسرته تهيئه لمهن البنك والمال، لكنه خلال دورة تدريبية بباريس، وعوضا عن أن يضيع وقته بالبورصة، اختار أن يمضي ثلاث ساعات يوميا في متحف اللوفر Louvre لتدريب بصره.

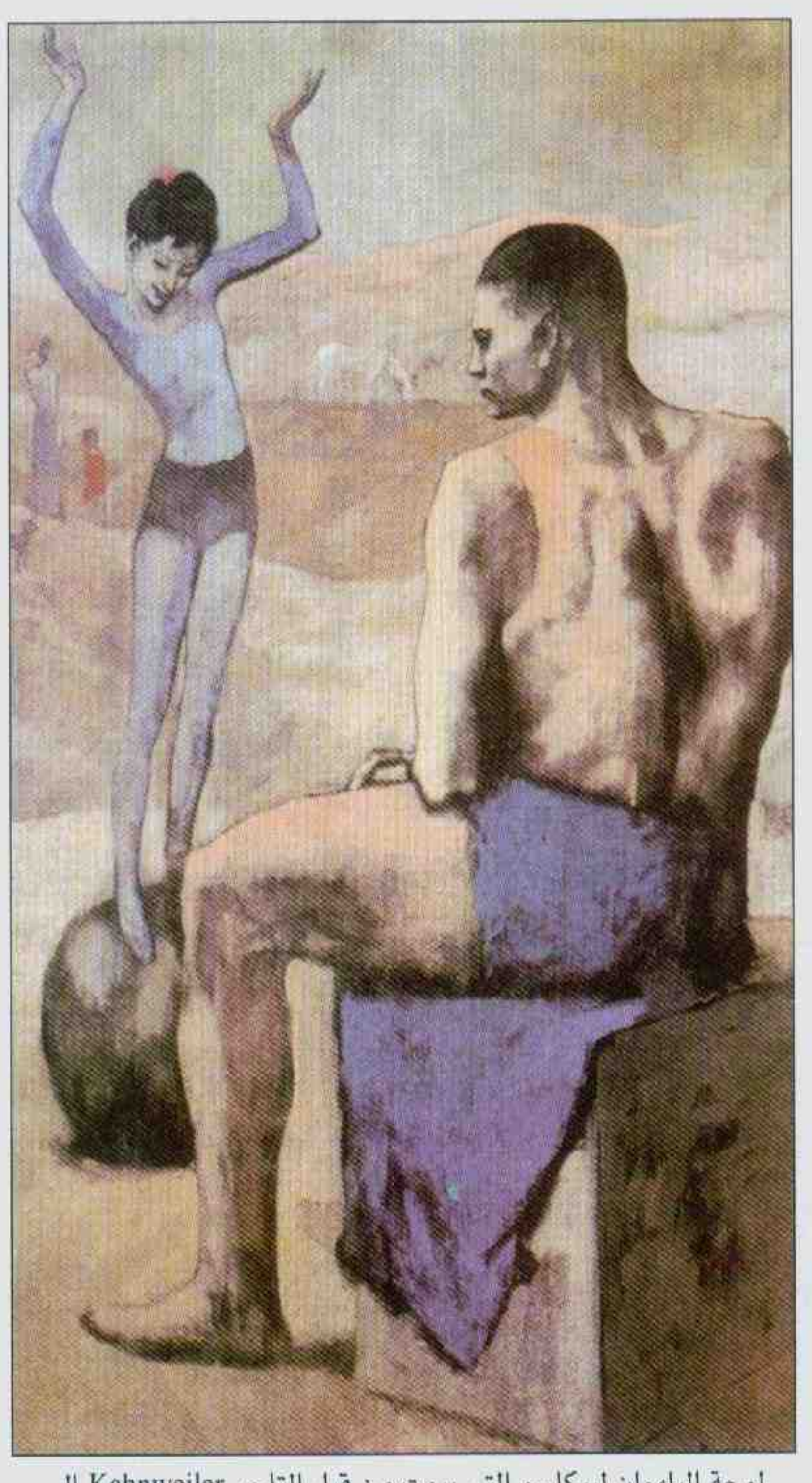
في السنة نفسها (1907) يكتشف كهنفايلر عند بيكاسو (26 سنة) وهو نكرة مثله من النكرات، لوحة روعت حتى أقرب الأصدقاء إليه، «فتيات أفنيون».

كهنفايلر هو من يظهر، في هذه اللحظة، مشدوها ومنهكا وتحت تأثير هذه الصدمة الجنونية، يعبر مباشرة عن تضامنه مع بيكاسو لما انهال عليه الجميع ناعتين إياه بالمجنون وهو موقف لا ينسى، ورجع التاجر بعد يومين واشترى من بيكاسو رسومات حديثة العهد ولوحات صغيرة جدا كانت كلها بمنزلة الدراسات التحضيرية لهذه اللوحة التي سببت الضيق والإزعاج. واللوحة نفسها! «ليست للبيع هي عمل غير مكتمل». هو لا يلح وليس بالإمكان الحصول عليها فورا، ويتفهم الموقف ويعي أنه لا يجب استعجال بيكاسو واعتبار أنه يعز عليه أن ينفصل عن لوحاته، لا بد من بعض الوقت حتى تتجلي تحفظات الأسباني

ومنذ ذلك الحين ارتبط مصير الأول بمصير الآخر.

بيكاسو كانت له الرغبة الأكيدة في أن يبيع لكنه يتساءل دوما هل لازال لدى تاجره الإمكانات الشرائية؟ وحتى يكون مؤمنا تماما بفكر الشراكة بينهما فإنه لا بد أن يقنع نفسه بأن كهنفايلر بإمكانه أن يضمن حياته المادية والدفاع عن رسومه بالقول والكتابة، ففي نظره، المال يبقى عصب الحرب.

كان بيكاسو في بدايته ورغم ذلك فإنه استخدم العديد من التجار: مواطنه بيدرو مناخ P-dro Manach، وكان الأول حيث وجده بيكاسو مع طول الزمن غير ناجع ومزعجا، Clovis Sagot الذي ينقصه الشمول، وإمبرواز فولارد Ambroise Vo-lard وبرت فايل Berthe Weil، الذين لم ينتظروا فشل «فتيات افنيون» حتى أشاحوا بوجهيهم عن رسومه بعد أن رحبا بها في وقت سابق.



لوحة البلهوان لبيكاسو التي بيعت من قبل التاجر Kahnweiler إلى مقتني لوحات روسي وهي معروضة في متحف بوشكين في موسكو.

الواقع هو أن بيكاسو لا يحب أن يضع مصالحه في أيدي الغير، إيداع جزء من مصيره إلى واسطة يعني في نظره فقدان التحكم به، وهو ما لا يتماشى البتة مع مظنته التي لا حدود لها. كنهنفايلير يضع ذكاءه ومدخره من الصبر لمداراة تسلط فكرة الاستقلال هذه لدى بيكاسو مع ضمان مساندة كاملة معنوية ومادية لبيكاسو. وتعّود على زيارته يوميا في مرسمه لتبادل الحديث، لا مكان للنظريات. فقط حوار حول الفن وفي أغلب الأوقات حول التجارة في الفن.

وسط هذه السنوات المليئة بالإبداع حسب الفن التكعيبي، والتي تمتد من 1907 إلى 1914، يتكل بيكاسو في نهاية المطاف على تاجره، ومن مدينة سيريت

بيكاسو و Kahnweiler بمدينة كان في العام 1956.

Ceret، ثم من مدينة صـــورج Sorgues فـوكـلـوز Vaucluse حيث استـقـر، يثق بـه لإنجـــاز أمـــوره المـالـيـة. هـذا داخل ضمن عقدهما وهو في الحقيقة مجرد مصافحة.

وفـــــي مـقـــابــل الانـفـــراد بتسويق إنتاجه، فإن تاجره يـقـدم إلـيـه ضمان الـتـشـغـيـل، فكان يـشـتـري مـنـه كل شـــيء، ورســـومـــا حسب أسعار متفق عليها بينهما وحسب الأحـجـام، وأعمال الحـفـر والـنـحـت بـأسـعـار هـي محل مساومة وتدفع شهريا، وهـذا الانتظام مضمون حتى في حالة كساد البيع.

ولما أصبح الرواق مهما إلى حد ما صمم التاجر على توقيع مواثيق اتفاق مع فنانيه: براك Braque أولا ثم ديرين Derain. مع بيكاسو تتعقد الأمور مـن بـاب المصادفة، فعلى الاقـتـراح الذي قـدمـه إلـيـه كهنفايلر كتابيا في 18 ديسمبر 1912، سرعان ما يرد بيكاسو مع تقديم شروطه: الموافقة على احترام المبدأ المقدس المتعلق بالحصرية التي يتعلق بها تاجره... لكن - بيكاسو - يحتفظ بحق بيع لوحاته ورسومه القديمة وكذلك يحتفظ بحق قبول طلبات «بورتريهات» أو زخارف جدارية كبرى، إلى جانب إمكانية الحفاظ لنفسه بخمس لوحات جديدة سنويا وبعدد الرسوم التي يراها ضرورية لعمله، وسيبقى هو نفسه الحكم الوحيد الذي يقرر صفة «مستكمل» أو «غير مستكمل» على أي عمل من أعماله،

معلومة:

(3) لوبوان رقم Le 42 Point أكتوبر 1952.

(4) لويـز ليريـس Louise Leiris كانـت فـي الحقيقـة البنت الطبيعيـة لزوجـة كهنفاير ولم تكن أختها وهو شـيء احتفظ به حتى وفاة ليريس.



القصر الذي اشتراه بيكاسو في العام 1958



بيكاسو مع حلاقه

هل هذه كل شروطه؟ نعم!... حتى الآن، أي لمدة الاتفاق أي ثلاث سنوات.

كهنفايلر سيفهم بسرعة أن مع بيكاسو لن تكون العلاقات كما هي مع غيره من الرسامين، إذ إن هذا الأخير يفقه جيدا ما يريد ويظهر أنه يستمد قراراته من تجارب سابقة جعلت حذره أكبر.

ولو علم بقيمته فإنه لن يجادل بشأن أي اقتراح يتقدم به التاجر، فليس الأمر مجرد تفاصيل إنما هو شعور أعمق، إنه يجد صعوبة في أن يفتح قلبه إليه تماما.

في العام 1914 تعطي صفقة بيكاسو أحسن النتائج؛ ففي السنة المنصرمة، اشترى منه تاجره بما يعادل مبلغ 27250 فرنكا - ذهبا (أكثر من 80000 يورو اليوم) مقابل لوحات ورسوم قابلة للتسديد في ظرف ثلاثة أشهر، ثم إنه باع «لوحة البهلوان» (L'Acrobate à la Boule) لوحة زيتية كبرى يرجع عهدها إلى 1905، باعها إلى هاوي المجموعات

معلومة:
كان بيكاسو سخي وكريم لدرجة أنه أهدى عددا من لوحاته إلى حلاقه وصديقه بمنطقة Vallauris.

الروسي إيفان موروزوف Ivan Morozov مقابل 16000 فرنك، وهو رقم قياسي لذاك الوقت، وبعدها بقليل يبيع للتاجر نفسه «الشاب على الحصان» (Le jeune homme à cheval) مقابل 20000 فرنك، و«امرأة جالسة في المقهى» (Femme devant une table de café) مقابل 8000 فرنك و (femme accroupie) مقابل 9000 فرنك!

يمكن الاعتقاد بأن الأمر يتعلق بنزوة من نزوات بيكاسو، الذي ينمي لديه هذا الهوى هو الماكر كهنفايلر. ليس الأمر كذلك حيث إنه في الوقت نفسه في 2 مارس 1914، عند بيع ما يسمى «جلد الدب» (LA Peau de l'ours) في فندق دروو Drouot، فإن «المشعوذين» (أسرة البهلوان Familles des Saltimbanques) وهي لوحة زيتية مقاسها 213 × 229 سم، وحدد سعرها بـ 8000 فرنك: وارتفع هذا السعر في خاتمة المطاف إلى 11500 فرنك والذي انتزع اللوحة هو التاجر الألماني الكبير Thannhauser، الذي اعترف مباشرة بعد

ذلك أنه عند اللزوم كان سيصعد بالمزاد العلني إلى ضعف السعر... وكان المراقبون في حالة ذهول، قبل عشر سنوات لم تكن رسوم بيكاسو تتعدى الليرة الفرنسية الذهبية للرسم الواحد... مما يقيم الحجة على أن الرسم العصري يباع بسهولة ولا أدل على ذلك من تسعيرة بيكاسو.

مع الحرب التي اندلعت في أغسطس 1914 والهجرة الإجبارية لتاجره إلى سويسرا فإن الرسام لم يتوقف عن الإنتاج، والبطالة الفنية التي أجبر عليها كهنفايلر، وهو من الرعايا الألمان، جعلت الاتفاق بينهما ملغى، ورغم علاقات الصداقة بينهما فإن بيكاسو سمح لنفسه أن يبدل وجهته فعرض على Paul Guillaume واستجاب لطلبات Paul Rosenberg.

بيكاسو يقول للتاجر Kahnweiler:

«أنت تريد الشراء بأزهد الأثمان والبيع بأغلاها»

غداة الحرب، كانت العودة بالنسبة إلى المهاجر صعبة. كهنفايلر استأنف جولاته عبر المراسم: ديران Derain، وفلامنك Vlaminck، ومانولو Manolo عادوا إليه بحكم الوفاء لشخصه، ومن بين كل رساميه بيكاسو هو الوحيد الذي بإمكانه أن يستغني عن خدماته من الآن فصاعدا، ومن بين أفراد المجموعة، هو الوحيد الذي لم ينخرط في الجيش، لذا فقد واصل العمل بينما كان الآخرون في ساحة القتال، وتطور مستبقا بانسياقه مع التيار الإنغريسكي (نسبة إلى اينقر Ingres) نحو العودة التي لا مفر منها نحو سواء السبيل والتي ستبرز في شكل كلاسيكية جديدة. كان للتاجر شكوك، لكنه تركها جانبا بهدف احتواء بيكاسو. سيكون الأمر أكثر صعوبة معه مما هو مع الآخرين. بيكاسو يبيع لكل من يريد وبالسعر الذي يحدده. في الحقيقة كان يحس بما له من قوة حتى أصبح تاجر نفسه.

شيء آخر جعله يسلك هذا السلوك، كان يحقد على كهنفايلر لأنه لم يسدد له 20000 فرنك كانت بذمته منذ العام 1914، وحيث إن البنك قد أوقف اعتماده فإن دائنيه اغتنموا فرصة الحرب لكي لا يسددوا ديونهم، لكن بيكاسو لم يكن مستعدا ليعير سمعا لهذه الحجج فاغتنم الفرصة لاستعادة حريته، وهو أمر يسير بالنسبة إليه إذ كانت شهرته في الذروة مع ظهور «تجار» أجانب جدد Reber و L-gano و Herman Lange في ألمانيا.

واستمر بعض السنوات قبل أن يستأنفا علاقات الصداقة فكأن أحدهما لا يستطيع أن يفلت من الآخر. وفي الثلاثينيات نراهما يستأنفان أحاديثهما كما كان في السابق: أحدهما كان حذرا في أحكامه بقدر ما كان الآخر مفرطا فيها.

كان معرض الرسم الإيطالي في متحف «القصر الصغير» فرصة للخصام، مثلما هو الأمر قديما، بيكاسو كان يزمجر قائلا إن صديقه معجب بتيتيان Titien وجيوتو Giotto ومازكشيو Masaccio «وكل هذه الرسوم المراد فيها تزيين الشقق القديمة



ميراث بيكاسـو عند الاتفـاق النهائي في العام 1979 الورثة هـم: زوجته الأخيرة جاكلـين روك Jacqueline Roque (يمثلها المحامـي رولان دوماس Roland Dumas الجالس في آخر الصورة)، أبناؤه الطبيعيون مايا Maya وكلود Claude (الرابع واقفا على اليسـار)، وبالوما Paloma (الجالسة في المقدمة على اليسار) وأبناء ابنه الشرعي باولو Paulo (المتوفى في العام 1975) مارينا وبرنارد Marina et Bernard.

والكنائس»، وكل ذلك من أجل الربح التجاري: «هو استجداء لأسوأ الصفاة... أنت تحب هذا، أنت؟ أنت معجب بالشهرة وبالأسعار الغالية... تريد أن تشتري بأزهد الأسعار وتبيع بأغلاها... لذلك أنت معجب Caravage...» (رسام إيطالي 1573-1610)، ويتواصل الحوار شهرا بعد شهر حيث إن بيكاسو يقيم في شارع لابيوتي La Boétie وكهنفايلر يقيم في شارع أستورغ Astorg، وسيتكثف الحوار عندما يستقر التاجر في رصيف «غراند أوغوستان»، ويستقر بيكاسو في العام 1937 قريبا جدا، في مرسمه في شارع غراند أوغوستان.

بصفته: ألماني ومنفي، ومعاد للفاشية، كان لدى كهنفايلر منذ الساعات الأولى (لاحتلال باريس) ما يكفي من الأسباب لإيقافه ونفيه. بعد أن أضفى على رواقه صبغة الآرية دون انتظار قرار السلطات بذلك وبتسجيله القانوني لهذا الرواق باسم أخت زوجته لويز ليريس(4) ذهب إلى الريف للاستجمام طوال أربع سنوات من جهة سان ليونارد دي نوبلا - - Sain Léonard - de Noblat في الليموزين -Lim ousin.

في أواخر الأربعينيات، عاد كهنفايلر فأصبح تاجر بيكاسو. كل معاملة لا بد أن تبرم على يديه، وعادت لكهنفايلر الحصرية في التعاقد مثل الأيام الأولى، وصفقة بيكاسو بلغت من المدى العالمي - إلى جانب النشر والتوزيع للوشائم - ما جعلها كافية وزيادة لإدارة الرواق وتسييره.

ستون عاما من الصداقة بحلوها ومرها، أما التاجر فلم يتغير قط في وفائه لمبادئه وأما الفنان فلم ينفك يتطور منضدا تناقضات جديدة إلى جانب التناقضات القديمة وبقيا معا على المدى الطويل،



بورتريه ذاتي في العام 1965 رسمه في مدينة Mougins حيث أنهى حياته

«كما يكون الرجل يكون الفنان» ذلك هو شعار التاجر الذي يوضح: «المواهب الفنية تتوقف دوما في مسيرتها في وقت من الأوقات إن كان الرجل تافها ولئيما

... بيكاسو كان رجلا كبير النفس...». لا يملكان حقا حس الفكاهة لنفسه، وفي يوم من العام 1958 حيث حضر بيكاسو بالرواق وهو يصيح: «لقد اشتريت جبل سان -

المؤلف:
بيار داكس نشر إضافة إلى الفهرس القياسي لعمله الفني خلاصات كبرى وسيرة الفنان بيكاسو

- Picasso life and Art (Thames and Hudson, 1993)
- Dictionnaire Picasso (Robert Lafont Bouquins 1995)
- Pablo Picasso (Taillandier, 2007)
- Dénis de mémoire (Gallimard) (Fayard).

فكتوار Sainte-Victoire» فيسأل كهنفايلر بيكاسو إلى أي لوحة من لوحات سيزان Cézanne يشير بالتدقيق، بينما الرسام قد امتلك لتوه قصر Vauvenargues وأراضيه الشاسعة تحت الجبل، غير بعيد عن مدينة Aix. الصداقة بين الرجلين قوية، لكن الاتفاق لم يكن قط شاملا، فبيكاسو على قدر كبير من الأنانية والصلابة والصعوبة والمواقف غير المرتقبة حتى يكشف عن سرائره، فهو لا يغفر شيئا: كنهفايلر خصص كتابا لخوان قريس، ومن الأوفياء لكن لم يخص قط بيكاسو بكتاب، ثم أن الرقم القياسي في بيع لوحته بأغلى سعر ممكن في الرواق في الستينيات هو الرقم الذي لم يحرزه بيكاسو Picasso وإنما ليجي Léger، وهو مليون من الفرنكات الجديدة دفعها تاجر ألماني للوحة «آدم وحواء» (Adam et Eve)... هذا لا ينسى، لكن لا يمنعهما من مواصلة المناقشات علنا، فالتاجر يلوم الرسام لبيعه أعماله بثمن غال جدا، بينما في الوقت نفسه يعطي بسهولة لوحات مباشرة إلى المتاحف من وقت إلى آخر. في خاتمة المطاف هما يعلمان حق العلم أن أحدهما يحتاج إلى الآخر وإن استمر بيكاسو في الاعتقاد كما كان ذلك من أول يوم بأن التاجر قدره أن يخدع الفنان.

لا يهم إن كانت الإشاعة، تعاضدها الأسطورة، تجعل من بيكاسو جشعا، إنما هو أراد لنفسه أن يكون شديد المراس بخصوص تصوره للتاجر كشر لابد منه حيث إن أغلب التجار «لا ينظرون إلى لوحة دون أن يفكروا لمن سيبيعونها». من غير شك فإن كانهفايلر ليس من هذا القبيل، لكنه لا يتوانى من نعته بـ «المستغل» وهي صفة يتلقاها باستخفاف وبهز الكتفين، صبره ومقاومته السلبية تقوم بالدور المتبقي فهو يعود دوما من عند بيكاسو

الصديق Pierre Daix وبيكاسو بمدينة Mougins في العام 1971، وهو مقاوم قديم نفي إلى Mauthausen التقى Pierre Daix ببيكاسو في نهاية العام 1945 عندما كان الحزب الشيوعي الفرنسي يعد المعرض «فن ومقاومة». كانت البداية لصداقة دامت حتى وفاة بابلو بيكاسو في العام 1973، وحيث أصبح Pierre Daix في العام 1947 رئيس تحرير المجلة الأسبوعية الشيوعية الآداب الفرنسية les Lettres Françaises. فتم التعاون مع الرسام ثم عمل على نشر مجلات لأعماله الفنية، قبل أن يصبح أحد كبار المؤرخين لسيرته.



متحف بيكاسو في مدينة «Antibes» في فرنسا

بعد سويعات أو أيام وقد فرض عليه آراءه أي أسعاره.

ليس لبيكاسو ميول للبذخ، لكن الواقع هو أنه طوال الثلاثين سنة الأخيرة من حياته وبمساعدة تسعيرته العالية، طبقت شهرته الآفاق حتى أصبح اسمه مرادفا للمال، وأصبح توقيعه يحول الرصاص إلى ذهب، لقد اتهم بالبخل وهو الذي وصفه بيار داكس Pierre Daix، الذي يعمل بالتعاون معه لإعداد سيرته الذاتية والفهرس المرتب لأعماله الشبابية، بالكرم الحاتمي، «لم يكن يحب المال من أجل المال بل إنه يترك لغيره كلما سمحت الظروف بذلك حتى يتصرف فيه مكانه، لكنه كان حريصا على جمعه لكي يحمي نفسه من الفقر الذي كان عرفه، إذن كوسيلة للإبداع والحياة الحرة»(6).

تجار آخرون حاموا حول بيكاسو، وكان من المكر والقوة أنه يتقمص دور مصارع الثيران يستعمل قطعة القماش الحمراء لإرهاق الثور قبل القضاء عليه، كذلك كان شأنه مع التجار وهم يتنافسون على الظفر بلوحاته.

كانهفايلر سيتألم من وضع يدعو إلى تقاسم فنانه مع لويس كاريه Louis Carré لحين من الدهر: لم يكن اللعب مجانيا إذ إنه سمح لبيكاسو أن يتحالف وأن يزيد في سعر بيع لوحاته، وهو قرار كان يرفضه كانهفايلر طالما أن السوق الأمريكية وهي ملسوعة باعتناق الرسام للشيوعية، لم تتحسن حالها. لويس كاريه تم وضعه على الحياد وظهر التاجر الأمريكي صامويل كوتز Samuel Kotz لمدة قصيرة حاملا معه العديد من اللوحات التي أعاد بيعها فورا في نيويورك بسعر باهظ، مما جعل كانهفايلر يتفجر حقدا، وحيث كان بيكاسو حريصا على الزيادة في أسعار لوحاته بالسوق، فإنه يغتنم الفرصة لتعديل أسعار السوق الفرنسية ساخرا أمام كانهفايلر المضنى ويقول له: لقد ضاعفت لك السعر»، لكن هذا الأخير سيكون له دوما ورقة رابحة بين يديه عندما يدور الحديث عن العصر الذهبي للفن التكعيبي، كان بيكاسو يلمح في نظرة كانهفايلر انعكاس فقره القديم وهي شهادة لا تمحى ولا تعوض ولا تغتفر.



الإصدارات الدورية

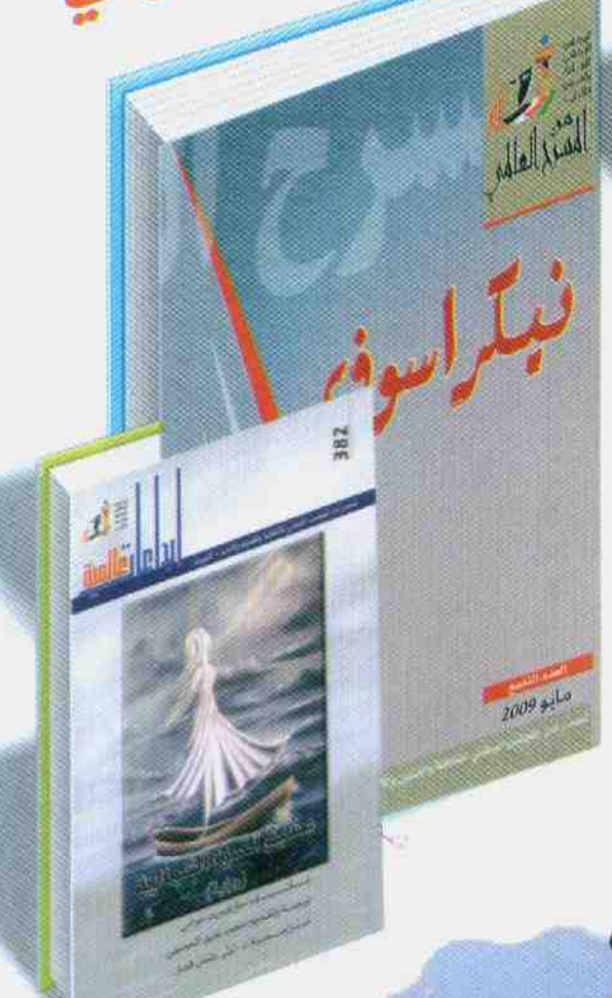
الكويت

جريدة الفنون





المسرح العالمي



جائزة الدولة التشجيعية

إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب



الكويت









الإصدارت الدورية

إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

على القراء الذين يرغبون في استدراك ما فاتهم من إصدارات المجلس التي نشرت بدءا من سبتمبر 1991، أن يطلبوها من الموزعين المعتمدين في البلدان العربية:

الكويت:

شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع
شارع جابر المبارك - بناية التجارية العقارية
ص. ب 29126 - الرمز البريدي 13150
ت 2417810/11 - 2405321 فاكس 2417809

الإمارات:

شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع
دبي، ت: 97142666115 - فاكس: 2666126
ص. ب 60499 دبي

السعودية:

الشركة السعودية للتوزيع
الإدارة العامة - شارع الملك فهد (الستين سابقا) - ص. ب 13195
جدة 21493 ت 6530909 - فاكس 6533191

سورية:

المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
سورية - دمشق ص. ب 12035(9631)
ت 2127797 ـ فاكس 2122532

مصر:

دار أخبار اليوم
6 شارع الصحافة - الجلاء - القاهرة
ص. ب: 561 القاهرة
ت 0020225806400 فاكس 0020225782632

المغرب:

الشركة العربية الأفريقية للتوزيع والنشر والصحافة (سبريس)
زنقة سجلماسة الدار البيضاء 70
ت 22249200 ـ فاكس 22249214 (212)

تونس:

الشركة التونسية للصحافة
تونس - ص. ب 4422
ت 322499 ـ فاكس (21671) 323004

لبنان:

شركة الشرق الأوسط للتوزيع
ص. ب 11/6400 بيروت 11001/2220
ت 487999 ـ فاكس 488882 (9611)

اليمن:

القائد للتوزيع والنشر
ص. ب 3084
ت 3201901/2/3 ـ فاكس 3201909/7 (967)

الأردن:

وكالة التوزيع الأردنية
عمان ص. ب 375 عمان - 11118
ت 5358855 ـ فاكس 5337733 (9626)

البحرين:

مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف
ص. ب 224/ المنامة - البحرين
ت 294000 - فاكس 290580 (973)

عُمان:

المتحدة لخدمة وسائل الإعلام
مسقط ص. ب 3305 - روي الرمز البريدي 112
ت 700896 و788344 ـ فاكس 706512

قطر:

دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع
الدوحة ص. ب 3488 - قطر
ت 4661695 ـ فاكس 4661865 (974)

فلسطين:

وكالة الشرق الأوسط للتوزيع
القدس/ شارع صلاح الدين 19
ص. ب 19098 ـ ت 2343954 ـ فاكس 2343955

السودان:

مركز الدراسات السودانية
الخرطوم ص. ب 1441 ـ ت (24911) 488631
فاكس (24913) 362159

نيويورك:

MEDIA MARKETING RESEARCHING
25 - 2551 SI AVENUE LONG ISLAND
CITY NY - 11101 TEL: 4725488
FAX: 1718 - 4725493

لندن:

UNIVERSAL PRESS & MARKETING LIMITED
POWER ROAD. LONDON W 4SPY.
TEL: 020 8742 3344
FAX: 2081421280

قسيمة اشتراك في إصدارات

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

البيان	سلسلة عالم المعرفة		الثقافة العالمية		عالم الفكر		إبداعات عالمية		جريدة الفنون	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
مؤسسة داخل الكويت	25		12		12		20		18	
أفراد داخل الكويت	15		6		6		10		8	
مؤسسات دول الخليج العربي	30		16		16		24			36
أفراد دول الخليج العربي	17		8		8		12			24
مؤسسات خارج الوطن العربي		100		50		40		100		48
أفراد خارج الوطن العربي		50		25		20		50		36
مؤسسات في الوطن العربي		50		30		20		50		36
أفراد في الوطن العربي		25		15		10		25		24

تسدد الاشتراكات والمبيعات مقدما نقدا أو بشيك باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت ويرسل إلينا بالبريد المسجل.

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب 23996 الصفاة - الرمز البريدي 13100

دولة الكويت

بدالة: 2416006 - داخلي: 196 / 195 / 194 / 193 / 153 / 152



تصدر مجلة العلوم شهريا منذ عام 1986 عن مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، وهي في معظم موادها ترجمة عربية لمجلة *ساينتفيك أمريكان* التي تُعتبر من أهم المجلات العلمية المعاصرة والتي تصدر بثماني عشرة لغة عالمية. وقد صدر من *مجلة العلوم* حتى الآن 260 عددا.

اقرأ في العددين 12/11 (2009)

بزوغ علم الوِب ـ ثمن الطفرات الصامتة ـ الوقود البيولوجي (الكراسولين): البديل المتاح للنفط مستقبلا ـ مدى أهمية الضحك ـ تشكل تضاريس الدماغ ـ ما الذي يَجْعَلُنَا بَشَرًا؟ ـ اتقاء الجائحة التالية ـ ارتقاء في هندسة النسج ـ مدينة «هرقليون» في مصر: رُسمت خريطتها تحت مياه البحر ـ ماذا نعمل الآن بخصوص النفايات النووية؟

الاشتراكات

	بالدينار الكويتي	أو بالدولار الأمريكي
❖ للطلبة والعاملين في سلك التدريس و/ أو البحث العلمي	12	45
❖ للأفراد	16	56
❖ للمؤسسات	32	112

وتحول قيمة الاشتراك بشيك مسحوب على أحد البنوك في دولة الكويت.

مراسلات التحرير توجه إلى **رئيس تحرير «*مجلة العلوم*» ـ مؤسسة الكويت للتقدم العلمي**
ص.ب: 20856 الصفاة، 13069 ـ دولة الكويت ـ هاتف: 22428186 (965+) ـ فاكس: 22403895 (965+)
العنوان الإلكتروني: oloom@kfas.org.kw



لوحة بيكاسو «غرنيكا»: معروضة في متحف الملكة صوفيا في مدريد ونسخة منها معلقة في مقر الأمم المتحدة في نيويورك